محمد تركي

رواية

ظل الإله

obeikan.com

الكتـــــــاب: **ظل الإله**

المــؤلــــــف: **محمد تركي**

تصميم الغـــلاف: **محمد مجدي**

المراجعة اللغوية: **محسن عبدالستار - مؤسسة إبداع**

رقـــم الإيـــداع: 2017 / 2908

الترقيــم الدولــي: 0 - 154 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنـــي: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0227931911 - **موبايل:** 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

محمد تركي

رواية

ظل الإله

obeikan.com

obeikan.com

- البداية -

ألقيت نظرة سريعة على وجه المرأة النائمة وسط غابة من الأنابيب والأسلاك، وقناع الأكسجين على وجهها الغارق في غيبوبته الصناعية بفضل المسكنات القوية.

شعرت للحظات بحنان جارف نحوها، لكنه ما كاد يصعد إلى وجهي ليطفح على قسماته حتى وأدته بسرعة إلى داخل أعماقي.

(فأنت يا امرأة قوتي وضعفي).

التفت للطبيب الواقف بجواري في احترام يشوبه الكثير من الرعب ثم قلت له في حزم:

- أنا في البلكونة بشرب سيجارة لو فاقت قولي.

همس الطبيب بصوت مرتجف مليء بالاحترام:

- حاضر سيادة الرئيس.

ألقيت نظرة أخيرة عليها ثم جلست في الشرفة المطلة على الشارع، أشاهد رعاياي في هدوء يقترب من البرود، ثم أخرجت علبة التبغ من جيبي وورق البفرة وأخذت في بساطة أضع التبغ فوق الورقة، ثم أبرمها في خبرة واحتراف، كم أعشق السيجارة الملفوفة يدويًا، خاصة عندما أبلل طرفي الورقة بلعابي فأشعر بنعومة الورقة على لساني وشفتي، لم أحب

obeikan.com

يومًا السيجار أو السيجارة الجاهزة مهما كان ثمنها، عشقي كله للسيجارة اليدوية، منذ أن كنت أجمع أعقاب السجائر في صغري وأستخرج منها بقايا التبغ، ثم أصنع سيجارتي الخاصة، ياه، كم كنت أشعر لحظتها برعشة ممتعة تفوق ممارسة العادة السرية التي كنت أدمنها رغمًا عني، وإلا وقعت على تلك المرأة.

ارتجف جسدي في اشمئزاز وشعرت بغثيان، لكني أيامها كنت في عنفواني، وكنت أرى ما يجعل القديس يسقط من عليائه لأرض الظلام، لذا لجأت لذلك حتى لا أهوى ما هو أبعد من أرض الظلام.

أشعلت سيجارتي بقداحتي الذهبية، وأغمضت عيني كعادتي كلما تنفست أول نفس من كل سيجارة، ثم فتحت عيني ونظرت للشارع في برود.

تناهى إليّ صوت نحنحة خفيضة، فالتفت إلى الخلف لأجد الطبيب ينظر إلى الأرض، فسألته:

- فاقت.

أجابني في احترام مبالغ فيه:

- نعم سيادة الرئيس.

نهضت ببطء وأنا أتنفس آخر أنفاس سيجارتي ثم قذفتها من الشرفة لتهبط كما تريد، ثم دلفت مع الطبيب إلى الغرفة، وجلست على مقعد بجوار الفراش وأنا أنظر إليها بملامح، حاولت أن تكون خالية من الانفعال لولا ارتجافة بسيطة ظهرت على عضلات وجهي، فوجدتها ترمقني بدورها وهي

تتألم، ثم همست بصوت ساخر متألم:

- بتحاول تداري مشاعرك عاوز تفضل عايش في دور الرجل الحديدي.. ماتحاولش، أنا الوحيدة اللي عرفاك وفهماك.

شعرت بسكين خفي يمزق قلبي مع كلماتها البسيطة، وزادت الخلجات في وجهي وأنا أنظر إليها في حذر مما ستقوله، فتابعت بصوت مرهق من الألم:

- طبعًا مالكش عين ترد.. تسيب أمك في المستشفى شهور وماتجيش تزورها.. طبعًا مستعر مني، ولا خايف من الماضي.. خايف يبان ضعف الراجل الحديدي.. أنا الوحيدة اللي بتقدر تخوفك حتى وإنت كبير، أنا نقطة ضعفك.

مع كل كلمة كانت أعماقي تتزعزع واستقراري النفسي يتهاوى، هي نقطة ضعفي الوحيدة، هي حبي وكرهي، هي ضعفي وقوتي، هي غضبي ورحمتي، للأسف هي شهوتي التي لم أمسها، هي هوسي.

ابتلعت لعابي في صعوبة وأنا ألتفت للطبيب المذهول الذي هتف بي رغمًا عنه:

- مش أم حضرتك ميتة من زمان.

ابتسمت أمي في مرارة أعادتها إليها عبارة الطبيب، فأشرت إليه في غضب لكي يخرج، فأسرع بالخروج وهو يكاد يسقط من الخوف، وما كاد يغلق الباب خلفه حتى استدرت نحوها قائلاً في غضب ضعيف:

- "أمي.. أنا ماقصرتش معاكي.. أنا جبتك في أغلى مستشفى"...

obeikan.com

قاطعتني بصوت متألم:

- بس كان ناقصني ابني.. ابني اللي مابصش في وشي من ساعة ما بقى رئيس!

قلت لها في قوة:

- أنا ماقصرتش في حقك.. جددتلك الشقة وجبتلك خدم وفلوس من غير حساب.. عايزة إيه تاني؟

همست ودموعها تتساقط ومعها يتساقط آخر جدار جليدي في أعماقي:

- كنت عايزة ابني.. أنا عارفه إنك ماكنتش تقدر تخدني معاك.. ماكنتش عاوز حد يربط بيني وبينك.. ماكنتش عاوز حد يشوفني معاك، فيرجع الماضي اللي إنت بتهرب منه.

صرخت بها في ضعف وأنا أرتجف:

- كفاية.

تابعت في قسوة حانية كأنني لم أقاطعها:

- أنا ماكنتش عاوزة آجي معاك علشان وضعك الجديد ماكنش يسمح، بس على الأقل كنت تعال زورني.. كنت بموت كل يوم وأنا بشوفك في التليفزيون، كنت بلمس الشاشة... كان نفسي أشوف ابني قدامي وألمسه.

لم أرد عليها وأنا أضع رأسي بين يدي ودموعي تحاول الهرب من عيني، فتابعت هي في مرارة:

obeikan.com

- كنت عاوزة أشوف نتيجة تعبي.

هنا رفعت وجهي مبهوتًا ولقد شعرت بأننا في لحظات المواجهة الأخيرة، لحظات تستدعي الصراحة وإخراج كل ما استقر في جوفي عبر عشرات السنوات، لذا رددت في استنكار مذهولاً:

- تعبك! ماما إنتي بتنسي ولا إيه؟ هو ده اللي أنا بهرب منه طول الوقت... أنا بهرب من الماضي ومنك.. ده اللي أنا بحاول أحطمه.. ده اللي خلاني عاوز أنتقم من الحياة ذات نفسها.. ده اللي خلاني من غير قلب حتى عليكي.

أجابتني في حزم ضعيف:

- الماضي ده هو اللي وصلك.

صرخت بها وأنا أتشبث بمقعدي:

- ماضي قذر خلاني زي ما إنتي فاهمة، مش زي ما إنتي شايفة والناس كلها شايفة.. علشان كده كان لازم أهرب منه ومنك إنتي بالذات.. كل اللي عملته فيكي كان محاولة للهرب.

همست في ضعف:

- ماكنش قدامي غير كده... كنت هعيشك منين.. ماكنش قدامي طريق تاني.

صرخت بها في مرارة:

- وأنا بسببك مشيت في نفس الطريق.. بقيت زيك.. إنتي وكلتيني بعرق....

obeikan.com

لم أنطقها حتى لا أجرح لها مشاعرها، فهي ما زالت نقطة ضعفي التي هربت منها عندما أصبحت الرجل الحديدي، فلو ظلت بجواري لتسببت في نهايتي لضعفي نحوها.

همست هي في ضعف من وسط دموعها:

- ماكملتش ليه.. أيوه أنا وكلتك من عرق جسمي.. يعني كنت عاوزني بشوفك بتموت من الجوع وأسكت.

صرخت بها في قسوة:

- يا ريتك سبتيني أموت بدل ما أتربى التربية الوسخة دي.. أنا اتربيت على الذل والإهانة.. مع كل لقمة كنت بخسر حتة من كرامتي لغاية ما بقيت عديم الكرامة، بقيت نطع.. فكملت طريقك ووصلت بس خسرت إني في يوم من الأيام أحس بالمشاعر الحلوة اللي بيقولوا عليها.. إنتي السبب إني بقيت حيوان.. بقيت بكره كل الناس.. عاوز أنتقم من كل الناس، وخصوصًا اللي عرفني على حقيقتي.. إنتي السبب إن العلاقة ما بيني وبينك بقيت علاقة مرضية، بحبك حب غير طبيعي مش حب ابن لأمه، وهو ده اللي خلاني في نفس الوقت أكرهك.. إنتي دمرتيني ووصلتيني في نفس الوقت.. إنتي كل حاجة حلوة ووحشة في حياتي!!

صمت للحظات ثم تابعت في مرارة:

- وبعدين جات هي وكملت على اللي فاضل مني، أنتوا الاتنين حولتوني لمسخ غريب متردد، أناني، قاسي، منتقم.. أنا أتشوه جوايا وأنتوا السبب.

صمت قليلاً وأنا أتنفس في عمق وهي تراقبني في حنان ومرارة ممزوجة بالدموع، لكني شعرت بسخف كل شيء، وأن كل ما أقوله بلا معنى، الماضي لن يتغير، ربما أكون قد شعرت براحة، لكن لا شيء سيتغير، لذا تابعت وأنا أنهض من فوق المقعد لأنهي هذا السخف:

- أنا مش عارف إيه اللي جابني.. أنا ماشي.. لولا إلحاحك ماكنتش جيت.. أرجوكي سيبي الماضي مدفون ماتحوليش تخرجيه من قبره.. أنا مش عارف إحنا قلنا الكلام ده ليه، رغم إننا كاتمينه جوانا.

أشارت إليّ في حزم لأجلس، فامتثلت في تلقائية، وهي تقول في صرامة حانية:

- أنا فتحت الكلام معاك عن الماضي علشان تخرج كل اللي جواك.. أنا جبتك النهارده علشان تدفن الماضي لآخر مرة.. صدقني المرة دي مش هتشوف الماضي تاني!!

هممت بالاستفهام، لكنها أصمتتني في حزم متابعة:

- "أسمعني وماتقاطعنيش.. أنا مرة بتموت.. ماعدش ف العمر بقية.. أنا عارفة إن المرض سيطر على جسمي كله.. أنا عايشة بالمسكنات بس".

صمتت للحظات لتنسال دموعها مع أنات صغيرة، ثم تابعت في شيء من الوهن:

- بس الألم شديد والمسكنات ماعدتش نافعة، وأنا ماعدتش مستحملة الألم.. علشان كده أنا جبتك.. علشان أشوفك لآخر مرة وعلشان عاوزة

obeikan.com

منك طلب أخير.

سألتها وأنا لا أستطيع السيطرة على أعصابي، فأنا أتمزق من داخلي، فأنا أريدها بجواري، لأنها مرضي المسيطر على جسدي، وأتمنى موتها لأنزع قبضة الماضي من حول عنقي:

- أنا تحت أمرك.

مدت يدها إليّ، وهي تنظر إليّ في ضعف وانتظار، فأمسكت بيدها لأشعر بارتجافة شديدة تهز أعماقي وماضٍ عنيف ينفجر في داخل عقلي، ورغمًا عني حب جارف لها في قلبي، فوجدت نفسي أبكي فوق يدها، وهي تهمس في حنان:

- ماتبكيش يا ولد..

زاد بكائي، وزاد بكاؤها، ظللنا نبكي للحظات، لكنها همست لي في رجاء:

- أوعدني إنك هتنفذ طلبي الأخير.

نظرت إليها في ضعف، فتابعت في قوة ورجاء:

- احلف.

حلفت لها بصوت متقطع من البكاء، فأكملت هي بصوت حانٍ وهي تنظر في داخل عيني:

- أ أقتلني!

نزعت يدي منها في عنف، وأنا أرمقها في عدم فهم، وعدم تصديق، لكنها

obeikan.com

أكملت في هدوء غير طبيعي:

- ريحني من الألم واقتلني!

هززت رأسي في عدم فهم، نظرت إليّ في حنان دامع، فانفجرت أنا في البكاء قائلاً:

- مش فاهمك.. عاوزاني أعملك إيه؟.. الدكاترة هيرفضوا أنهم يقتلوكي.. أنا ممكن أأمرهم بكده.. بس مش هينفذوا حتى ولو نفذوا هتبقى نقطة ضعف في حقي.. ممكن أبعت حد تبعي يحطلك مادة مميتة في المحلول بس...

صمت للحظات لأسيطر على انفعالي، ثم تابعت في ضعف:

- بس أنا مش عايزك تموتي!

ابتسمت لي وهي تتألم، ثم أشارت إليّ لأقترب، وهمست لي في حنان وألم:

- يا ابني أنا ماعدتش قادرة أستحمل الألم، وكمان ماعنديش القوة اللي تساعدني إني أقتل نفسي أرجوك أرحمني.. الألم ماعدش ينطاق.

ظللت أنظر إليها في مرارة ورفض، لكنها ظلت تنظر إليّ في تصميم ورجاء، دائمًا ما أضعف أمامها، وهي دائمًا ما تستغل هذا الضعف لصالحها، لذا وجدتني أقول لها في استسلام:

- هابعت حد من عندي هيعملك كل اللي إنتي عايزاه.

أمسكت بيدي في عنف غير متوافر لمن في مرضها، ثم قالت لي في حزم وهي تنظر داخل عيني في قوة:

obeikan.com

- لا... إنت اللي هاتقتلني!

شهقت في رعب وأنا أنزع يدي منها متراجعًا للخلف فأصطدم بالمقعد لأسقط على الأرض، ظللت هكذا للحظات وأنا غير مصدق، شعرت وكأنني في كابوس، هذه المرأة لا تريدني أن أحيا في سلام، كلما ظننت أنني قد خرجت من سيطرتها عليّ، أجدني أغوص أكثر في بركتها الموحلة.

نهضت ببطء وأنا أقول لها في حسم:

- أوعي تفكري إني ممكن أعمل كده... إنتي باين عليكي بتخرفي من التعب

ابتسمت لي في حنان ثم قالت في ثبات:

- بالعكس أنا في كامل قواي العقلية.. بص يا ابني أنا لو كنت عايزة حد تاني غيرك يقتلني ماكنتش بعتلك.. إنت عارف الموضوع بسيط، شوية فلوس ومية واحد هايجي ويخلصني من عذابي.

صمتت للحظات، وأنا أرمقها في حذر، ثم تابعت هي بنفس الثبات لكن هذه المرة ممزوج بالقسوة:

- بس أنا قررت إن نهايتي تكون على إيدك زي ما كانت بدايتك على إيدي.. أنا وأنت بدأنا الطريق مع بعض.. وإنت اللي لازم تنهيه.

أخذت أحرك رأسي في عنف بمعنى لا، لكنها تابعت في قسوة وكلماتها تسقط كالسكاكين على أعماقي فتمزقه:

- أنا ماضيك المشين.. أنا ماضيك اللي بيطاردك كل يوم.. أنا ماضيك اللي مكبلك.. أنا ماضيك اللي لازم تخلص منة علشان ترتاح.. لازم تقتله

بإيدك وتدفنه علشان تحس بالخلاص.. لازم تخلص مني علشان مايفضلش في طريق حلمك أي عقابات.

كانت كلماتها تداعب شيئًا في داخلي، شيء يقول لي إنه وقت الخلاص من الماضي الذي يطاردني ليل نهار، شيء يخبرني بأنني سأتخلص من حبالها الملتفة حول عنقي، سأتخلص من عقدتي، سأتخلص من عذاب شهوتي نحوها، سأتخلص من حبي وكرهي نحوها الممتزجين معًا بطريقة مؤلمة تجعلني أتقلب كالخروف المشوي، شيء يخبرني بأنني سأشعر بالراحة عندما أفعلها بنفسي، بيدي سأنهي كل عقدي!

لذا أجبتها في ضعف، جعلها تشعر بأنني بدأت أستجيب:

– مش هقدر.

هنا ابتسمت في راحة وقد فهمت أنني ضعفت، ثم قالت لي في هدوء:

– هتقدر أنا عرفاك كويس.. أنا عارفة إن قلبك قاسي وإن دي مش أول مرة ليك فاكر موتني إزاي أول مرة.. دي كانت أصعب من اللي هتعمله المرة دي.. وكمان آلاف الشباب قتلتهم من غير ما يرتجفلك جفن علشان تفضل فوق.. جات عليا ومش قادر.

قلت لها في ضعف أشد وقلبي يتمزق عليها، لا على الشباب، فأنا لا أكن أية رحمة أو شفقة نحوهم:

– بس إنتي أمي!

قالت لي في قوة:

- لا أنا مش أمك.. أنا جرحك اللي مش عاوز يلم أبدًا.. صدقني أنا أخطر عليك من كل اللي قتلتهم.. إنت قتلتهم وأنت مافيش جواك حب نحيتهم.. كل اللي بينك وبينهم صراع.. بس أنا اللي بيني وبينك أخطر من كده.. اللي بيني وبينك ضعف ممكن يخسرك كل حاجة.. لازم تتخلص من ضعفك.. علشان تفضل قوي من غير نقط ضعف.. لو قتلتني هتبقى فعلاً الرجل الحديدي اللي ماعندهوش مشاعر ناحية أي حد.. هتستبدل القلب الصفيح للراجل الحديدي بقلب فولاذ.. لأنه خلاص دفن مشاعره في القبر معي... أقتلني يا ابني علشان تقتل أي ضعف جواك ممكن يوقعك من فوق.. ممكن يبعدك عن حلمك.

كنت أعلم أنني سأفعلها، لقد تهاوت كل دفاعاتي، تهاوت كل حصوني، لذا قلت لها في يأس:

- حاضر.. هانفذلك كل اللي إنتي عايزاه.. هجيب مادة قاتلة وهاحطهالك في...

قاطعتني في قسوة حانية:

- لا.. هتخنقني بإيدك وإنت بتبص في عيني علشان تنزع كل الماضي من جواك.. علشان مايفضلش جواك أي حب أو شفقة لحد.. علشان مايفضلش جواك غير القسوة، علشان تنتقم ليك وليا من الناس اللي سابونا للذل والجوع.. الناس اللي نهشوا لحمك ولحمي، علشان كنا ضعاف وماحدش وقف جنبنا.. اقتلني يا ابني علشان جواك يرتاح وتقدر تاخد بحقنا من غير ما تضعف بسببي.

obeikan.com

اقتربت منها أكثر وأنا أدمع بلا صوت، ثم قلت لها في حب متعدد المستويات والمعاني بسبب علاقتنا المركبة:

- أحبك.

أمسكت هي بيدي ووضعتها حول عنقها، ثم قبلتني بين عيني هامسة في حب:

- أحبك.

كدت أتراجع وشعرت بيدي تنفك من حول رقبتها، لكنها وضعت يدها على يدي هامسة في حب جارف:

- علشان خاطري خلصني من عذابي وإياك تضعف وإنت بتقتلني أو أصعب عليك، إياك والشفقة، حتى ولو أنا اللي طلبتها منك.

أغمضت عيني وأنا أبكي في حرقة ويدي بدأت تضغط على عنقها، وجدتها تهمس لي بصوت مبحوح:

- بص لي وأنت بتقتلني عاوزة يكون وشك آخر حاجة بشوفها وأنا بموت!

أخذت أضغط في قسوة حانية على عنقها وهي تنظر نحوي في امتنان، وبدأت تشهق في ألم ووجهها أخذ يتغير من الأحمر إلى الأزرق ووجدتني ألين وكدت أترك رقبتها، لكنها نظرت إليّ في قسوة ورجاء كي لا أتراجع.

فضغطت في قوة أشد وأنا أشاهد الألم في عينيها، بدأ الألم يشتد بها والهواء داخل صدرها ينفد.. فأخذت تحاول التنفس كفعل غريزي، لكني شددت من قبضتي فأخذت تحاول الفكاك مني، لكني صعدت فوق جسدها

operikan.com

وكبلتها بجسدي، فرمقتني في ألم ممتن.

ضغطت في قوة أكبر، وأخذت عيناها في الغروب، وشعرت بشيء ما ينسل خارجًا من أعماقي، شعرت بضعفي يترك جسدي مع كل ضغطة قاسية على عنقها، شعرت بشيء ما يلج داخلي ليحتل الفراغ الذي تركة ضعفي، وجدت قسوتي تزداد حتى نحوها، وجدتني أخنقها في غل والكراهية تسيطر عليّ ووجدتني أضغط بقوة أكبر، وهي تحاول الخلاص من بين يدي، لكني زدت من ضغطي وأنا أهمس لها في غل:

- موتي وخدي الماضي معاكي.. حرريني منك.

رمقتني في رضا، ثم همدت حركتها، لكني ظللت أضغط لدقائق إضافية حتى تأكدت تمامًا من موتها، فنهضت من فوقها ونظرت إليها للحظات في قسوة،

ثم وجدتني أرتجف ودمعة صغيرة تسقط من عيني وسقطت فوق جسدها لأحتضنه في قوة حانية هامسًا في مرارة:

- أمي.

openkan.com

-١-

ضمتني أمي بشدة إلى صدرها ليغتال اللون الأسود بصري فلا أرى غيره للحظات، وكانت تبكي في غزارة، ثم رفعت رأسها نحو الرجل الجالس في مواجهتها، لتجده ينظر كأسد سينقض على فريسته، فسألته في ضراعة:

- طب الحل إية دلوقتي.. هتشرد أنا والواد اليتيم ده في الشارع.. ده يرضيك.. ده برضك ابن أخوك اللي لسه عضمه ما بردش في الجبانة.

مرر بلسانه على شفتيه، وفي عينيه نظرة شبقة، لكن كل ذلك تلاشى وهو يخرج مسبحته من جيبه وأجابها في ورع ممزوج بمداهنة ثعلب قديم:

- إنتي شوفتي بنفسك الأوراق اللي عند المحامي.. أخويا الله يرحمه مالوش حاجة في البيت وماتركش ليكو أي ورث، وكان قاعد بالإيجار عندي وإنتي شوفتي الوصولات.

اعترضت أمي في وسط دموعها، وأنا أنظر لعمي في ضيق لا أعرف له سببًا:

- بس أخوك الله يرحمه عمره ما قال إننا عايشين عندك بالإيجار.. ودي كانت أول مرة بشوف فيها الإيصالات دي.

هنا كثعلب قديم متمرس، نهض من مقعده في غضب، ثم اقترب من أمي وعلى وجهه نظرة غاضبة يتخللها لمحات من الوله والرغبة، ثم هتف بها في قسوة ماكرة:

obeikan.com

– يعني قصدك إني حرامي.. وإني مزور الورق ده علشان آخد ميراثكم.. هو ده رد الجميل بعد ما أوتكم كل السنين اللي فاتت.. بصي يا بت الناس قدامك أسبوع وتدبري حالك، أنا محتاج الشقة علشان هجوز فيها الواد الكبير.

انفجرت دموع أمي في غزارة، وهي تهتف به غير مصدقة:

– ابنك عنده عشر سنين.. والبيت مليان شقق.. إنت بتتلكك.. حرام عليك.. هروح باليتيم ده فين.. ده لسه طفل ماكملش الست سنين وعضمه طري ومش هيستحمل البهدلة.

هنا ابتسم الثعلب وقد تيقن إنه قد وصل إلى مبتغاه، فجلس على المقعد المجاور لأمي وتبدل صوته للرقة هامسًا:

– أنا طبعًا ما يرضنيش البهدلة وما تنسيش إنكم من غير مورد رزق.. طب هتوكلي المحروس ده منين؟

مرر أصابعه في حنان مقرف بين خصلات شعري، لأبتعد أنا عن يده في اشمئزاز طفولي، فأكمل بيده حتى صدر أمي فلمسه بطريقة متعمدة تخالها غير متعمدة، ليبتلع ريقه في صعوبة، وتبتعد أمي في حدة، لكنه أكمل في رغبة نارية خارجة مع كل كلمة:

– أنا ممكن أسيبكم تعيشوا في البيت.. وكمان هديكي اللي يعيشكوا وزيادة.. بس...

صمت للحظات، وهو يتفحص جسدها في توحش، فأسرعت أمي تسأله في

openkan.com

توجس:

- بس إيه؟

أخذ يداعب المسبحة في سرعة، كأنة يخرج فيها انفعاله، ثم قال لها في رقة:

- بس راسك دي لازم تلين.

***

من ثقب الباب كنت أشاهد أمي في أحضان عمي، كنت أرى جسدها عاريًا كيوم ولدتها أمها، لم أكن في تلك السن أدرك شيئًا ولا أشعر نحو جسدها أو نحو ما يحدث في فراش أبي بشيء، لكن صوتها وهي تتأوه بين أحضان عمي، كان يشعرني بالغضب، لذا في إحدى المرات طرقت عليهما الباب في عنف، فأسرعت إليّ أمي في ذعر بعدما فتحت الباب، لكن عمي جذبها من ذراعها لداخل الغرفة ومال نحوي بقرش صاغ هامسًا في رقة:

- روح هاتلك حاجة حلوة.. بس أوعى تقول لحد إني عندكم وخصوصًا مرات عمك وعيال عمك.

تلقفت القرش في لهفة طفولية، وأسرعت للخارج فرحًا، ومن خلفي صوت تأوهات.

تعددت زيارات عمي لنا، لكني كنت أستغرب لماذا يأتي إلينا وهو يتلفت حوله، ولماذا دائمًا كان يطالبني بعدم إخبار أحد بمجيئه وإلا حرمني من القرش؟!

ولا أعلم لماذا كانت أمي بعدما يغادر عمي تضمني إلى صدرها باكية بعدما تودعه ببصقة، ثم تميل نحوي هامسة ودموعها تنزف:

- سامحني يا ابني.. الجوع ما بيرحمش.. والشارع ما بيرحمش.. كل ده علشانك.

بالفعل لم أشعر في أي يوم بالجوع، كان عمي دائمًا ما يجلب لنا كل ما نريد في السر، لكن لا يوجد سر يدوم للأبد.

في إحدى المرات وأنا أتابع الصراع العاري بين أمي وعمي من ثقب الباب، سمعتها تقول له في غضب:

- إنت وعدتني إنك هتكتب عليا في الحلال.. إنت عارف إني كنت رافضة وإنت ضغطت عليا شهور لغاية ما كنت هموت أنا والواد من الجوع.. وراسي لانت لما قولتلي إنك هتتجوزني.. بس بقلنا شهور مع بعض في الحرام وكل مرة بتزوغ من وعدك.

تنهد في مرارة للحظات، ثم أجابها في شيء من الغلظة:

- أنا نفسي والله أعيش معاكي في الحلال.. بس إنتي عارفة مراتي مفترية.. تصدقي بالله يا شيخة إحنا كده أحسن من المتجوزين.. بذمتك أنا برفضلك طلب.. يا شيخة فكك من الجواز.. هو في حد متجوز مرتاح!

بدأت دموعها تسيل، وهي تقول له في مرارة:

- يا أخي حرام عليك.. أنا كل يوم بحس إني بموت.. أنا تعبت من الحرام.. أكتب عليا في السر.. بس أحس قدام نفسي إني ما بعملش غلط.. عاوزة

أحس بالأمان.

أخذ يزوم في قسوة، ثم قال لها ضاغطًا على كل حرف كأنه سيحطمه:

- اسمعي يا بت الناس.. مش عاوز كلام ف الموضوع ده تاني.. أنا مش بتاع جواز.. كفاية عليا التهمة اللي في البيت.. هي أصلاً بتشك فيا عيزاني أتجوزك.. طب إزاي.. إنتي ناوية على خراب بيتي.

صمت للحظات مستمتعًا بدموعها، ثم تابع في وعيد:

- خلي بالك هي كانت عاوزة تطردك من البيت.. إنتي عارفة إنك جميلة زيادة عن اللزوم.. وهي بتغير منك.. فلو لقدر الله عرفت حاجة هتلاقي نفسك في الشارع.. والشارع ما بيرحمش.. والكلاب هتنهشك إنتي وابنك.. فلمي الدور وقفلي على موضوع الجواز.

أومأت من وسط دموعها في يأس، فضمها إلى صدره في شبق، هامسًا في حنان:

- أيوه كده.. استهدي بالله واعقلي وخلينا نكمل.. مش عاوزين نضيع الليلة في الزعل.

كما قلت من قبل، لا يوجد سر أبدي، هناك دائمًا تأتي لحظة ليتحطم فيها السد ويكسح الطوفان كل شيء.

كنت أنا من حطم السد بطفولته وبراءته، في هذا اليوم وكالعادة أعطاني عمي القرش المعتاد وأمرني بالخروج لأنة سيجلس مع أمي في الصالة، لأنة مشتاق لرقصها، ولجسدها وهو يتمايل في غنج، ثم مد يده في طبق التفاح

وأعطاني واحدة، ودفعني للخارج.

أخذت أنزل السلم وأنا أقضم التفاحة في تلذذ، ليراني ابن عمي الصغير وهو يكبرني بعامين، وكعادته كلما يراني يسخر مني ويضربني على قفاي، لكن هذه المرة، ما كاد يرى التفاحة في يدي، حتى حاول نزعها مني، لكني تشبثت بها في استماتة، لكنه كان أقوى مني فنزعها مني قائلاً:

- سرقتها منين يا حرامي!

كنت أبكي وأنا أشعر وكأنه قد انتزع روحي مع التفاحة، ثم قلت له وأنا أمد له يدي:

- اديني تفاحتي.. أنا مش حرامي.. عمي هو اللي عطاها لي.

لم يعطني التفاحة، بل أخذ يقضم منها قائلاً في تكذيب:

- شوفت إنت كداب.. أصلاً بابا مش هنا.. بابا خرج يا حرامي.

قلت له باكيًا وأنا أحاول استخلاص التفاحة منه:

- أنا مش كداب.. والله باباك هو اللي عطاها لي حتى أسأله.

صرخ بي في حدة:

- قولتلك بابا خرج يا كداب.

قلت له محاولاً نزع آخر قضمة من التفاحة:

- لا أنا مش كداب.. باباك فوق مع مامتي.

كنا بجوار الشقة التي تحيا بها أمه، وكانت امرأة جميلة لكن ليست بخارقة الجمال كأمي، وكانت دائمًا ما تحقد على أمي وتغار منها، حتى وأبي على قيد الحياة، ومعها حق في ذلك، فأنا عندما كنت أتمشى مع أمي في الحارة أو في أي مكان، كانت الأعين الرجولية كلها تتابعها، فتتمايل الرؤوس مع مشيتها، وتتابع تضاريس جسدها وجمال وجهها في افتنان، كم من مرة حدث تصادم في الشارع بين السيارات بسببها، كم من مرة حدثت مشادات بين الأزواج والزوجات في الشارع بسبب الغيرة من جمالها الصارخ.

لذا ما كاد ابن عمي يطرق باب شقة أمه ويخبرها، حتى تغير وجهها وأربد من الغضب، فأمسكت بي في غلظة جعلتني أكاد أتبول على نفسي من الخوف، فأنا كنت أخاف منها بالفعل لأنها امرأة حادة الطباع، وكنت أخاف منها لمعاملتها العنيفة لي ولبغضها لأمي.

فركت أذني في غل بين أصابعها ثم سألتني وأنا أتلوى بين يديها من الألم:

- اللي إنت بتقوله ده صحيح.. عمك فين.. أنطق؟

حاولت الفكاك من أصابعها المؤلمة لأذني، لكني لم أستطع لجبروتها، فأسرعت أشير إلى أعلى، قائلاً من وسط دموعي:

- فوق.. عمي فوق عند ماما.

دفعتني في قسوة لأسقط على السلم، وفي لمح البصر كانت تطرق الباب على أمي صارخة في جنون:

- أفتحي يا خطافة الرجالة.. أفتحي بدل مكسر الباب عليكي وعليه.. أفتح

يا نطع

كان صوتها مرتفع للغاية، فبدأ الناس في التزاحم على درجات السلم صاعدين لأعلى، زاحمت السيقان الصاعدة لأعلى وصعدت معهم، لأجد عمي قد فتح الباب وهو يرتجف وأمي تبكي في الخلف بقميص النوم، وكان هو يقول لزوجته في ضراعة جاذبًا إياها للخارج:

- خلاص يا فوزية.. إسكتي فضحتينا.

لكنها كانت تدفعه في صدره في غل، محاولة الدخول للشقة، صارخة في غل:

- أنا برضك اللي فضحتك يا زيناوي يا ابن الكلب.. سيبني أدخل أجيب الشرموطة دي من شعرها.. خطافة الرجالة بنت الوسخة.

تزاحم الناس حولهم محاولين تهدئة زوجة عمي، وعيونهم على جسد أمي العاري يأكلون منه في نهم، أسرعت زوجة عمي تتابع وهي تزيح يد ما من فوق جسدها:

- شيل إيدك يا وسخ.. أنت فاكرني زي المومس اللي جوه.

ثم دفعت عمي بغتة جانبًا، راكضة نحو أمي، وأمسكت أمي المستسلمة من شعرها ونزعت خصلات الشعر بقسوة شديدة لتصرخ أمي - الذاهلة عن الأحداث - في ألم مضنٍ، وأخذت في صفعها وركلها في غل، لينزف أنفها في غزارة، وأخذت أنا أبكي محاولاً نجدتها، لكن زوجة عمي دفعتني في قسوة ليتلقفني ابنها بالضرب، لم تكن أمي قد فتحت فمها بأي كلمة حتى

الآن، لكن ما كادت تراني أضرب في قسوة حتى صرخت ملتاعة دافعة زوجة عمي بعيدًا ثم كاللبؤة الشرسة دفعت ابن عمي بعيدًا صارخة:

- كله إلا ابني.. فاهمين يا ولاد الكلب.

أخذتني في حضنها، وعيناها تتحولان لعيون نارية متابعة:

- اللي هيلمس ابني هاكله بسناني.

حاولت زوجة عمي الانقضاض على أمي مرة أخرى، لكن الأيدي الكثيرة منعتها، وزوجها يصرخ لاطمًا وجهه:

- كفاية فضايح.

بصقت عليه صارخة:

- إنت السبب في الفضايح يا نجس.

لم يرد عليها، وهو يلتفت للناس صارخًا ودافعًا البعض للخارج في غلظة:

- خلاص يا إخوانا.. كل واحد على بيته.. كل واحد يروح يشوف حاله.

بدأ الناس في التفرق، وكل منهم يلقي نظرة أخيرة على الجسد العاري، وأحدهم يقول في سخط مسموع:

- جتنا نيلة في حظنا الهباب.. فرسة!

لم تكن أمي تبالي بالعيون التي تنهشها، كان كل همها حمايتي من زوجة عمي وابنها، لذا كانت تضعني في داخلها حامية إياي بجسدها.

لم يكد الجمع يتفرق، حتى حاولت زوجة عمي الهجوم على أمي، لكن زوجها

obeikan.com

منعها هاتفًا في نفاد صبر:

- كفاية فضايح.. عشان خاطري.. علشان العيش والملح.. كفاية.

ثم أجلسها على أحد المقاعد، وهو يقول لها في رقة مغموسة في الجبن:

- أنا عارف إني غلطان في حقك.. بس أعمل إيه!

هنا عاد الثعلب القديم في الظهور، فرمق أمي في حدة، ثم التفت إلى زوجته متابعًا في ذلة:

- ضحكت عليا.. مرات أخويا وابن أخويا اليتيم فكنت بساعدهم.. بس هي كانت بتشاغلني.. مرة تلبس مكشوف.. ومرة تحك فيا.. ضعفت.. صدقيني أنا مابحبش غيرك وإنتي عارفة كده.. غلطة ومش هتتكرر.

حاولت زوجة عمي النهوض نحو أمي وهي تصرخ في غل:

- آه يا خطافة الرجالة.. أنا لازم أقتلك.

تشبث بها عمي في قوة وأجلسها، ثم تابع بأسلوب الثعلب، بعدما ألقى نظرة مخرسة لأمي، لكن أمي حتى بدون تلك النظرة ما كانت ستدافع عن نفسها، لقد ألزمت نفسها الصمت، فلم يعد يعنيها شيء في الحياة غيري، وأعتقد أن عمي فهم ذلك:

- من غير قتل ولا دم.. شوفي إيه اللي يريحك وأنا هعملهولك.. إنتي عارفة إنك غالية عندي.. بس دي كانت غلطة.. وزة شيطان.. أأمريني يا روح الروح.

أنهى كلامه بحنان ثعلب ماكر، يعلم جيدًا نقاط ضعف خصمه، لذا ضرب

عليها بحنكة، جعلت زوجته تلين، بل وتتصنع الدلال الغاضب للحظات ثم هتفت في قسوة مشيرة لأمي الذاهلة المستكينة:

- الزانية لازم تمشي!

***

obeikan.com

-٢-

صدحت ضحكة أمي الرقيعة المنطلقة من الغرفة الكائنة على سطح تلك العمارة شبه المتهدمة في تلك الحارة العفنة، لتجعلني أتراجع قبل أن أفتح الباب عليها، وتناهى إليّ صوت رجولي ينهج في إرهاق قائلاً في متعة لاهثة:

- عليا النعمة.. فرس محتاج خيال.

تعالت ضحكتها الرقيعة، قائلة في دلال جعلني أشمئز للحظات غير أنني لم أبالِ لاعتيادي على تلك اللحظات المقززة:

- بس الفارس على قده خالص.

أطلق الرجل ضحكة ممزوجة بلهاثه المقزز، فتراجعت أنا إلى الدكة الموضوعة بجوار سور السطح، فوضعت حقيبة المدرسة وجلست أراقب الشارع في مرارة، ووجدت نفسي أتحسس مؤخرتي للحظات شاعرًا بالألم، وصدى صوت يتردد في عقلي:

- تلاقيك ياد حلو زي أمك.

خيالات لأيدٍ تجذبني إلى دورة المياه القذرة في المدرسة، وثلاثة من المتنمرين يخلعون بنطالي وأنا أقاوم في مرارة، يصفعني أحدهم على مؤخرة عنقي قائلاً في عنف:

- بس ياد ما تحاولش.. مش هتكون دي لا أول ولا آخر مرة.. فاسكت أحسن

obeikan.com

متتأذي.

وتابع آخر ساخرًا بصوت أنثوي:

- أعقل يا واد.. دي أمك فتحاها على البحري.. اتعلم منها.

أشعر بالألم الحارق في مؤخرتي، يتناوبون عليا بقسوة، لا أحد يرحمني رغم دموعي، والألم والدماء تنزف مني، ثم يتركونني كالخرقة البالية ممددًا وسط البول في أرضية الحمام، وكبيرهم يهتف بي في غلظة غالقًا سحاب سرواله:

- لو حاولت زي المرة اللي فاتت تبلغ حد من المدرسين.. إنت عارف إحنا هنعمل فيك إيه.

لم أكن سأبلغ أي إنسان بما يحدث لي، من أنا حتى يهتم بي أي إنسان، لذا نهضت من وسط البول وعدت للفصل منكسرًا كعادتي، والهمسات والصفعات تشيعني.

فتح باب الغرفة، ليخرج منها صاحب العمارة وهو يهندم ملابسه، ومن خلفه أمي مرتكنة على الباب قائلة في دلال:

- كده أنا مديناك بشهرين مقدم يا معلم.

أطلق ضحكة عالية، ثم قرصها من ثديها، قائلاً في وله:

- إنتي مديناني طول العمر يا قمر.

ثم ألقى عليا نظرة، ونزل، فأسرعت أنا إلى الغرفة، فأفسحت لي أمي المجال لأدخل وهي خلفي قائلة في حنان:

obeikan.com

- أحضرلك الأكل يا حبيبي.

هززت رأسي بالنفي، ثم قلت لها في شيء من المرارة:

- الأستاذ بيبلغك إنه عاوز حق الدرس.

تنهدت في مرارة، ثم قالت لي في شيء من الغضب:

- ما هو كان لسه هنا من يومين.. ولا هي فجعة وخلاص.. على العموم خليه ييجي بكرة.

ثم جلست بجواري، واضعة يدها على رأسي لأرتجف في اشمئزاز للمسها إياي بيدها بعدما كانت تلمس بها المعلم منذ دقائق، كنت أشعر وكأن "ماس كهربائي" صعقني، لكنها تابعت في حنان:

- بص يا حبيبي.. أنا هقوم أحطلك الأكل.. فيه كباب وكفتة لسه سخنين.

قلت لها في حنق:

- المعلم اللي جايبهم.

لم ترد للحظات، وهي تبتلع لعابها في صعوبة، ثم قالت لي:

- مش عوزاك تحط الأفكار دي في دماغك.. مش عوزاك تفكر في أي حاجة غير إنك تنجح وتخش ثانوي.. أنا بعمل المستحيل علشان أوصلك لقمة الحياة.. فبلاش تضيع مجهودي.. بشوية أفكار فارغة مش هييجي منها غير وجع الدماغ..

صمتت للحظات، ثم ضمتني إلى صدرها، هامسة في حب:

– ما كل حاجة على يدك يا ابني.. حاولت أعيش شريفة وأربيك بس ماحدش سابنا في حالنا.. فاكر!!

غلبها الانفعال، فتركتني في ألم، وأخذت تجهز الطعام، فنهضت أنا متثاقلاً وخرجت من الغرفة إلى الحمام الملاصق، خلعت ملابسي ونظرت لملابسي الداخلية الملوثة بدماء مؤخرتي، ثم رميتها في حدة، ووقفت تحت مياه الدش ليغرقني وليداري دموعي النازفة.

***

طردنا أنا وأمي من بيتنا، واللعنات المنطلقة من فم زوجة عمي تطاردنا، والأنظار تتابعنا في الشارع في شماتة، والبعض يهتف بأمي في سخرية بها أمل الموافقة:

– ما تييجي وأنا عندي مُكنة.. هاظبطك يا جميل.

لم ترد أمي وهي تبكي، ساحبة إياي والبؤجة الصغيرة التي تحتوي على القليل من ملابسنا، والتي سمحت لنا بها زوجة عمي.

خرجنا من الحارة وسط اللعنات والضحكات، وأخذت أمي تتوغل بنا في دهاليز المدينة، لنبتعد بقدر الإمكان عن شبح ماضٍ ربما يلاحقنا، لذا كانت تبتعد أكثر لتهرب منه، ولتبدأ حياة جديدة، لكنها لم تكن تعلم أن الحياة لن تتركها لتهنأ، بل سترسل لها ما هو أقوى من شبح الماضي، سترسل لها الفقر وغلظة قلوب البشر،

تورمت قدماي من السير، فبكيت، فسألتني أمي في لهفة مذعورة:

- مالك يا حبيبي؟

قلت لها في إرهاق:

- تعبت من المشي.. وجوعان.

أسقط في يدها للحظات، ثم أخرجت جنيهات قليلة من جيبها، وهي تهمس لنفسها والدموع تغالبها للخروج:

- منكم لله.. شردتونا أنا والواد اليتيم.. هنروح فين يا ربي.. مالناش حد غيرك..

حملتني فوق كتفها، وسارت بي لدقائق أو لساعات، لا أعلم لأنني نمت فوق كتفها، لم أستيقظ إلا وهي تهمس لي في حنان:

- قوم كل يا حبيبي.

نهضت من النوم لأجد الليل قد أرخى سدوله، وأجدنا أسفل كوبري ويفوح من حولنا روائح كريهة، أجلستني بجوارها، وفتحت ورقة ملوثة بالزيت وأعطتني شطيرة فول، أخذتها في لهفة وقضمت منها قضمات متتالية سريعة من شدة الجوع، وأخذت هي تشاهدني في حنان، ثم أعطتني الشطيرة الثانية عندما وجدتني مازلت جائعًا.

سألتها في براءة وأنا أقضم الشطيرة:

- ماكلتيش ليه يا ماما؟

ابتسمت لي في رقة، ومعدتها تصدر أصواتًا وقرقرة، ثم قالت كاذبة:

obeikan.com

- أنا أكلت وأنت نايم.

تلفت حولي وأنا أسألها في خوف والظلام يحكم قبضته من حولنا:

- ماما هنام فين؟

ضمتني إلى صدرها، هامسة:

- هنا.. في قلبي.

نمت واستيقظت على أصوات مفزعة، لأجد أمي مستيقظة وهي ترتجف من الرعب، ثم وضعت سبابتها على فمي هامسة في قلق:

- أوعي تتكلم.. وأمشي ورايا بشويش.

سحبتني خلفها، واختبأنا خلف عمود أسمنتي ضخم في نهاية الكوبري، وأخذنا في رعب نراقب رجالاً غلاظ يهلون على المكان، منهم من يحقن نفسه، ومنهم من يشم، أو يتبول بجوارنا، وهناك من كان يأتي بفتاة لعوب ويجامعها هو وجمع من البشر، وعلى فترات متقطعة كانت هناك خناقات على فتاة أو مال، وكانت الدماء تسيل على مقربة منا، فكنت أخفي رأسي في صدر أمي خائفًا، وهي تتمتم في رجاء حار:

- يا رب سلم.. مش علشاني.. علشان اليتيم اللي معايا.

ظل هذا الوضع المرعب لقرابة الفجر، فغصت أنا في النوم من التعب والخوف، ولم أستيقظ إلا على أشعة الشمس التي كانت تضرب وجهي بعنف، لأجد أمي بجواري مهلهلة الملابس، وعلامات حمراء كالأصابع في كل جسدها شبه العاري، وكانت غارقة في نوم غير طبيعي.

obeikan.com

هززتها في خوف، وأنا أقول لها في لوعة:

- ماما.. ماما.. اصحي يا ماما.

لم ترد عليا، هززتها بقوة أكبر لم تستجب، فارتميت على صدرها باكيًا، مر وقت لا أعلم إن كان طويلاً أو قصيرًا، حتى تناهى إليّ صوت تأوهات خارجة منها في ضعف، فأخذت أقول لها في رجاء طفولي من وسط دموعي:

- ماما.. ماما.. اصحي يا ماما.. أنا خايف.

فتحت عينيها في صعوبة، ثم أغلقت جفنيها في ألم للحظات، ثم حاولت الجلوس لكنها لم تستطع فهوت على ظهرها متألمة، باكية، ثم بمجهود أشد وبمساعدة غير مجدية مني استطاعت الجلوس ساندة ظهرها على العمود، ظلت تبكي وهي تضمني في حنان جارف لصدرها، فسألتها وأنا أبكي معها:

- مين اللي قطعلك هدومك يا ماما؟

ضمتني في حنان أشد هامسة لي في ألم:

- كله يهون.. المهم إنت يا حبيبي.

***

أغلقت مياه الدش، ثم ارتديت ملابسي، وشيء ما بداخلي يتغير ومشاعر تتبدل، وقيم تتغير، ونظرتي للحياة تصبح أكثر واقعية

عدت إلى الغرفة لأجد أمي قد أعدت لي الطعام، لم أمسه، وأنا أسألها في مرارة:

obeikan.com

- فاكرة يوم ما نمنا تحت الكوبري.. أنا عاوز أعرف إية اللي حصل.. أنا كنت صغير مش فاهم.. بس دلوقتي عاوز أعرف.

ابتسمت لي في مرارة بها شيء من التهكم، ثم قالت في بساطة متناهية:

- ياه.. إنت لسه فاكر.. يا ابني أنا كنت خلاص نسيت.. بص يا حبيبي أنا عوزاك تعرف إن في الدنيا دي مافيش حاجة من غير تمن.. وأنا دفعت التمن علشان أحافظ عليك.

صمتت للحظات ثم تابعت بنفس البساطة:

- إنت يومها نمت.. وأنا فضلت صاحية ضماك لصدري خايفة عليك.. إحنا كنا تحت كوبري بيحصل تحته كل اللي ممكن تتخيله.. مخدرات.. نسوان بتعيش بجسمها.

صمتت في ألم ثم أشارت لنفسها متابعة والدموع بدأت تتجمع في عينيها:

- زي أمك كده.. المهم واحد منهم كان عوز يفك زنقته فمن حظنا الأسود مالقاش غير العمود اللي إحنا وراه.. وماقلكش على اللي حصل.. ضرب وإهانة.. وإنت مين وبتعملي إية هنا.. والواد ده إنتي خطفاه منين.. إنتي بتشحتي فين وتبع مين.. فين وفين لما اقتنعوا إنك ابني وإن حظي المايل جابني هنا.. وبدأ الصراع.. سيبنا الواد إحنا هنعرف نكبرهولك راجل.. مسكتك زي القطة لما بتمسك ولادها وقولتلهم استحالة حد يخده مني.. عملنا مفاوضات.. وخدوا جسمي بدالك.. أكتر من عشر رجاله ماسبونيش إلا وأنا زي ممسحة المطبخ.. بس كل ده وأنا مسكاك بإيدي مافرطتش فيك للحظة.

لاذت بالصمت وهي تبكي في مرارة، فأسرعت إليها مقبلاً يدها ورأسها، هامسًا لها في أسف:

- سامحيني يا ماما أنا عذبتك.. وشيلتك فوق طاقتك.

ربتت على كتفي، ثم نظرت إلى عيني في قوة، قائلة:

- وأنا مش عاوزة تضحيتي تروح هدر.. أنا ضحيت بكرامتي علشان إنت تعيش.

سألتها في لوعة:

- طب ليه ماعشناش بكرامة؟

أجابتني ساخرة:

- علشان إحنا فقرا!!

اعترضت في وهن:

- الفقرا دايمًا بيساعدوا بعض.. وإنتي كان ممكن تعيشينا بالحلال بدل...

بترت عبارتي حتى لا أجرح لها مشاعرها، فابتسمت هي في مرارة وهي تقول لي في ألم:

- بدل ما أبيع جسمى.. ما أنا يا ابني مالقتش حاجة تانية أبيعها.. حاولت يا حبيبي إني أعيشك بالحلال.. بس الناس ما سابونيش في حالي.. كانوا بيقفلوا كل السكك.. وإنت عيل صغير وجوعان أعمل إيه.. أسيبك تموت من الجوع؟

obeikan.com

لم أرد عليها، وأنا أتمزق من داخلي، كنت أتمنى أن أحيا كأي طفل عادي، لكني تربيت على الذل، وامتهان الكرامة، كنت أتعذب كل يوم بعدما كبرت وفهمت، كنت أرى نظرة السخرية في أعين المحيطين بي، بل في كلامهم عن أمي المومس، كنت أتقطع لمئات القطع عندما كان الأطفال يشيرون إليّ بإصبعين كالإريال، كنت أبكي في صمت، لكني لم أستطع فعل شيء.

(أنا أحب أمي، أنا أكره أمي، معذب أنا بين حبي وكرهي، معذب أنا بسبب ضعفي أمامها).

كانت كل الأمهات تمنع أولادها من اللعب معي، لكن آباءهم لم يمنعوا أنفسهم من اللعب سرًا مع أمي منذ جئنا لتلك الحارة.

***

دل أولاد الحلال أمي على صاحب تلك العمارة التي نحيا بها الآن، فبعدما أبدلت أمي ملابسها أسفل الكوبري بملابس أخرى من البؤجة، حتى أسرعنا بالهرب خوفًا من جحيم الكباري في مصر ليلاً، سرنا في حواري متشعبة وسألنا على سكن، وطردنا من أصحاب عمارات كثر، أو من زوجاتهن عندما رأين جمال أمي ولعاب أزواجهن وهو يسيل على جسد أمي، هذا الجمال الذي أصبح لعنة تطاردنا في كل مكان.

حتى دلنا أولاد الحلال على صاحب تلك العمارة، لم يناقش أمي كثيرًا في الأجرة، وهو يرمقها في لهفة، ثم صعد بنا إلى السطح وأعطى أمي المفتاح، ما كدنا ندلف للغرفة ونرتمي فوق الفراش حتى ضمتني أمي لصدرها باكية في راحة، ثم نمنا لساعات طوال كما لو كنا جوعى للنوم.

دلنا نفس أولاد الحلال على عمل لأمي، خادمة في المنازل، فرحت أمي كثيرًا بذلك، فكنت أذهب معها، فلم تكن تستطيع تركي وحيدًا لصغر سني.

ذهبنا لأول منزل وطردنا في سرعة عجيبة بمجرد أن رأت ربة المنزل أمي، لم تيأس أمي، طرقنا منازل كثيرة وطردنا كثيرًا، أما لأن صاحب المنزل حاول التحرش بأمي، أو ربة المنزل خافت على زوجها من أمي.

غلقت المنازل في وجهنا، وتسلل الجوع عائدًا إلينا، كانت أمي مصرة على محاولة العيش بكرامة، لذا قاومت الصعوبات، رفضت تحرش الشباب العازب في شققهم، لذا طردت من الخدمة وأحيانًا مع الضرب.

عاد الجوع يذل فينا، وأمي تقاوم، وأتى صاحب العمارة إلينا مطالبًا بالأجرة وعينه على جسد أمي، فترجته ليصبر علينا قليلاً، فهمس في دهاء ثعلب خبرته من قبل:

- الصبر حلو.. مفتاح الفرج.

عندما تحدث مأساة فلابد أن تتحول لكابوس، لذا وحتى يزداد الوضع بشاعة، أصبت أنا بحمى شديدة، كنت أرتجف منها مهلوسًا، وكانت أمي بجواري تمرضني بكمادات مياه باردة، لكن الحرارة أبت الانخفاض، فكانت أمي تدور في الحجرة باكية وهي تطرق صدرها في لوعة:

- ابني بيضيع مني.. أعمل إيه يا ربي؟

كانت الحمى قد استحكمت مني وشارفت أنا على النهاية، لذا أسرعت أمي بارتداء ملابسها هاتفة في لوعة:

- كله إلا الواد اللي حيلتي.. أنا أبيع نفسي بس هو يعيش.

حملتنيى على كتفها، وذهبت لصاحب العمارة، وقالت له في ضراعة وأنا أسمع كل هذا، لكني أشعر وكأنني في عالم آخر:

- أرجوك يا معلم.. ابني بيموت.. عاوزة فلوس سلف علشان أوديه للدكتور.

كان صاحب العمارة جالسًا على باب المقهى - وهو عبارة عن الطابق الأرضي للعمارة وهو يمتلكه - يرشف "شاي" مع النرجيلة، فترك المبسم للحظات، ثم قال لها في مكر:

- بس إنتي عارفة إن حسابك تقل أوي.. المتأخر كتير.

قالت له وهي تكاد أن تقبل يده باكية:

- والنبي يا معلم الواد بيموت.. أنا هسددلك كل الفلوس في أقرب فرصة.. علشان خاطر النبي.. سلفني المرة دي بس.. علشان ألحق الواد.

أخذ أنفاسًا متقطعة من النرجيلة، وهو ينظر لأمي في لهفة وشيء من التفكير، ثم خفض عينيه قائلاً في تقوى:

- اللهم صلي عليك يا نبي.. ماشي يا ستي هديكي اللي إنتي عايزاه بس قدامك لأول الشهر.. بعد كده متأخذنيش لو طردتك من الأوضة.

أومأت أمي باكية في فرح، وتلقفت منه المال في لهفة يشوبها الحنق عندما ضغط على يدها للحظات في وله، لكنها تغاضت عن ذلك، وهي تسرع بي للطبيب.

كان المعلم يوميًا يعاودني في حجرتنا، جالبًا معه الفاكهة، وكان يتعمد

obeikan.com

الإمساك بيد أمي عندما تقدم له الشاي، وكان أغلب كلامه تلميحات جنسية، وكان يضحك عليها وحده غالبًا، وكان يراود أمي بالتلميح عن نفسها، وأنها تستحق أن يفرش الذهب تحت قدميها، فلمحت له أمي بالزواج، في محاولة لصده، فبهت متقهقرًا للخلف، وتغيرت لهجته إلى العنف، وبدأ يصرح بأن أول الشهر متبقٍ عليه أيام قلائل، ثم كان يختم كلامه في شبق هامسًا لها:

- مسيرك يا ملوخية تييجي تحت المخرطة.

لذا جلبت أمي حزم الملوخية والجرجير والخضار وكانت تجلس بها في أول الحارة بعيدًا عنه، وكان يراقبها من بعيد، وكنت أنا أجلس معها سعيدًا بالهجوم الشديد من المشترين وكان أغلبهم من الرجال، ولم يكن أي منهم يفاصل مهما كان السعر مرتفعًا، لذا حدث لنا رواج اقتصادي جعل أمي تقول لي في سعادة:

- ربنا هيكرمنا وهنعيش بالحلال.. وعلى أول الشهر هنسدد كل اللي علينا.. وهعيشك أحلى عيشة.. وهربيك زي ولاد الذوات لحد ما تبقى حاجة كبيرة.. ظابط مثلاً!!

ركل أمين شرطة البلدية المشنة الممتلئة بالخضار من أمام أمي، وأمسكها من يدها في غلظة وأصابعه تندس وسط ملابسها كأنة يلقي القبض عليها، لكن قضيبه شبه المنتصب كان يقول شيئًا آخر، وهتف بها في غلظة:

- يلا على البوكس يا وليه.. إشغال طريق ومقاومة سلطات.

ثم مال بوجهه ناحية المقهى ليبتسم له المعلم متابعًا شد أنفاس النرجيلة، ثم نهض كطائر الرخ في ثقة، واقترب من سيارة البلدية، قائلاً في تعاطف

زائف:

- خير يا أشرف باشا دي ولية غلبانة وبتسترزق!

أجابه أشرف باشا في غلظة غير مقنعة، وأمي تحاول الفكاك من قبضته الفولاذية، وأنا أبكي في خوف ممسكًا بملابسها:

- معلش يا معلم.. ده شغلنا وإحنا أدرى بيه.. يا معلم دي حتى مش تسكت زي بقيت الناس.. لا.. شتيمة وبهدلة.. ده يرضي مين بس.. إحنا بنعمل شغلنا مش أكتر.. تييجي الست دي وتبهدلنا كده.

كانت أمي تتلفت حولها في ذهول، غير فاهمة لما يحدث، لكن المعلم أسرع يقول للأمين أشرف مترجيًا:

- طب علشان خاطري.

هز أشرف رأسه في عنف، مبتسمًا وهو ينظر للمعلم، ثم قال في قسوة:

- معلش يا معلم.. دي حاولت تضرب القوة.. سامحني المرة دي.. أنا هنفذ القانون ولو عايز تساعدها تعال القسم وأضمنها وهتبقى أنت المسؤول عنها قدمنا.

هز المعلم رأسه في يأس، قائلاً لأمي الذاهلة في رقة حزينة:

- معلش روحي معاهم وأنا هاجي وراكي.

أخذت أمي تقاوم الأمين، صارخة في فزع:

- الواد.. الواد.

كان الأمين يجذب أمي إلى البوكس، وكانت هي متشبثة بي في قوة، وأنا ممسك بها باكيًا في رعب، ومن حولنا العشرات يتابعون ما يحدث في صمت دون تدخل أو حتى قول كلمة حق، وأخذ الأمين يفرق بيني وبينها في غلظة وهي تصرخ:

- يا ناس حد يساعدنا.. الحقونا يا ناس.. الواد ابني مالهوش حد غيري.. ابني يا ناس.

لم يفتح أي بني آدم فمه ولو بكلمة، فقط مصمصة الشفاه في حسرة، ولا شيء آخر، غير أن المعلم أسرع إليها وأخذني إليه قائلاً لأمي في قوة:

- ما تخافيش.. ابنك معايا في الحفظ والصون.. روحي إنتي وأنا وهو هنحصلك،

ظلت متشبثة بي للحظات، ثم تركتني ببطء وأنا أصرخ، ليتلقفني المعلم إلى صدره فى حنان ثعلب ماكر، وأمي تصرخ به في رجاء، دالفة للبوكس:

- ابني يا معلم...

أشار إلى عينيه، بأنني في الحفظ والصون، ثم التفت للأمين قائلاً له في شيء من الخبث:

- خلي بالك منها.. دي تهمني قوي!

ثم دلف برأسه للبوكس هامسًا لأمي في سخرية:

- مش كده برضك يا ملوخية.

-٣-

- يا رب يا ساتر.

تناهى الصوت إلينا قادمًا من أمام باب الغرفة المفتوح، فابتسمت أمي في سخرية قائلة للثور الواقف أمام الباب ناظرًا للأرض:

- أدخل يا أشرف.. لا والله وش كسوف.

أطلق ضحكة مجلجلة، وهو يدلف للداخل قائلاً لأمي في تذلف، وبصره عليا:

- معلش.. إنتي مش لوحدك.. والمحروس ابنك لسه بيتقمص لما يشوفني.. مع إني بحبه.

رمقني في شيء من الغل، دون رد، لكن أمي أشارت إليه بالجلوس، قائلة في شيء من الحزم وهي تلتفت إليّ:

- خلاص يا أشرف.. هو بدأ يفهم مصلحته.. وخلاص هيشيل التفاهات من دماغه.. بدأ يكبر ويعقل.

أشار إليّ أشرف باشا بإصبعه علامة الجودة، وغمز لي بعينه التي طبع عليها الزمن علامته، قائلاً:

- أيوه كده.. ربنا يكملك بعقلك.

هممت بالنهوض مغادرًا الغرفة، وغصة في حلقي، فأنا ما زلت رافضًا لما يحدث، لكن أمي استوقفتني قائلة:

- رايح فين؟

أجبتها متعلثمًا، وعرق بارد يتناثر على جبيني:

- هسيبلكم المكان.. علشان تخدوا راحتكم.

أطلقت أمي ألعن ضحكة سمعتها في حياتي، وابتسم أشرف محرجًا، وهي تقول دامعة من وسط ضحكاتها:

- لا يا حبيبي.. ملوش لازمة.. عمك أشرف خلاص.. خلص خدمة من زمان.

خفض أشرف رأسه في إحراج، مطقطقًا بلسانه، لكن أمي تابعت في شيء من التشفي:

- عمك أشرف يا حبيبي من فترة خد طلقة في البيوض.. وشالهم.. ودلوقتي بقى زي أمك.. ممكن تقوله يا خالتي.

زام أشرف في غضب، ثم قال في ترجي:

- ما خلاص بقى يا أم الواد.. ما تقلبيش اللي فات.. ما تفكرنيش باللي كان.

تابعت أمي ضحكها، وأنا أعاود الجلوس، متسائلاً في حيرة:

- أمال عم أشرف جي ليه؟

obeikan.com

هنا اعتدلت أمي باترة ضحكها، وهي تشير إلى لأقترب منها، ثم قالت في حزم مشيرة لأشرف:

- بص يا حبيبي.. لولا عمك أشرف كان زمان كل اللي أنا بخططله باظ.. عمك أشرف رغم اللي عمله فيا هو والمعلم.. الله يسامحهم بقى...

قاطعها أشرف وهو يزوم في غضب خفيف:

- ما خلاص بقى اللي فات مات.. ولولا اللي أنا عملته أنا والمعلم.. كان زمانك لسه بتبيعي ملوخية، وكان عمرك ما هتوصلي للي إنتي بتخططيله دلوقتي.

رمقته أمي في حدة، فطأطأ رأسه صامتًا، لم أكن أعلم أنها مسيطرة إلى هذا الحد، وتابعت هي في حزم:

- المهم.. عمك أشرف بعد ما حصل اللي حصل زمان.. حطني أنا وأنت تحت جناحه.. فالناس كانت بتخاف مننا.. ما حدش في الحارة الجبانة كان يقدر يقول عليا تلت التلاتة كام.. وإلا عمك أشرف كان ينفخه.. حتى مباحث الآداب ماكنتش تقدر تهوب ناحيتي.. عمك أشرف السبب في إن ملفي فضل ناصع البياض وكل ده علشانك.. وعلشان اللحظة اللي أنا بجهزك ليها.

لم أفهم شيئًا حتى الآن، نظرت إليها في حيرة، فتابعت هي في هدوء مشيرة لأشرف:

- ركز معايا يا حبيبي.. علاقتي مع عمك أشرف ماكنتش علاقة واحد

بينام مع واحدة.. لا.. العلاقة اطورت لعلاقة مصالح متشابكة.. يعني عمك أشرف كان بيطلب مني خدمات خاصة علشان مثلاً يترقى أو يبتز شخص ما علشان يطلع منه مصلحة، ومقابل كده كان بيحمينا من الناس وبيدينا نصيبنا من المصلحة.

قاطعها أشرف في رقة، وهو يرمقها في حب:

- بس ده ما يمنعش إني رغم المصالح دي.. كنت بحميكم مش بس علشان مصالحي.. لا كمان علشان بحبكم وبخاف عليكم!

التفت إليّ، وهو يشير لأمي قائلاً في صدق:

- حتى اسألها.. أنا كتير ضحيت بمصالح سقع علشان شكيت للحظة إن أمك ممكن تتأذي بسببي‌ها.. يا ابني لما عاشرتكم حبيتكم.. ووهبت نفسي لخدمتكم.. علشان كده أنا عاوزك تشيل الحاجز اللي بيني وبينك وصدقني مش هتندم.. هتلاقيني ديمًا في ضهرك بسندك وبساعدك.

كنت تائهًا، غير فاهم لكل هذا الحوار، فسألت أمي في حيرة:

- هو فيه إيه؟

تبادلت النظرات مع أشرف ثم قالت في هدوء به لمحة ساخرة:

- تعرف يا حبيبي إني عمري ما دفعت قرش صاغ لحد.. الأكل والسكن والهدوم والتاكسي اللي بيوصلك المدرسة ماكنتش بخسر فيهم حاجة غير إني أفتح رجليه،

ارتجفت مذعورًا لعبارتها الصريحة، لكنها تابعت في قسوة وهي ترمقني

في حدة:

- أنت لازم تخشن شوية.. أنت هتسمع الكلام ده كتير بعد كده.. وإحنا اتفقنا على الصراحة.. وأنك تنسى الكرامة والكلام الفارغ ده.. أنا وعمك أشرف بنبني لك مستقبلك فمش عاوزين التفاهات اللي في دماغك دي تضيع مجهود السنين.

ما زلت لم أفهم، أشارت أمي لأشرف، فوجدته يمسكني من ذقني لألتفت إليه، فاستدرت إليه ليبتسم لي قائلاً في رفق:

- بص يا معلم.. أمك ضحت بكل حاجة علشان تعمل منك حاجة كبيرة.. بذلت نفسها علشانك.. علشان كده أقسمت أنها عمرها ماهتصرف مليم واحد من الفلوس اللي كانت بتخشلها من المصالح، حوشتها كلها لغاية ما بقى معاها مبلغ معقول.. وهو ده النواة اللي هتوصلك لحلمها.

ربتت أمي على كتفي لأستدير ناحيتها، ثم قالت لي بنفس الحزم الملازم لها طوال الجلسة:

- الأوضة دي ماعدتش تليق بوضعك الجديد.. إنت خلال شهور قليلة هتخلص إعدادي وتروح ثانوي.. وأنا اخترتلك مدرسة أغلب اللي فيها ولاد رجال أعمال وظباط.. وأنت طبعًا مش أقل منهم.

أشرت لنفسي مستحقرًا، رمقتني في قسوة، لكن أشرف أشار إليها لتصمت، فسكتت في غل، وأشرف يقول لي في رفق:

- بص يا ابني.. إنت فعلاً مش أقل منهم.. هم ولاد حرامية ونصابين..

وولاد ظباط وما أدراك ما الظباط.. اسألني أنا كلهم ولاد كلب.. إنت أفضل منهم.

تلقفتني أمي قائلة في سرعة:

- المهم.. المكان هنا ماعدش يليق بينا.. فهدفع كل فلوسي وعمك أشرف هيساعدني بالباقي، وهناخد شقة حلوة في مكان راقي قريب من المدرسة.

صمتت للحظات، كأنها تقرر شيئًا ما، ثم تابعت في همس:

- عاوزاك تتصاحب على أولاد الظباط!

لم أفهم، أو ربما فهمت ما تريد لكني لم أكن أريد التصديق فسألتها في حذر وقلبي ينبض في عنف:

- ليه؟

لم ترد، وهي تتنهد في ضيق، فأسرع أشرف يقول في حزم رقيق:

- علشانك.. علشان أمك هتغير نشاطها وأنا هساعدها وأنت كمان هتساعدها وهتصاحب ولاد الظباط.. وأنا هحدد لك مين اللي يقدر يساعد.. مش لازم عدد كبير.. المهم ظابط كبير يقدر يساعدنا في الوصول.

سكت ولم يتابع، فأشارت لي أمي لألتفت إليها، فأمسكت بيدي ونظرت داخل عيني، هامسة والدموع في عينيها:

- أنا دقت الذل علشانك.. وجات اللحظة اللي لازم ترد الجميل.. مش علشاني.. علشانك.. كل اللي عاوزاه منك إنك تسمع الكلام وتنسى

obeikan.com

تفاهاتك.. اوعدني إنك هتساعدني في حلمي وحلمك.

همست لها في صدق وأنا أنجذب لداخل عينيها:

- أوعدك إني هسمع كلامك.

قالت لي في حنان به قوة:

- أنا قررت أدخلك كلية الشرطة.. وتبقى ظابط كبير.

نهضت في عنف، وأنا أنظر إليها كالملسوع، فرمقتني مع أشرف في شيء من الإحباط، وقلت لهما في رفض:

- لا.. مش هدخل الشرطة.

أربد وجه أمي، وظهرت خيبة الأمل على وجهها، وسب أشرف في سخط، لكني تابعت في حسم:

- أنا عاوز أدخل الحربية.

***

هناك دائمًا في السينما مشهد تنقلب بعده الأحداث، فيتغير الفيلم تمامًا، أنا وأمي تعرضنا لهذا المشهد، لكن كان لي مشهدي أو مشاهدي الخاصة، وكان لها مشهدها الخاص، الذي لم تصبح حياتها بعده كما كانت قبله.

مشهد أمي الخاص، الذي غير حياتها وجعلها تدرك العالم من حولها، وتدرك أن الشرف والكرامة عبارات وضعها الأغنياء ليضحكوا بها على الفقراء ليظلوا تحت سيطرتهم، كلنا نحترم الأغنياء ونغض البصر عن

obeikan.com

كل موبقاتهم وعيوبهم، نفس الموبقات التي لو عمل نصفها فقير نقوم بتجريسه، وفضحه، واتهامه في كرامته وشرفه لذا قررت أمي تحمل الاتهامات في شرفها، حتى تحقق حلمها عن طريقي، وهنا ستخرس الألسنة تلقائيًا، وسنعامل باحترام، حتى ولو زائف، أو إجباري.

مشهد أمي الخاص:

منحها الأمين أشرف ابتسامة متشفية، وأخذ يشاهدها وهي تترنح أمامه من الإرهاق والألم، كادت أن تسقط لكنه صاح بها في غلظة:

- أمسكي نفسك يا بت.. ولا أرجعك الحجز تاني وإنتي عارفة الشراميط اللي هناك ممكن يعملوا معاكي إيه؟

تماسكت أمي في صعوبة، هامسة في ذعر:

- بلاش الحجز يا باشا.. أنا تحت أمرك.

ظهر الانتشاء على وجهه، وهو ينهض إليها ليمسكها من شعرها هامسًا لها في شبق قاسي:

- احكي لي البنات عملوا معاكي إيه في الحجز.

بدأت الدموع تسيل من عينيها بدون رد، فصاح بها جاذبًا شعرها في قسوة بالغة:

- هتتكلمي وتمتعي ودني.. ولا أجيبهم وتمثلوا المشهد لايف قدامي.. ولا أرجعك ليهم يكملوا شغل.

ظهر الذعر على وجهها، وأسرعت تقبل يده، قائلة في ذعر غير طبيعي:

opelkan.com

- في عرضك يا باشا.. بلاش الحجز تاني.. اللي أنت عايزه هاعمله.. بس بلاش الحجز.

تركها عائدًا إلى مقعده، ثم أشار إليها في عظمة، لتتكلم، فابتلعت لعابها في صعوبة، وتنشقت مخاط أنفها السائل، ثم قالت في مرارة ممتزجة بالبكاء:

- ضربوني يا باشا على جسمي كله.. وركزوا الضرب على المناطق الحساسة.. وشدو شعري لغاية ما قلعوا منه شعر كتير.. وأنا كنت بعيط وأصوت بس ما حدش عبرني.

صمتت للحظات، ليزداد بكاؤها وانهيارها، ثم أمسكت بيد الأمين وقبلتها في إخلاص، هامسة في ألم:

- اللي إنت عايزه يا باشا بس خرجني من هنا.

وضع إصبعه على شفتيه، فصمتت أمي في ذعر للحظات، ثم قال لها في عنف:

- كملي قصتك يا شهرزاد.

زاد نحيبها، وهي تتابع في مرارة وذعر:

- بعدين اتكتروا عليا وقلعوني هدومي كلها لغاية ما بقيت عريانة.. ونيموني على الأرض.. وجت معلمتهم الكبيرة دي.. و... و..

لم تسطع الإكمال وهي تتلفت حولها في ذعر، وكادت أن تسقط على الأرض، لكنها أسرعت بالاستناد على المقعد الموضوع بجوار المكتب، فزام الأمين في قسوة، مشيرًا إليها لكي تكمل، فتابعت في خوف:

pelikan.com

– عملت معايا اللي بيعمله الراجل مع مراته.. بس بإيديها وبعصاية.. من قدام ومن ورا.. بس بعنف.. كنت بتألم وكنت حاسة إني هموت.. لغاية ما حضرتك أنقذتني منهم.

ابتسم لها في عظمة، وأشار إليها لتجلس على المقعد، فأسرعت برمي نفسها على المقعد في ألم وإرهاق، ونهض هو من مقعده، ليجلس في مواجهتها، ثم مال عليها هامسًا في خبث:

– طب كان إيه لزمة البهدلة يا بت الناس.. ما دومتي كده كده هتفتحي رجليكي.. مش كنتي فتحتيهم بمزاجك للمعلم.. بدل ما تفتحيهم غصب.. كان زمانك متنغنغة

قفزت من مقعدها مفزوعة، وأخذت تنظر إليه في هلع، ثم أشارت إليه قائلة في رعب:

– يعني المعلم ورا ده كله.. وإنت معاه؟!

لطمها في غلظة، هاتفًا في قسوة:

– اسمها حضرتك يا باشا معاه.

زاد نحيبها، فأشار إليها بالجلوس، فجلست مرغمة، وهو يقول لها في رقة بالغة في تحول جعلها تظن بعقلها الجنون:

– طب مافيش شكرًا يا باشا بعد ما أنقذتك من الحجز.

لم ترد للحظات، وهي تنظر إليه في عدم تصديق، لكنه ما كاد يزوم في غضب، حتى أسرعت بالهمس مذعورة:

openkan.com

- شكرًا يا باشا.

تراجع داخل المقعد في عظمة وسرور، ثم قال لها في بساطة متناهية كأنه يتلاعب بها:

- اسمعيني كويس يا حلوة.. ما حدش يقدر علينا إحنا الشرطة ممكن نعمل كل حاجة.. ممكن ألبسك قضية دعارة وتتسجني فيها.. وطبعًا ابنك حيلتك هيروح الأحداث وهناك إنتي عارفة بقى إيه اللي ممكن يحصله.

أسرعت تقبل يده، هاتفة في رجاء:

- بلاش الواد يا باشا.. ده اللي حيلتي من الدنيا.

نزع يده منها في قسوة، والتقط منديلاً من فوق المكتب، ومسح قبلتها ودموعها من فوق يده، قائلاً في برود:

- تمام.. إحنا كده.. بدأنا نفهم بعض.. علشان كده.. قدامك حل من اتنين.. يا إما أعملك قضية وتتسجني وابقى قابليني لو شفتي ابنك تاني.. يا إما تطوعي المعلم وتعيشي في نغنغة.

لم ترد للحظات، وصراع ما يتجول بين ملامحها، فتابع هو وملامحه تتحول لشيطان:

- خايفة من كلام الناس.. صح.. الناس اللي كانوا بيتفرجوا عليكي وإحنا بنهينك.. الناس جبنا وإحنا عارفين إزاي نسيطر عليهم.. أنا هحطك تحت جناحي وحمايتي.. ماحدش هيقدر يقولك تلت التلاتة كام.

لم ترد، وهي تصارع بقايا في داخلها، فتابع في قوة:

obeikan.com

- لو وافقتي هاقطع كل الورق اللي قدامي وملفك هيبقى أبيض طول ما أنا عايش.. لو رفضتي هتخسري كل حاجة.. حتى ابنك.. وأنا قد كلامي.. أنا ممكن أرفعك فوق الناس وممكن أدفنك بالحيا.. الاختيار ليكي.

ثم نهض عائدًا إلى مكتبه في صمت، سيطر الصمت لدقائق وهو ينظر إليها بلا أي انفعال ظاهر، وظلت هي ترمق الأرض في مرارة، ثم رفعت وجهها إليه، وهمت بالكلام، لكنه أشار إليها بالصمت، ثم هتف في قوة:

- أدخل يا معلم.

دفع المعلم بابًا جانبيًا كان نصف مغلق، لأدلف عبره مع المعلم، ما كادت أمي تراني حتى تلقتني صارخة في حنان وخوف وألم، وأخذت تقبلني في نهم ودموعها تغرقني، كنت أبكي بدوري، هامسًا لها في خوف مشيرًا للمعلم:

- أنا كنت شايفك من باب الأوضة التانية بس المعلم مارضيش يسيبني أجيلك.. وخوفتني علشان ماتكلمش.

نظرت أمي للمعلم في مرارة، لكنه ابتسم لها في سخرية نهمة، وأشار الأمين للمعلم ليجلس، قائلاً له:

- أقعد يا معلم علشان تسمع قرارها بنفسك في حضور ابنها.. يا إما تروح مع ابنها.. يا تروح إنت معاه وتسلمه للأحداث بنفسك.

ضمتني أمي لصدرها في قوة أم مكلومة، ثم التفتت للمعلم ثم للأمين هامسة في مرارة:

- أنا خدامتكم.

***

اختلط كل شيء في عقلي، صراع - مصحوب بالصداع القاتل- لم أتخيل يومًا أنه حقيقي وليس بمبالغة من الكتاب في الروايات، التي تصور صراعًا بين الواجب والحب، لكن الصراع المشتعل في عقلي كان أشد ضراوة، صراع بين الفطرة الطبيعية والحياة الحقيقية.

هلوسة رهيبة تجتاح عقلي، أغلب الوقت لا أعلم إن كنت نائمًا أم متيقظًا، أحلام النوم المفزعة عن المدرسة من لواط إجباري وإهانة، ونظرات جارحة في الشارع اختلطت بأحلام اليقظة المعبرة عن أمنيات حياتي، من أن أصبح ضابطًا في الجيش لي احترامي وهيبتي، لكن الأمنية الأخيرة تحتاج إلى تضحيات لأصل إليها، تحتاج لدعم مادي وشخصي، والوحيد الذي يستطيع ذلك هو أمي.

(أمي قوتي وضعفي)

الشرف والكرامة لو تمسكت بهما، لن أحقق أمنيتي، لكن أين هما بالفعل؟، أنهما مجرد أمنية أخرى لن أستطيع تحقيقها، فأنا بالفعل موصوم بالدنس، أنا أمام كل الناس ابن العاهرة، فقط مقاومة ضعيفة في داخلي، شيء يقاوم لأعود لفطرتي، أية فطرة تلك؟، أنا لا أرى منها شيئًا في تصرفات من حولي ممن يدعي ذلك، أرى في عيون أشدهم تقوى وورعًا اشتهاء لأمي عندما يلتقي بصري ببصره يرمقني في استعلاء مستعيذًا من الديوث.

نعم أنا الديوث الرافض من داخله ما يحدث، وهم في ظاهرهم رافضون

obeikan.com

لها، لكن عيونهم تتمنى ليلة مع أمي.

أسمعهم يتحدثون عن الخير والنقاء والدفاع عن المظلوم لكن في لحظة الاختبار كلهم ينكصون على أعقابهم، عندما استغاثت بهم أمي لحمايتها جبنوا وصمتوا عن الظلم، فقط تحدثوا عن العاهرة، التي كانت ربما ستنجو- من ذاك الطريق- لو قاوموا الظلم، كم من مرة شكوت المتنمرين عليّ، ابتسامة ساخرة مع نظرة أشد سخرية، فليس من حق ابن العاهرة ادعاء الشرف كما كانوا يهمسون من خلفي:

(أنت ابن عاهرة فما الذي سيضرك لو فعل بك مثلها.. فلا تدعي...).

عشرات الأفعال المناقضة للأقوال الحسنة التي صدعوا بها الرؤس.

رأسي يشتعل ويكاد أن ينفجر، أترنح في الغرفة كالسكران، أضرب في المدرسة ويلاط بي بلا رد فعل، ذاهل أنا عن العالم في صراعي المحموم.

تضع أمي الطعام أمامي، لكني لا أراه، تربت على كتفي، فأنظر إلى وجهها الباكي فأراها وأسمع صوتها كأنهما قادمين من بعيد.

أنام فأتقلب على الجمر، ومشاهد متعددة من حياتي أنا وأمي تعرض أمامي، وأنا أتساءل بصوت داخلي في لوعة ومرارة:

- مين اللي وصلنا لكده؟

أتاني الجواب من جواري حيث أمي النائمة أو المتيقظة لحمايتي وأنا في تلك الحالة من عدم التوازن:

- الناس.

لم أتوقع إجابة لسؤال لم أتفوه به، لكني قفزت جالسًا على الفراش لأجد أمي ترمقني في مرارة هامسة وسط البكاء:

- يا ابني حرام عليك نفسك.. أنت بتعمل في نفسك ليه كده.. بتكلم نفسك.. بتهلوس مع نفسك.. ما بتكلش.. ذاهل عن الدنيا من غير سبب.. يا ابني صدقني أنا مش عاوزة غير مصلحتك.. ملايين الناس من اللي حولينا ومن اللي بيدعوا إنهم أحسن مننا.. لو جتلهم فرصة ليبقوا فوق هايبيعوا نفسهم وشرفهم ومش هيهتموا بالكلام الفارغ اللي في دماغك.. الدنيا ما فيهاش مثالية.. فوق أحسن وما تضيعش فرصتك من إيدك.. أنت كده كده ابن الشرموطة.. فأحسن لك تبقى ظابط ابن شرموطة وهيحترموك غصب عنهم علشان هما جبنا، أو تفضل ابن شرموطة بس وتفضل تتضرب على قفاك لغاية ما تنتحر أو غصب عنك تستسلم بس بعد فوات الأوان.

لم أرد عليها، وأنا في عالمي الخاص، أسمع صوتها البعيد القريب، هلاوس متتابعة ومشاهد متتالية تختلط في ثنايا مخي لتسحق بعضها البعض، وأنسحق أنا معها شاعرا بأنني أنهار في داخل ثقبي الأسود.

لكنها ضمتني إلى صدرها متابعة في لوعة، وأنا ما زلت ذاهلاً عن الدنيا:

- خلاص يا حبيبي.. لو مش عاوز بلاش.. هخدك ونمشي من هنا.. ونبدأ من جديد.. بس انسى حلمك وحلمي.

ضربة غير قانونية أطلقتها على قلبي وعقلي، فالشيء الوحيد الذي يبقيني حيًا ويعطيني القوة على الاستمرار في الحياة هو حلمي في أن أصبح ضابطًا.

لذا وجدتني أرمقها لأول مرة منذ فترة كأنني أتعرف عليها من جديد، ثم

انفجرت باكيًا، وكل شيء في داخلي يمتزج، كل قيم الصح والخطأ تضرب في خلاط عقلي لينتج مشروب مقزز، يتجمد في معدتي متحولاً لقطعة حجر لا أستطيع بلعها..

همست لها بلا وعي:

- الناس.

رددت خلفي في شيء من التهكم المر:

- الناس.. الناس يا ابني خلاص انتهوا من زمان.. الجوع والجبن شوهوا نفوس الناس.. الناس بتتكلم عن الخير بس ساعة الجوع بينهشوا في بعض.. لقمة العيش خلتهم زي الضباع بيكلوا بعض.. بيخطفوها من بعض.. مع إن كان فيه طريق تاني كان ممكن يحفظلهم آدميتهم.. إنهم يتحدوا مع بعض ويقفوا ضد اللي ناهبهم بس الناس جبنا وما بيستقوش غير على بعض.. وعلى مرة مسكينة زيي.

ابتلعت لعابها المر كالحنظل، ثم تابعت:

- علشان كده.. أنا رميت طوبتهم من زمان.. وقررت إني أنشلك من العالم الوسخ ده حتى ولو خسرت نفسي.. مافيش كرامة لفقير.. في عالمنا ده مافيش حاجة من غير مقابل.. الجعان ما بيفرقش معاه الحرام والحلال.. وما تفتكرش إني خططت كل حاجة علشان أبعدك عن الجوع بس.. لا.. أنا عملت كل حاجة علشان تبقى فوق بعيد عنهم.. علشان يلفوا حواليك في ذل وطاعة.. علشان تبقى سيد مطاع..

لم أرد، فقبلتني في حب، ثم ساعدتني على الاسترخاء، هامسة في حنان:

- وفي النهاية القرار ليك.. وأنا هنفذه مهما كان.

لم أجبها أيضًا، ما زلت في داخل عالمي، لكن كلماتها حطمت أشياء كثيرة بداخلي، كنت أراني محبوسًا في قفص زجاجي أصرخ بلا صوت، وكلماتها معول يحاول هدم القفص ليصدح صوتي.

رؤى سريعة مختلطة تفرم بعضها البعض أتذكرها، رغم أنني لم أكن أستوعبها في طفولتي لكن الآن فهمت:

أعود مع أمي والمعلم إلى الحارة بعدما أطلق سراحها من القسم، كانت مرهقة، ذاهلة عن العالم، لكن هشة وخائفة، كان يبتسم لها في غرور، وكانت هي تنظر إليه في انكسار، لم يتركها رغم إرهاقها، لم يحن قلبه عليها، لذا وجدتها تركع على ساقيها أمامي وضمتني في حب ودموع، ثم همست لي:

- والله يا ابني.. أنا مش وحشة قوي.. بس الدنيا ما بترحمش حد.. ولو في يوم كرهتني لأي سبب أفتكر إن كل اللي عملته علشانك.. علشانك إنت بس.

تنحنح المعلم في ضيق وهو يدهس سيجارته بقدمه، وأصابع يده الأخرى تحرك السبحة في نفاد صبر، قائلاً:

- ما خلاص يا أم الواد.. مش وقت مواعظ ده.. هتضربي الليلة.

نظرت إليه للحظات دامعة، ثم التفتت إليّ قائلة في مرارة:

- أنا والمعلم داخلين الأوضة مع بعض وإنت هتفضل على السطوح لغاية ما

أجيلك.. فاهم.. أوعى تييجي أو تخبط.

أجبتها في براءة:

- زي عمي كده!

انفجرت أمي في نحيب قوي، كأن الكلمة اخترقت صدرها كالرصاصة، هامسة لي في ألم:

- زي عمك.. الله يسامحه.

ثم تركتني على السطح، ودلفت للغرفة مع المعلم، وما كادت تغيب حتى التقطت أعقاب سجائر المعلم في لهفة، كما يفعل باقي الأطفال في الحارة، وبدأت في إعداد سيجارتي.. ثم أتى الأمين أشرف، في اليوم التالي ومعه لفافة من الكباب والكفتة هاتفًا بأمي في بذاءة:

- المعلم بيشكر فيكي.. بيقول عليكي وحش في السرير.

ثم أطلق ضحكة ماجنة، لم ترد عليه لكن وضعت لي صابعين كفتة في رغيف، قائلة لي في ألم:

- كل وألعب على السطح يا حبيبي.

ثم أغلقت الغرفة خلفها هي والأمين ليلعبا معًا!

في البداية كانت أمي المرأة المطيعة لكل رغبات السيد أشرف، لكن مع الوقت ومع العشرة والألفة، والخبرة المريرة، عكس الوضع تمامًا، وأصبحت هي السيد المطاع الذي يتذلل إليه العبيد، سألتها في يوم ما:

- بتكرهي عمي أشرف؟!

أجابتني إجابة لم أفهمها غير اليوم، إجابة حطمت جزءًا من القفص الزجاجي بعدما تذكرتها:

)في الأول كان الأمين أشرف مسيطر عليا.. قوة وهيبة.. بس مع الوقت والعشرة.. عرفت إنه زيه زي باقيت الناس جبان وخواف وبيجري ورا لقمة العيش بأي طريقة.. عاوز يطلع فوق بعيد عن مطحنة الفقر.. عاوز يضمن إن عياله ما يشفوش المرمطة اللي هو شفها.. عاوز يعيشهم مستورين حتى لو سرق وقتل وعذب.. أشرف ما يفرقش حاجة عني.. في الأول كنت بكرهه وعاوزة أنتقم منه بس بعد كده عذرته وفهمت دوافعه.. الخوف والجبن.. علشان كده حتى بعد ما بقيت أنا المسيطرة ما حاولتش أنتقم منه، وكمان علشان هو حبنا وبقى يخاف علينا، فخلاص نسيت الانتقام منه وفكرت أن المصالح أهم من التفاهات).

سيطرت المصالح على حياتنا أنا وأمي، أشرف يأتي لها بالرجال مقابل المال، أو برئيس له يتمنى قضاء ليلة، أو يدفعها على شخص يكرهه ثم يبتزه بأمي، وهكذا دورة لا نهائية من المصالح مقابل المال حتى كونت أمي المال الخاص بخطتها.

ما كاد قدمها ينغمس في هذا العالم القذر، حتى فقدت ما تبقى من براءتها وكل مرة كانت تفقد شيئًا ما حتى تحولت لعاهرة متمرسة مسيطرة تعرف كيف تستخدم أدواتها ومتى؟، كانت تقول إن لكل إنسان مفتاحه الخاص، وكانت دائمًا ما تجده وتستخدمه، لم يقاومها أي إنسان، حتى ولو كان

قديسًا، الكل انهار أمامها.

فمن أنا لأقاوم، وأقاوم ماذا؟، أبعد كل ما رأيت في حياتي أقاوم؟ ما المبرر للمقاومة، ولماذا أقاوم؟ ولصالح من أقاوم؟ لصالح نفسي المشوهة أم لصالح الناس؟ أي ناس أقصد أنا؟ الجبناء المنافقين، الذين لم ينصفونا عندما كنا في حاجة إليهم! الذين لم يروا بعدها غير جسد أمي أما في شهوة أو ادعاء تقوى.

لماذا المقاومة؟

أعلم أن أمي- التي ضحت بكل شيء من أجلي حتى بشرفها - معها حق في كل شيء، أمي خبرت الحياة وعرفتها وشربت من شرها حتى الثمالة، فلماذا لا أطيعها؟ أمي تريد لي الخير، تريد أن تسمو بي فوق الفقر والذل، فلماذا أقاوم؟ لماذا أحول تضحياتها لهباء منثور، أأريد أن أبقى في بركة الوحل للأبد وهناك فرصة أمامي لأن أصبح سيدًا مطاعًا على رقاب الناس؟

هنا بدأ السرطان في الانتشار في القفص الزجاجي المحيط بي، وأشعر بروحي تتشوه، شيء ما جديد ينمو داخلي، شيء مؤلم لكنه في نفس الوقت ممتع، نبتة سوداء تتفرع داخلي لتسيطر على روحي وجسدي، نبتة غذاؤها الفقر والخوف والجبن المسيطر على المجتمع المنافق.

هذا المجتمع يحتاج لهزة عنيفة لتوقظه أو تبيده، أنا الآن أمامي خياران.. إما أن أبقى في مكاني جامدًا وهذا في حد ذاته انتقام من نفسي وطموحي أو أختار الصعود لأعلى على رقابهم وأجسادهم، وربما يوم ما أكون أنا السبب في هز السلام الهش لهذا المجتمع.. لهذا اخترت طريقي.

لمعت عيناي في بريق افتقدته منذ أيـام، ومـع البريق تحطم القفص الزجاجي من حولي لينطلق صوتي في قـوة تـردد صداها عبر الزمان والمكان:

- أمي.

obeikan.com

٤

عالمي تغير، حياتي تبدلت، كل ذلك بفضل تصالحي مع نفسي، وتصالحي مع الحياة بواقعيتها المريرة، وبفضل حنكة أمي التي علمتني ما لم أكن سأتعلمه ولو في جامعة هارفارد.

لذا كان أول شيء فعلته هو تطبيق دروس الحياة عمليًا، وكان أول درس لي الاستغلال، من أفضل من أشرف لأستغله في تطبيق درسي الثاني ألا وهو الانتقام من أعدائي، أو الاستفادة من التزلف للأخرين للوصول لمصلحة كدرس ثالث في نفس اليوم.

لذا ما كدت أذهب للمدرسة، وتكالب عليّ المتنمرون حتى ذهبت معهم في بساطة ودون مقاومة، وابتسامة سعيدة على وجهي، جعلت أحدهم يقول في سخرية يشوبها شيء من الارتباك:

- طبعًا.. الكيف بيذل.

لم أرد وأنا أخلع البنطال بلا مقاومة، ليقتحم الأمين أشرف المكان بقوة صغيرة، ولا داعي لوصف الرعب والفزع الذي أصاب المتنمرين، وليس هناك داعي لوصف ما حدث لهم ولآبائهم في القسم، في وصلة من التعذيب الراقي جعلت أشدهم تنمرًا ينكسر للأبد.

أما عن التزلف، فلقد تزلفت للمدرسين وقدمت لهم هدية لا ترد، من يقاوم

سحر هديتي القاتل، لأصبح ملك المدرسة المتوج بلا منازع، فأنا أمتلك مياه الحياة التي تبلل قلوبهم العطشى للسحر.

رغم تصالحي مع الواقع، إلا إنني كنت أقسم أمام نفسي كل يوم قبل النوم أن أنتقم من الواقع وأدمره، لأصمم واقعًا جديدًا لعالم خاص من ابتكاري.

نجحت بتفوق، ربما لاجتهادي، وربما لواقع الهدية الساحرة على قلوب وألباب المراقبين، حتى الشيخ أو مدعي التدين لم تصمد صرامته لدقائق، ليصيبني أنا شخصيًا الذهول من قدرات الهدية على اقتحام أعتى القلوب المغلقة في بساطة ويسر كأنها تتلاعب بحفنة من الأطفال.

دلف الأمين أشرف إلى غرفتنا المتواضعة مرهقًا، ثم وضع أمام أمي كيسًا أسود بدون كلمة واحدة، التقطت أمي الكيس وهي ترتجف في تأثر غريب، ثم رفعت بصرها إلى الأمين وسألته بصوت مبحوح:

- دفع.. ببساطة كده!

كنت أتابع في عدم فهم، لكن التأثر الظاهر على وجه أمي، جعلني أخمن أن للموضوع جانبًا عاطفيًا أو ذكرى قديمة، وبالفعل تأكد حدسي عندما أجابها أشرف في زهو:

- مشكلتك إنك مستقلية بيا... إنتي مش عارفة إنتي في حماية مين... قولتلك من زمان سيبيني أرجعلك حقك.

أجابته في صرامة في تحول درامي رائع:

- وأنا قولتلك سيب كل حاجة لوقتها.. كل حاجة أنا مخططاها وحسبلها

الوقت المناسب.

ثم استدارت إليّ قائلة بنفس التأثر القديم في تحول درامي مرعب جعلني أفزع من قدراتها:

- ميراثك يا حبيبي...

نظرت إليها في دهشة، متسائلاً:

- إزاي؟ عمي خد كل حاجة وزي إنتي ما قولتي لي قبل كده إنه زور ورق ولهف بيه ميراثي.. وهو السبب في اللي إحنا فيه.. إزاي رجعلنا حقنا.

ضحك أشرف في فخر، قائلاً:

- هو مرجعلكش حقك.. هو كان بيتحايل إننا نقبل إنه يرجعلك حقك.. أنا لما خدت الأوكيه من أمك بعد سنين طويلة من الممانعة.. رحت له بالذوق رفض.. فرحت للمحامي بتاعه.. محامي إنما إيه ماتقلعهوش من رجلك.. بشوية تهديد عطاني الورق الحقيقي بس طبعًا لو دخلنا في نزاع قانوني حليني لما تاخد حقك.. رحت لعمك بالورق.. قالي بله وأشرب ميته.. فعلا خليته يجيبلي شوية مياه وبليت الورق وبلعته وهو بيبصلي في ذهول ومشيت.

ضحك أشرف للحظات، وهو يرى الدهشة على وجهي أنا وأمي ثم تابع:

- في نص الليل قوة من حبايبي اقتحمت الشقة عليه هو ومراته..

صمت للحظات، ثم غمز بعينه لأمي قائلاً:

- وخليت الرجاله يعملوا الواجب معاها.. وبعد وصلة من تخريب الشقة وضرب العم وعياله.. خدتهم كلهم على القسم.. بس في حجز مخصوص

ومش لازم تعرفوا اللي حصل.. بس لازم تتأكدوا إنهم بعد اللي شافوه مش هيرجعوا طبيعيين أبدًا.. في الآخر كان عمك ومراته بيبوسوا الجزم علشان أقبل الورث.. وأنا رافض.. وبعدين لما اتأكدت من إنه خلاص على استعداد لبيع نفسه مقابل إني أسيبه يروح.. بعتله الميراث وجبتلكم أعلى سعر.

كانت دموع أمي تسيل في صمت، ثم أخرجت من الكيس عدة رزم من المال ومدت بها يدها لأشرف هامسة:

- خد يا أشرف.. حلاوتك.

لأول مرة في حياتي، أرى وجه أشرف يسود في ألم، ثم انفجر في بكاء مباغت لم أتوقعه هاتفًا بأمي:

- إنتي بتشتميني.. هو أنا بعمل كل ده علشان الفلوس.. ما إنتي عارفه أنا ممكن أجيب قدهم ميت مرة.. بعد العشرة دي ولسه مش فهماني.. أنا بعمل كل ده محبة ومن غير مقابل أنا بكفر عن جزء من اللي عملته فيكي زمان!

ابتسمت له أمي في حنان وقالت له في ود ساخر:

- ما خلاص يا أشرف.. ولا أقلك يا شريفة يا أختي.. أنا عرفة إنك جدع يا أشرف

ابتسمت أنا، وضحك أشرف حتى اهتزت الغرفة من ضحكته، ثم قال لأمي ماسحًا دموعه:

- ودلوقتي هنعمل إيه؟

أجابته أمي، وفي عينيها نظرة حالمة:

- فلوسي اللي حوشتها على ورث الواد على مساعدتك يا حنين وهندخل الواد المدرسة الخاصة بتاعة ولاد الذوات وولاد الظباط اللي اتفقنا عليها من فترة.

صمتت للحظات وتابعت في استمتاع:

- وشقة في آخر دور بروف على النهر.

***

كان يوم وداعنا للحارة يومًا مشحونًا بالدراما، عشرات القلل المحطمة، ومئات الزغاريد من النساء، وهمسات للنساء من نوع:

- مؤخرًا هنتلم على رجالتنا.

والهمسات المفجوعة للرجال من نوعية:

- كده الدنيا انتهت يا رجاله.. سيبانا لمين يا دنيا.

أجابته أمي ساخرة من داخل سيارة أشرف:

- للقردة اللي مستنياك.

فضحكنا جميعًا، وزاد غيظ النساء.

ما كدت أطأ الشقة الجديدة المطلة على النهر العظيم، حتى شعرت بالفعل أنني قد انتقلت لعالم آخر، لمستوى مختلف، في قرارة نفسي شكرت أمي على خطتها، وسخرت من نفسي السابقة التي كادت أن تضيع على هذا الترف الأسطوري، كم كنت أحمق وغبيًا، وكانت أمي تمتلك الحكمة.

obeikan.com

شقة أسطورية بأثاث راقٍ اختيرت كل قطعة منه في دقة وتناغم، لتصبح الشقة تحفة فنية وخاصة مع وجود الروف المتميز بنباتاته والمقاعد المتناثرة في رقي، ومشهد النهر المكمل لكل هذا المشهد الخرافي

لكن الشيء الوحيد الذي جعل المشهد الأسطوري غير مكتمل هو عندما أتى موعد النوم، وجدت نفسي وحدي في غرفة واسعة كبيرة مريحة، لكني لم أستطع النوم، لقد تعودت على النوم في حضن أمي، أشعر وكأنني طفل رضيع نزعوه في قوة من فوق صدر أمه، أشعر بالحنين، أشعر بالضعف بعيدًا عنها، أشعر برغبة في البكاء

أنا مفتقد للدفء في غرفتنا الصغيرة الحقيرة، مفتقد لحضن أمي، أنا أريد أمي.

دلفت أمي بغتة لتحقق لي أمنيتي، وجدتها تقترب مني لتجلس بجواري على الفراش هامسة في حنان:

- كنت عارفة إني هلاقيك صاحي.

أسرعت بإراحة رأسي على فخذها، قائلاً في وجد:

- ما تعودتش أنام بعيد عنك.

أخذت تملس على شعري في حنان، ثم قالت لي في حب جارف به شيء من الحزم:

- أنا عارفة إن الوضع جديد عليك.. بس لازم تتعود على كده.. إنت خلاص كبرت وهيبقالك خصوصيات.. ماعدش ينفع تنام جنبي.. بس أتأكد إني دايمًا معاك

ثم قبلتني في حنان مغادرة الحجرة، تاركة إياي للوحدة لتنهشني.

زاد شعوري بالوحدة عندما ذهبت لتلك المدرسة الراقية بسيارة أشرف الذي نذر نفسه لخدمتي، هناك شعرت بالرهبة من كل هذا الترف، ومن كل تلك المستويات الاجتماعية، شعرت بأنني قزم في أرض العمالقة، فهناك شباب يتمتع بالصحة والتغذية والملابس الراقية، وفتيات كالفراشات يتمتعن بالجمال والقليل من الملابس التي تبرز مفاتن وليدة في هذه السن المبكرة، لكن النظرات والكلمات تدل على خبرة حياتية ذات عمر مديد، كل منهم كان يأتي مصحوبًا بتشريفة تليق بمقامه أو بمقامها.

زادت وحدتي عندما وجدتهم متآلفين متصاحبين، فعلمت أنهم يعرفون بعضهم البعض منذ زمن، وبدأت التجمعات في التفرق على هيئة فتى وفتاة معًا، كل شخص وصديقته، وبقيت أنا وبعض الأشخاص بلا رفقاء.

هنا تفاقمت الوحدة، ونبع معها شعور جديد لم أخبره من قبل، وجدت نفسي حزينًا تواقًا للفتيات، وتواقًا لشيء غامض آخر لا أعلم ما هو؟، كنت في الآونة الأخيرة ألاحظ تغيرًا في صوتي الذي أصبح أجش، وذلك السائل اللزج الذي أجده في ملابسي الداخلية، وهناك الشعور المباغت بأنك لم تعد كما كنت، ونفسيتك لم تعد مستقرة، بل هي على شفا بركان، وأنا بالذات كانت نفسيتي مشوهة بالفعل فأصبحت غير متزن، وعندما كنت أتأخر في الحمام ثم أخرج، كنت أجد أمي ترمقني مبتسمة في خبث، فكنت أنظر للأرض في خجل، حالفًا لنفسي أنها تعلم أنني قد جربت نفسي، ويا له من شعور لذيذ لكن محبط بعد انتهائه كأنه مفتقد لشيء، لشريك.

كنا نعامل في المدرسة كالملوك، منا من كان يسخر من المدرسين أو يهينهم في قسوة، ومنا من كان يتعامل بلا أدنى احترام مع مدير المدرسة، وعلمت أن كل رغباتنا أوامر، وأن الطلاب لا يأتون هنا للتعلم بل للنزهة، فالامتحان بالنسبة لأغلبهم تحصيل حاصل، كل منهم يعرف مسار حياته جيدًا، فمن من أبناء الوزراء أو الضباط الكبار لا يعرف إلى أين ستقوده الحياة، كل منهم حياته مرسومة وجاهزة في انتظار سموه من قبل أن يولد.

عالم غريب عليّ رمتني فيه أمي، أشعر وكأنني سمكة وقد ألقيت في الصحراء، أنا هنا لا شيء، أنا نكرة، عالم يختلف عن كل ما عاصرته في حياتي.

هنا ليس كالحارة بجوعها وفقرها، ولا الشباب هنا بتأنقه كشباب الحارة المحطمين، ولا الفتيات هنا كفتيات الحارة الضامرات من الجوع، هنا قمة الحياة وهناك قاع الجحيم، وأنا أتنسم هذا القاع وأخبره ككف يدي.

لذا فشلت في التقرب من أي طالب، من أنا حتى يضموني لجماعتهم، أنا لست بابن رجل أعمال أو وزير أو ضابط، أنا لا شيء، أنا القاع نفسه.

عدت لأمي ساحبًا خلفي ذيل الفشل، وقلت لها يأسًا:

- أنا مش هكمل في المدرسة دي.. أنا مش زيهم.. كلهم ولاد باشاوات زي اللي بنشفهم في التليفزيون.. دي عالم غيرنا.. إحنا بالنسبة لهم ولا حاجة صراصير ممكن يفعصوها من غير ما يحسوا.

لم تغضب مني بعكس توقعي لرد فعلها، لكنها ابتسمت لي في حنان، ثم قالت لي في رقة:

- إنت بس اللي اتخضيت من البهرجة اللي شفتها.. البني آدم هو هو، البني آدم في كل مكان.. الفرق بس اللبس والمكان.. عندك في الحارة بلطجية.. هنا كمان فيه بلطجية بس بشياكة.. في الحارة حرامية بس هنا اسمهم رجال أعمال.. في الحارة بيقولوا ألفاظ سافلة.. هنا لما تاخد عليهم هتلاقيهم منحطين.. في الحارة بيقولوا على المرة المصاحبة زانية.. هنا اسمها جيرل فرند.. هنا وهناك واحد نفس البني آدم بس الفرق الفلوس والسلطة.. علشان كده مش عوزاك تتخض.. لا.. إنت أحسن منهم.. وأتعامل معاهم على الأساس ده.. فاهم؟

كلام نظري سهل لكن تنفيذه صعب، لذا كنت طوال الليل أتقلب على فراشي كالمحموم داعيًا الله ألا يأتي النهار حتى لا أذهب لهذا العالم المخيف.

لكن الصباح أتى سريعًا، لأجد أشرف جالسًا مع أمي بانتظاري، وما كاد يرى عيوني المنتفخة من السهاد حتى قال لي في خبث:

- ليلتك باين عليها كانت كحلي!

مططت شفتي بلا رد، فأشار إليّ بالجلوس متابعًا في هدوء:

- أمك قالت لي على كل حاجة.. وأنا هكرر لك نفس اللي هي قالتهولك.. أنا عشت مع الناس دي.. وخدمت مع ظباط كتير.. وصدقني لو قولتلك كلهم عربجية.. وفيه رجال أعمال خلصتلهم مصالح قذرة.. كلهم أوسخ من أي شكل شوفته في الحارة.. علشان كده أتعامل معاهم عادي وبين كرامة بينهم ودي عليا أنا، بس عاوز منك تجمعلي شوية معلومات.

سألته في لهفة حذرة:

obeikan.com

- زي إيه؟!

أجابني في حنكة رجل أمن قديم:

- عاوز تعرفلي مين من العيال دول أبوه رتبة كبيرة في الجيش.. وتعرف لي طباع الواد إيه.. بيحب إيه.. مرافق مين.. بيشرب ولا مالوش في الصنف.. عاوز تقرير شامل وبناء عليه هنحطلك الخطة اللي هتخليك الكنج صاحب الكرامات.

***

سامي أحمد الديب نجم المدرسة الأول، الأناقة، الوسامة، مذيب قلوب البكارى، سرعة البديهة، الفتى الأسطوري، لم يكن ابن رجل أعمال أو وزير لكنه كان منايا ومقصدي، هو كعبة حجي، كان ابن عميد في الكلية الحربية.

لكني لم أستطع لفت انتباهه لوجودي، لقد كان محاصرًا بقوات مشاة من الرفقاء، وقوات صاروخية من الفتيات، كان الدخول لكنفه يحتاج لقدرات خاصة ولم أكن أمتلكها، فكيف السبيل إليه؟!

أصابني الإحباط، ستار حديدي حوله لا أستطيع اختراقه، لكن أمي لم تيأس فقالت لي في حنكة:

- أنا ممكن أجيبه وأركعه قدامك بس أنا عايزاك أنت تبقى صاحب الفضل عليه.. وأنا دوري جي بس مع الكبير علشان ما يحصلش لخبطة في العلاقات.

سألتها في يأس:

obeikan.com

- طيب أعمل إيه؟

أجابتني في هدوء واثق:

- الفت انتباهه ليك.. كل اللي عايزاه منك تقرير كامل عنه وإنه على الأقل يعرف شكلك واسمك.

للفت انتباه شخص ما لابد من وجود ميزة بك غير متوافرة به أو بمن حوله، شيء يجعله يشعر بوجودك ولو للحظات، وأنا لا أمتلك شيئًا يجعله ينتبه لوجودي..

لكني فعلتها بطريقة أثارت سخريته، وجعلته يتساءل في تعجب ليضحك من حوله:

- مين اللي عاملي مصطفى مشرفة ده.. مفكر نفسه عالم ذرات ولا إيه؟

ضحك كل من حوله، لكني لم أعره انتباهي وأنا أكمل خطتي البسيطة، المذاكرة باجتهاد، مما جعلتني أتجاوب مع المدرسين، فأصبحت أعجوبة المدرسة، ومثار دهشة طاقم التدريس، لكني جعلت المدرسة كلها تحس بوجودي حتى ولو بالسخرية، وأصبح الهمس كلما مررت بجماعة:

- مين ده؟!

أصبحت من الوجوه المعروفة في المدرسة، حتى بالنسبة لسامي أصبح يهز لي رأسه في تحية شبه ساخرة، وساعدتني الشهرة على اقتحام بعض الشخصيات التي بدأت تتودد إليّ، ومنهم عرفت كل المعلومات التي تلزمني عن سامي الديب.

عدت إلى المنزل سعيدًا، لقد أنجزت المهمة وحدي بدون مساعدة، فتحت أمي لي الباب لأجد أشرف بالداخل بانتظاري فأسرعت مقلدًا يوسف بك وهبي:

- أمي وأشرف يا للمهزلة الإنسانية.

ربتت أمي على كتفي، قائلة في سخرية مشيرة لأشرف:

- خالتك شريفة.. مستنياك من فترة.

زام أشرف كعادته في غضب مصطنع، ثم أشار إليّ بالجلوس بجواره متسائلاً:

- عملت إيه يا بطل في اللي كلفتك بيه؟

أخرجت من حقيبتي الصغيرة ملفًا صغيرًا به بضع ورقات بسيطة، فأخذه قائلاً في سخرية:

- الموضوع ما يستهلش ملف.. هي شوية معلومات وخلاص.

قلت له في شيء من الارتباك:

- بحب أبقى منظم.

أعاد إليّ الملف مبتسمًا في فخر، فسألته في حيرة:

- مش هتشوف المعلومات اللي جمعتها عن سامي الديب؟!

هز كتفه في لا مبالاة قائلاً:

- ما تلزمنيش... أنا بالفعل عندي كل حاجة عنه هو وأبوه.. يا ابني أنا

obeikan.com

الأمين أشرف صاحب شبكة العلاقات الضخمة فوق الأرض وتحت الأرض.

تسلل الغضب إلى صوتي، وأنا أقول في حدة:

- ليه عملت فيا كده.. ليه سيبتني أيام أعاني إزاي أجيب المعلومات؟!

أتاني الجواب من أمي، قائلة في هدوء:

- علشان متفكرش إن كل حاجة بالساهل.. وعلشان مايبقاش كل اعتمادك علينا.. إحنا مش هنبقى جنبك على طول.. بعد كده إنت اللي هتفكر لنفسك فلازم ندربك ونشيلك مسؤولية من دلوقتي.

تفهمت الدوافع بسرعة، فأنا أعلم جيدًا أنهما يفعلان كل شيء حبًا فيّ، لذا في عملية التفت لأشرف متسائلاً:

- إيه هيه الخطوة الجاية؟

أجابني وهو يسترخي:

- هنطابق معلوماتي بمعلوماتك.. وبعدين هنبدأ نحط الخطة مع بعض.. كتدريب ليك.. بس مبدئيًا هنسمي الخطة..

ابتسم في سخرية، جعلتني أعلم أنه خطط كل شيء، لكنه يريدني أن أتعلم، ثم تابع في بساطة:

-خطة الديسكو والديلر.

obeikan.com

٥

ديسكو "ديد باروت"، من أشهر الديسكوهات على الإطلاق، ومن أسباب تلك الشهرة عدم تقيده بالسن المسموح لها بالدخول، أو السن المسموح بتقديم مشروبات روحية لها، كما أنه يقدم خدمات أخرى للشخصيات المميزة.

ولن تجد شخصية أكثر تميزًا من سامي الديب وصحبته، ومن سر التميز المال المنهمر بلا سد لإيقاف فيضانه، لذا كان صاحب المكان حريصًا على توفير كل المستحيلات لهم.

طلبت لنفسي كوبًا من عصير البرتقال، مما أثار سخرية الفتاتين اللتين كانتا معي، لقد رتب لي أشرف كل شيء، فأرسل معي فتاتين من معارفه، تتمتعان بالجمال والرقي والاحتراف، لذا طلبت لهما زجاجتي بيرة.

كانت أغلب العيون ترمقني في حسد لوجود قاذفتي القنابل معي، لذا في غضون دقائق أصبحت من الشخصيات المعروفة والمميزة، ومع غدق الأموال على العاملين زاد احترامي.. لابتسم لنفسي ساخرًا من مجتمع مشوه يقدس الجسد والمال.

لكن مع دخول سامي الديب وصحبته تحول الاهتمام إليه، ووجدت طاقم الخدم يهرول إليه ليبتسم مزهوًا كالملك، ثم بخطوات واثقة جلس على مائدته المخصصة له، وبجواره جلست "سارة زيادة"، بنت رجل الأعمال

obeikan.com

"كامل زيادة"، وخليلة سامي، فتاة جميلة لعوب.

وبعد تغير الموسيقى بأمر سامي باشا، صعد مع فتاته ليراقصها، فتريثت قليلاً ثم صعدت مع إحدى الفتاتين المصاحبتين لي لنرقص معًا، لكنها للأسف كانت محترفة مما جعلني أعاني معها، ثم غمزت لفتاتي عندما اقترب منا سامي الديب، لتصدم به في نعومة، وعندما بهره جمالها أسرع يعتذر إليها قائلاً في انبهار:

- إنتي كويسة.. أنا..

بتر اعتذاره عندما رآني برفقتها، فصمت ليشير إليّ في تمعن كأنه يتعرف عليّ، ثم سألني في شك:

- مش إنت معايا في المدرسة.. العبقري.

أجبته في بساطة، مادًا يدي بالمصافحة:

- طبعا سامي باشا المشهور.. اتشرفت بمعرفتك.

صافحني في شيء من التعالي، ثم عرفني على فتاته في سرعة، لتجذبه نحوها في شيء من الغيرة قائلة:

- يلا يا بيبي نكمل الرقصة.

أطاعها وبصره يأكل فتاتي، لكني لم أعره انتباهًا، متابعًا مراقصة الصاروخ التي معي، ومع انتهاء الرقصة، عاد كل منا لمائدته، لكنه طوال الجلسة كان يختلس النظر للفتاتين، وعندما يصطدم ببصري كان يرفع إليّ كأسه كأنه يحييني.

pelikan.com

الشيء الوحيد اللافت للنظر هو النادل الأسود الذي ظل لدقائق يناقشه ثم انحنى في خضوع منصرفًا، وعندما أخبرت أشرف بذلك أجابني مبتسمًا في بساطة:

- ده شخص اسمه السيد النمر الديلر الخاص بالديسكو.. له ملف في المخدرات.. ما تقلقش كل المعلومات عن المكان عندي.. أنا ليا حباييبي في كل قسم وجهاز في البلد.

عندما ذهبت إلى المدرسة والتقينا في الردهة، لم نتحدث، لكن هز لي رأسه في ود بدلاً من السخرية المعتادة، ولم يحاول في أثناء الحصص السخرية من العبقري.

تعددت اللقاءات في الديسكو أو المدرسة، لكني كما أمرتني أمي وأشرف لم أحاول التحدث إليه أو التقرب منه كأنه لا يمثل لي أية أهمية، لكنه كان يتمنى ذلك ليس من أجلي بل من أجل الصواريخ التي كنت أبدل بينها كما لو أنني أبدل بين جواربي، نظراته تقول هذا لكن فتاته من ناحية ومكانته كزعيم للمدرسة تمنعه من السعي للتقرب من أي إنسان، بل يجب عليك التقرب منه زلفى.

عندما شعر أشرف أن الثمرة قد نضجت وتتمنى القطف، وجدته يقول لي في حنكة:

- هنصطاد السمكة بكرة..

أومأت له برأسي في توتر، لكن أمي ربتت على كتفي في حنان هامسة:

- إنت خلاص بقيت كبير.. وبقيت لعيب.. سيب التوتر ده للأطفال والهواة.

لم أرد عليها وأشرف يقول لي في برود حديدي:

- اطمن كل حاجة مترتبة.. ومفيش أي خطورة.

***

مر اليوم الدراسي وأنا مشتت، وكنت طوال الوقت أقابل نظرات سامي المترددة بهزات مجاملة دون كلمة واحدة، ثم عدت للمنزل لأستعد، دلفت لغرفتي وكما أفعل دائمًا كلما توترت، بحثت عن علبة التبغ في مكانها السري - حتى لا تعرف أمي إنني أدخن- فلم أجدها، فأخذت أبحث في كل مكان حتى أصابني اليأس فسقطت على المقعد منهكًا.

لأجد سيجارة ملفوفة في حنكة مشتعلة توضع بين أصابعي، فقفزت من مقعدي مصعوقًا، لأجد أمي تجلسني في حنان، ثم تقول لي في هدوء:

- خد السيجارة.. ماتتكسفش... أنا عارفة من زمان إنك بتشرب من أيام الحارة لما كنت بتلم السبارس.. وكنت مستنية تقولي.. ما تخفش بس يا ريت تقف عند السجاير.

التقطت السيجارة قائلاً في لهفة صادقة:

- والله السجاير بس.. حتى في الديسكو بشرب عصير.

ربتت على كتفي في حنان مناولة إياي علبة التبغ، ثم قالت لي في بساطة:

- ما تنساش تاخدها معاك.. هتحتاجها.

دائمًا أمي هي الأذكى، مصيبة هي في كل ما تقول.

obeikan.com

دلفت للديسكو متأخرًا عن موعدي كما هو مخطط ومعي أشرس نمرتين في الغابة، حتى إن الرؤوس أخذت تدور مع خطواتنا كأنها موضوعة على ساقية دوارة، حتى إن سامي ما كاد يراني والفتاتين معي حتى كاد ينهض من مقعده بتلقائية لولا نظرة شرسة من فتاته سارة، جعلته يهندم ملابسه ثم يعاود الاستقرار على مقعده.

قدمت الفتاتان أبرع رقص مثير قد تراه يومًا، مما جعل سامي يتلوى من الإثارة، لكن بلا طائل، عندما عدنا للموائد، ظل يرمقني في رجاء، لكن عزة نفسه تمنعه.

أنقذه السيد النمر الديلر من خناقة بدأت بوادرها تظهر على وجه وحركات يد "سارة كامل"، تهامسا هو والسيد لدقيقة، ثم أومأ برأسه موافقًا، ثم غادر السيد منحنيًا في تعظيم.

فابتسمت أنا في راحة، هامسًا لنفسي في تعجب:

- أشرف فعلاً جبار.

أنهيت السهرة وأودعت الفتاتين في تاكسي، ثم سرت خطوات قليلة لأجد أشرف الجالس في سيارته بانتظاري، فدلفت للسيارة قائلاً له في هدوء:

- سامي خلص السهرة.. وخد عربيته ومشي.

أجابني في هدوء ضاحكًا:

- مش هيبعد عن عنينا.. ما تقلقش.

ثم انطلق بالسيارة ليمر عبر طرق جانبية، ثم توقف بها في مكان مظلم،

وأشار للأمام في ثقة:

- مش دي برضك عربية صاحبك.

أومأت برأسي لأجد سيارة سامي متوقفة في نهاية الشارع ثم برز منها هو وفتاته وثلاثة من أصحابه، ثم اقترب منهم شخص قادم من بعيد لأجد السيد النمر، الذي ما كاد يمد يده إليهم باللفافة الصغيرة، حتى انقضت قوة صغيرة من الشرطة عليهم

لم يقاوم السيد والضرب ينهال عليه، لكن "سارة" كانت تصرخ باكية، وسامي يقاوم في شراسة هاتفًا:

- أنتوا مش عارفين أنا مين... أنا هاوريكم!

لم يرد عليه أحد غير بالدفع الشديد إلى البوكس هو ومن معه، وظل على هياجه صارخًا:

- أنا هاوريكوا يا كلاب.

انطلق البوكس بحمولته، وعندما اقترب منا أسرعت بالاختفاء في الدواسة، ثم نهضت عائدًا لمكاني وأنا أشاهده من الزجاج الخلفي، ثم استدرت لأشرف لأجده مسترخيًا، فسألته في قلق:

- إنت مش خايف من أبوه؟

ربت على كتفي، ثم قال لي في حنكة:

- كله تمام.. نجاح مية في المية.

***

openkan.com

رصت قطع الشطرنج، وانهمكت أنا وأشرف في اللعب في مكتب أمين شرطة المنطقة التي قبض على سامي بها، لقد اتفق أشرف مع رجال القسم على كل شيء، لذا وفي ظل انهماكنا في اللعب وجدنا العساكر يدفعون بسامي وأصدقائه للداخل وهم بين باكٍ ومهدد وصامت كالسيد النمر.

لم التفت إليهم كأنني لم أرهم، وظللت معطيًا ظهري لهم حتى لا يتعرفوا عليّ، ووجدت أشرف يستعيد شخصية أمين الشرطة، ثم أشار للسيد النمر قائلاً في صرامة:

- إنت مش هتبطل يا ابن المرة.

أجابه السيد في ذلة:

- أكل عيش يا باشا.. الدنيا صعبة.

نظر أشرف للعساكر، فانهالت الأيادي بالضرب فوق جسد السيد، وأحدهم يهتف به في غلظة:

- رد على الباشا كويس يالا.

أخذ السيد في الصراخ في مبالغة، وانكمشت "سارة" وهي تخفي وجهها في صدر سامي المرتجف، ليشير إليه أشرف قائلاً في غلظة:

- تعاللي يا أبو صدر حنين هنا.

سحبه العسكري في غلظة ليقربه من مكتب الأمين، لكنه ما كاد يقترب حتى رفعت إليه بصري متظاهرًا بالدهشة، وقفزت من فوق مقعدي لأرى الذهول في عينيه، فأسرعت أقول مصدومًا وأنا أشير إليه:

- إنت.. بتعمل إيه هنا؟

لم يرد عليّ وهو ينظر إليّ في مرارة، وقد شعر بأن هيبته وزعامته قد تحطمت على عتباتي، لكن أشرف أسرع يسألني في دهشة:

- إيه يا باشا.. الواد ده معرفتك.

وجدت سامي يضغط على أسنانه في غل، شاعرًا بالإهانة أمامي، لكني أسرعت أسأل أشرف:

- بالتأكيد فيه حاجة غلط.. سامي باشا حبيبي.. هو عمل إيه؟

أجابني أشرف وهو يسترخي في مقعده، ناظرًا لسامي في شماتة شديدة:

- أبدًا الباشا زميلك وأصحابه كانوا بيستقضوا من عند السيد النمر وده مسجل خطر عندنا.. مش حتى يسكتوا.. لا.. قاوموا القوة وهددوها.

نظرت لسامي للحظات فوجدته ينظر إليّ بدوره، ثم نظرت لسارة وباقي أصحابهما فوجدتهم ينظرون إليّ في أمل، فأسرعت أقول لأشرف في رجاء:

- أشرف باشا.. دول أصحابي ويهموني.. صدقني دول ناس محترمة وولاد ناس محترمين.

أشرت إلى سامي قائلاً في فخر:

- ده ابن العميد أحمد الديب.. ظابط جيش.

وجدت الاهتمام للحظات على وجه أشرف، ثم قال لي في تمنع بسيط:

- حتى ولو الباشا أبوه أدخل وطلعه هيكون شكله إيه قدام أبوه لما نستدعيه

obeikan.com

علشان يستلمه، فسامي باشا لسه حدث ومعهوش بطاقة ولا رخصة للعربية اللي معاه.. صراحة منظر السيد الوالد هيبقى وحش قوي وهو بيترجى المأمور بتاعنا.

أخذت الألوان تصفع وجه سامي، وظهر على وجهه الضعف وعدم الثقة، ووجدته يرمقني في استجداء وانكسار، فابتسمت له في تعاطف، ثم اقتربت من أشرف قائلاً له في دلال ورجاء:

- وغلاوة أبويا عندك.. دول يهموني.. زمايلي في المدرسة.. مش عاوزهم يتبهدلوا ولا عاوز حد من أهلهم يتبهدل وراهم.. ولا حد من أهاليهم يعرف عن الموضوع حاجة.

أجابني أشرف في تمنع:

- بس المحضر اللي اتعمل و...

قاطعته في دلال أشد:

- إنت كده بتزعلني يا عمو أشرف.. وأنا هقول لماما ما تعملش حسابك على الغدا بكرة.

أسرع أشرف يقول في مرح:

- لا يا عم كله إلا ست الكل.. وأكلها طبعًا هههههه.

ثم أشار للعساكر قائلاً في حزم:

- خدوا السيد على الحجز.. وهاتوا كراسي وحاجة ساقعة بسرعة للبشوات.

openkan.com

ثم أشار لسامي ليجلس وهو يبتسم له:

- أقعد يا باشا.. أصحابه زي ولادي.

ابتسمت لسامي، فوجدته يبتسم لي في امتنان ثم قال:

- شكرًا.

أفضل كلمة سمعتها في حياتي، كلمة جعلتني أعلم أنني منذ الآن من زمرته، وأنني أصبحت أدينه.

رصت الكراسي وجلس الجمع في سعادة، وفاجأتني "سارة" بنظرة ممتنة وبها الكثير من الانبهار، وأمسك أشرف بالمحضر ثم قال لسامي في خبث:

- أنا هقطع المحضر وهرجعلك العربية بس ليا شرط واحد.

سأله سامي في حذر:

- إيه هو؟

أشار أشرف إليّ، ثم قال في خبث:

- تتغدى معانا.. أمه مالهاش حل في الطبيخ.

ضحك الجميع، وامتدت الجلسة لنصف ساعة من الضحك لأرى سامي آخر ضاحكًا وودودًا، وعندما استأذن في الرحيل، سألني في حيرة:

- بس إنت بتعمل إيه هنا؟

قلت له في براءة:

obeikan.com

- علشان حظك الحلو.. أنا باجي هنا كتير لعم أشرف صاحب بابا الله يرحمه،

أومأ برأسه في تفاهم، وعندما دلف للسيارة مددت يدي إليه بقطعة حشيش فاخرة، ثم غمزت له قائلاً في مرح:

- من النهارده.. مزاجك من عند الشرطة.. وحاجة فاخمة وكمان من غير فلوس،

أخذ ينظر إليّ في انبهار وامتنان ثم قال لي مرة ثانية:

- شكرًا.. إنت أحسن حاجة حصلت لي النهارده.

لوحت لهم وهم يرحلون، فلوح لي ووجدت "سارة" تلوح لي في حماس وعلى وجهها نظرة غريبة نحوي.

ما كادوا يرحلون، حتى صافح أشرف رجال القسم وخاصة الأمين قائلاً له في أخوة:

- شكرًا يا معلم... عقبال ما أخدمك في منطقتي.

ثم أشار للعساكر، فجلبوا السيد الذي ابتسم لأشرف في خبث وهو يفرك يديه قائلاً في تزلف:

- أشرف باشا.. أنا نفذت المطلوب مني..

أعطاه أشرف بضع ورقات مالية ثم قال له في حزم:

- هتختفي ستة شهور.. إياك حد يشوفك.. فاهم.

أومأ برأسه، قائلاً في خبث:

- عيب يا باشا.. برقبتي.

ثم رحل ليلتفت إلى أشرف مبتسمًا، فقلت له ضاحكًا:

-كده.. كله مية مية.

obeikan.com

٦

على الغداء، لم تتحول عينه عن أمي يتابعها في حركاتها، وسكناتها، حتى إنه كاد أن يوقع الحساء على ملابسه، كنا نراقبه أنا وأشرف ونبتسم في خبث.

لكن ابتسامتي الخبيثة كانت بطعم المرارة، كلا ليس غيرة على أمي لقد تجاوزت تلك المرحلة منذ زمن وتبلدت أحاسيسي عند تلك النقطة، وتعلمت أن ما تفعله أمي مجرد عمل، لكني أتحدث عن أحاسيس أخرى توأرقني، أحاسيس تصيبني بالجنون، لكني أتكتمها داخل خزينة سرية مغلقة بمئات المغاليق، خوفًا من شيوع سري غير الطبيعي، سرى المحرم، لكن نظرات سامي بالذات لأمي وهو يماثلني في السن جعلتني أشعر بغصة، وأتساءل لماذا أنا؟ نعم أيها السادة، أنا مهوس بأمي، كلا ليس كحب الابن للأم، بل حب غير سوي يعذبني ليل نهار.

منذ أن نضجت، وأنا تفكيري تبدل نحو جنس المرأة عمومًا، وكنت أرى من أمي ما لا يراه أي فتى من أمه، كنت أنام بجوارها، كنت أراها عارية من ثقب الباب مع الرجال، ثم بعدما أصبحت لي غرفة وحدي أدمنت التفرج عليها من ثقب باب غرفتها كل يوم، ثم تنهمر دموعي في إحساس بالذنب اللذيذ، أدمنت مراقبة حركاتها، ثم كنت أسرع للحمام لإطفاء لهيبي، وأظل أبكي في مرارة، هامسًا للسماء في رعب:

- ليه.. ليه أنا بالذات؟!

لقد شوهتني أمي بحبها الدافق الذي تعدى حب الأم لابنها، كانت تعاملني كصديق أو زوج شعوريًا فقط، لكني كنت في مرحلة البلوغ والهياج الجنسي المكبوت، لذا حول عقلي لمساتها لي وقبلاتها لي إلى ذات مغزى جنسي، أتصدق أنني حتى الآن لم أجرؤ على ممارسة الجنس رغم المعطيات والفتيات اللائي كن حولي بفضل أشرف، لكني لم أكن أرى غير أمي، خاصة حاليًا وهي في أوج جمالها، ونضجها الأنثوي.

لم تصمد أي فتاة في المقارنة بينها وبين أمي، أمي تكسب الحرب بلا أي مجهود، أمي التي كانت تتركني أثناء النوم، لتقتحم على عالم أحلامي في النوم واليقظة، لأهب مفزوعًا، لكن بلا حيلة.

كتمت لهيبي نحو أمي وأصبحت أتعامل معها في حذر حتى لا تشك بي، خاصة أنفاسي اللاهثة عندما تقترب مني، لذا كنت أحاول دائمًا الابتعاد عنها، حتى لا أضعف وتقع كارثة لا نجاة منها.

كل أسراري المحرمة نضحت على وجهي، لمجرد تخيلي لسامي يضاجع أمي، كنت أعلم أنها لن تسمح بذلك، لأنها تدخر نفسها لما هو أكبر، لكن مجرد تخيلي تلك الأوهام جعل أسراري تحاول التحرر من قيودها.

انتهى الغداء الضاحك رغم هلعي الداخلي، ودلفت مع سامي إلى غرفتي، لأجده يقول لي بلسان ذليل:

- أمك حلوة قوي... مش قصدي بس..

أومأت برأسي في إحباط، وقد تأكدت أن سحرها سيطر عليه كما يفعل دائمًا، وعلمت أنه أصبح طيعًا ليدي أفعل به ما أريد وقتما أريد.

سألني في خبث:

- هما البنات اللي كنت بتبدل فيهم صحابك؟

أجبته في بساطة:

- طبعًا.. عاوز أي خدمة منهم؟

بعد مراوغات عقيمة لا طائل منها، أخبرني بأنه معه مفتاح إحدى الشقق الخاصة بوالده، فكما تعلم هم يسكنون في فيللا كبيرة بحمام سباحة وحديقة صغيرة، لكن الأب يمتلك عشرات الشقق والشركات، فهو غني بالفعل من قبل الدخول للحربية، لكن الجد الثري كان يريد للأب وجاهة اجتماعية تفيده في العمل الذي تضاعف بالفعل ليتحول لإمبراطورية بفضل العلاقات الاقتصادية مع الجيش والحكومة.

سألته في دهاء:

- المفتاح معانا.. يبقى إيه اللي ناقص؟

ضحك في خبث مماثل، فتابعت أنا في بساطة:

- خلاص يا معلم النسوان والحشيش عليا.

حضنني في سعادة غامرة، فأبعدته في خبث قائلاً:

- الله.. أمال برستيج سامي باشا راح فين؟

obeikan.com

أجابني ضاحكًا في ود:

- الهلس مافيهوش برستيج.. وبعدين إنت بقيت تبعي.

ابتسمت له، ثم تركته في الغرفة، وذهبت لأشرف الجالس مع أمي، فاستأذنت منها قائلاً:

- لو سمحتي يا ماما.. كوباية شاي لسامي.

رمقتني في مكر، ثم نهضت وتركتني مع أشرف فأسرعت بإخباره بطلبات سامي، فقال لي ضاحكًا:

- كده المعلم طب ولا حدش سمى عليه.. ما تقلقش اديني العنوان وهابعتلك مكنتين سوبر سكس.

ترددت للحظات، ثم قلت له هامسًا في تردد:

- ممكن.. إنت عارف يعني.. بس ماما.

أطلق أشرف سبة بذيئة، ثم قال لي في حدة:

- كويس إنك اتكلمت في الموضوع ده.. إنت خليت رقبتي قد السمسمة مع البنات اللي كنت بجبهملك.. ولا مرة تحاول حتى التحرش.. كانوا بيقولوا لي إيه يا باشا بعتنا مع شيخ جامع!! يا ابني عيش حياتك وعاوز البنات ييجوا يحكولي عن إجرامك.. ماشي يا مجرم!

هززت رأسي بالإيجاب، لكن في داخلي شعرت بشعور غريب مخيف غير سوي، شعرت بأنني سأخون أمي!

***

obeikan.com

أصبحت من ملوك المدرسة، فكل شخص تابع لسامي ملك خاضع للإمبراطور، لكني في الحقيقة كنت المسيطر على سامي، لم يعد يستطيع الاستغناء عني، أنا المتعهد الرسمي لمزاج سيادته، كنت أظهر له الولاء أمام الجميع، لكني كنت أتحكم به في الواقع، أتلاعب بمشاعره كما أريد، أصبحت المتحكم في سلوكه، أعلم متى أخيفه ومتى أغضبه ومتى أسعده، أصبحت أنا بالنسبة له العالم، حبسته في عالمي الضيق مختارًا، بعدما كان يعربد في العالم كله.

لاحقتني سارة بنظراتها الشغوفة، كنت أظن أن سامي سيغضب أو يبالي لكنه فاجأني في برود ساخر:

- سارة مين يا عم.. دي بالنسبة لي برستيج مش أكتر.. لكن حب وكده فكك.. وهي عارفة كده بس حاولت تجبرني على الحب علشان طمعانة في وضعي.. أنا مش بتاع ارتباط.. أنا حر زي الطير.. عايش لمزاجي.

غمزني بعينه متابعًا في خبث:

- لو عاوزها... حلال عليك.. بس نصيحة دي بت خنيقة.. وهتخنوقك وهتعاملك كأنك جوزها.

لذا أخذًا بنصيحته، لم أحاول التقرب من سارة، رغم كل محاولتها لكني استنتجت أنها كانت تحاول بث الغيرة في قلب سامي الذي كان قد مل منها منذ فترة، لكن محاولتها باءت بالفشل، خاصة عندما دلف سامي لعالمي.. وعالم فتيات أشرف، لقد أصبح عبدًا سعيدًا في جنتي المترفة بالحشيش والنساء الجميلات، منذ أن ذاق العسل الحقيقي مع فتياتي الخبيرات، وهو

obeikan.com

قد زهد في سارة، حتى إنه قال لي في استمتاع حقيقي:

- نمت مع سارة وغيرها.. بس عمري ما استمتعت كده.. دول وحوش مش نسوان.

لكني في مرارة، لم أشعر بما شعر به، لقد خذلته وخذلت أشرف، وخذلت نفسي في أول يوم لي في الممارسة الجنسية في شقته مع فتاتين أرسلهما لنا أشرف

تعاطى سامي حشيشه الفاخر، وخمرته المعتقة، ليصعد إلى سماء المتعة، لكني لم أتعاط مثله، فقط لففت سيجارة عادية من التبغ ونفثتها في توتر ملحوظ، جعلهم يسخرون مني، وعندما هم كل منا بالدخول مع فتاته لإحدى الغرف، همس لي في خبث محنك:

- بلاش كل واحد لواحده... ونخليها حفلة جماعية.

رفضت بشدة ممتعضًا، ربما تقززًا لكن بالتأكيد خوفًا، دلف مع فتاته لغرفته، وبخطوات بطيئة دخلت مع فتاتي لحجرة مجاورة، كانت الفتاة عملية فقالت لي في تروٍ:

- ما تقلقش.. أشرف باشا موصيني عليك.. سيبلي نفسك.

تركتها تتعامل معي، بالفعل كانت خبيرة وجميلة للغاية، أخذتني بلمساتها وقبلاتها لعالم خيالي من المتعة، وعندما أتت لحظة المضاجعة، وجدت نفسي أهوى من سماء المتعة لجحيم الفزع، في تلك اللحظة بالذات رأيتها أمامي

obeikan.com

تماثلت لي أمي، رأيتها في وجه الفتاة، لأصاب بالذعر، لأجدني أدفع الفتاة من فوقي جاذبًا ملابسي، راكضًا في هلع نحو الباب، ما كدت أصبح في الشارع وأنا أرتدي ملابسي في ارتباك فأسقط وأنهض ثم أركض وأركض نحو النيل صارخًا في جنون:

- ليه.. ليه بتعذبيني... اطلعي من مخي... اخرجي من جوايا... إنتي إيه.. هتفضلي طول حياتك مسيطرة عليا... عمري ماهعيش مرتاح وإنتي مستحوذة عليا.. اطلعي من جوايا حرام عليك... دمرتي روحي وشوهتيني.. اخرجي..

ثم انفجرت باكيًا.

لم تخرج في ذلك اليوم.. لكنها خرجت جزئيًا عندما دعاني سامي للغداء في قصره المنيف، ورأيتها تقفز في حمام السباحة، حورية من الجنة، فتاة أصغر مني بعام، ما كادت ترانا حتى لوحت لسامي فلوح لها، ثم مال عليا قائلاً:

- علياء أختي الصغيرة.

اسمها كان كافيًا لأتعلق بها، وربما لأنها كانت تشبهها، ليس في الجمال الساحق للساحرة المسيطرة، لكن شيء ما في وجهها، وجسدها، وحركاتها التي كنت أتابعها في شغف، وأنا اقترب من حمام السباحة كانت تقول لي إنها هي لكن مصغرة.

خرجت من الحمام بلباس البحر وصافحتني بلا خجل، لكني كنت أصافحها وقلبي ينبض في عنف لم أشعر به نحو أي كائن غير - للأسف- أمي.

obeikan.com

تغدينا معا جميعًا، وتعرفت على سيادة العميد، رجل ضاحك باسم، ذو عقل متفتح، فكان يضاحك الجميع وأحيانًا يمسك بخصر زوجته مقبلاً إياها على خدها، قائلاً في سخرية:

- حرمنا المصون.. منعاني من بوس أي حد حتى هي نفسها.

ثم يقهقه ضاحكًا، لكني كنت أبتسم مجاملاً وعيني تتابع علياء في حركاتها، أتابع فمها ماضغًا ضاحكًا، يدها ملوحة، كنت غارقًا في علياء، وانتبهت في آخر لحظة إنها تنظر إليّ في ابتسامة خبيثة كاشفة لنواياي، فأسرعت بإبعاد بصري عنها، ثم العودة في لهفة لرؤيتها، فأجدها ما زالت تتفحصني، ثم اتسعت ابتسامتها لي.

جلسنا على حمام السباحة أنا وسامي نتابع علياء السابحة في مهارة، وكنت أنا أتفحص جسدها في وجد، لأسمع من بعيد سامي يقول لي:

- علياء سباحة كبيرة.. واحتمال تنافس على بطولة الجمهورية.

رددت عليه بهزة من رأسي، فمال نحوي قائلاً في خبث:

- مالك.. من يوم ما هربت من الشقة وإنت متغير.. إيه مالكش في النسا.. بس ما تقلقش أنا سديت مكانك.

ثم أتبعها بضحكة عالية، لم أرد عليه، كما لم أرد على سخرية أشرف مني عندما قال لي متهكمًا:

- فضحتني الله يخيبك.. مالكش... قولي بدل ما تخلي البنات يتريقوا عليا.. شاطر بس تتعامل مع نفسك في الحمام.. كلنا ملاحظين.. ما دمت راجل كده.. ما بتعملتش عملي ليه يا خيبة؟

لم أرد عليه وأنا أتابع أمي ببصري في مرارة، لقد قضيت أسوأ ليلة في حياتي، كنت أتعامل مع أمي كأنني أتعامل مع أفعى سامة، أتحاشاها في كل مكان، أذعر إذا لمستني، أموت لو جلست بجواري، فهربت لغرفتي غارقًا في دموعي المكتومة.

أعطيت سامي قطعة حشيش فاخرة ليصمت ولكنه ما كاد يتلقفها حتى قفز واقفًا، فسألته:

- رايح فين؟

أجابني، وهو يمسك قطعة الحشيش في عشق:

- أنا عارف إنك مالكش في الحشيش وأخرك سيجارة لف.. فأنا رايح أوضتي أشربها.. مش صابر أسيبها.

نهضت في تلكع، لكنه أجلسني قائلاً:

- رايح فين.. جايلك على طول.

ثم هتف بعلياء:

- علياء خلي بالك منه لغاية ما أرجع.

أجابته في عملية، ناظرة إليّ في خبث:

- حاضر علشان خطرك هضحي.

ثم خرجت من الحمام وجففت جسدها المثير رغم صغر سنها، وكنت أتابعها في لوعة، وكانت هي ترمقني في شموخ ملكة واثقة من نفسها، ثم

obeikan.com

جلسنا معًا نتحدث، وذابت حواجز كثيرة بيننا.

ولأول مرة نسيت أمي أو دفنتها في علياء.

***

أخبرونا في المدرسة بموعد أول حفل مدرسي، كما أخبرني الطلبة القدامى بأن المدرسة تقيم حفلات بصفة مستمرة كمورد رزق إضافي للمدرسة، وكله على حساب أولياء الأمور الأغنياء.

وكانت دائمًا الحفلة الأولى في السنة، حفلة تعارف يأتي كل طالب بأسرته ليتقابل العمالقة في حفل أسطوري، وحدد للحفل يوم الخميس القادم الساعة السادسة مساء في حضور كبار المغنين وراقصة.

ما كدت أبلغ أمي بذلك حتى ابتسمت لي في هدوء ثم سألتني في عملية:

- المهم سيادة العميد يكون جي الحفلة.

تأكدت من المعلومة من سامي، فقال لي في خبث ضاحكًا:

- بابا عمره ما فوت حفلة وخاصة لو فيها رقاصة.. إنت عارف إنه بيحب الفرفشة.. وخاصة إن ماما مش جاية علشان عندها افتتاح حاجة من بتوع المرأة.. كده بقى هياخد راحته ويهيص.. بس خلي بالك من أمك هيعاكسها.. أنا حذرتك.. ماليش دعوة.

ضحكت ساخرًا في نفسي، بل خذ بالك من أبيك، لقد وقع خيار الساحرة عليه، ويل له منها منذ الآن.

أخبرت أمي بقدوم العميد للحفل، فابتسمت في سعادة، ثم قالت لي في

obeikan.com

فرح:

- كده ممكن أقولك مبروك يا حضرة الظابط.

ثم خرجت مع أشرف وهي تقول لي في عملية:

- هاروح مع أشرف أجيب شوية لبس يليق بالحفلة.. وهاروح الكوافير أظبط شوية حاجات.. أنا لازم أسيطر على العميد.

ما كدنا أنا وأمي نخرج من السيارة الفخمة المأجرة، مخلفين أشرف خلفنا في السيارة، وندلف إلى الحفل حتى أخذت الرؤوس في الدوران حول نفسها في شغف، وبدأت العيون في التساقط على جسدها في ذهول حتى من النساء اللاتي التمعت في عيونهن نيران الغيرة والخوف، لقد كانت الساحرة في ذروة مجدها العمري، التفاحة في أوج نضجها، كانت تسير تاركة خلفها عبيرها وضحايا يتساقطون بالعشرات، كانت اليوم الفتنة تمشي على قدمين.

أطلق سامي صفيرًا منبهرًا ثم هتف في سخط خبيث:

- أمك هتبوظ الحفلة.. النسوان هيموتوا من الغيظ.. أمك عدت الحدود.. ربنا يستر على الحفلة.

تم التعارف المنتظر كلقاء الجبابرة والعمالقة، التهم سيادة العميد أمي بعينيه المسحورة، ثم التقط كفها بين أصابعه في مصافحة اتسعت على أثرها عيناه وانتفض جسده وأخذ يبتلع لعابه في صعوبة، جعلت سامي يهمس:

- أبويا اندلق... وهيفضحنا.. وأمي هتخرب بيته.

ابتسمت أنا في ظفر، ثم حولت انتباهي إلى علياء التي كانت ترمق أمي في إعجاب ممزوج بخبث أنثوي مدركة لكل همسة ولمسة من أمي لأبيها، لكنها لم تبد أي تأفف من ذلك، بادلتها أمي نظرة عميقة شملتها من رأسها حتى قدمها، ثم لوت شفتها في امتعاض لم تدركه علياء، تبادلنا أنا وعلياء الابتسامات لأشعر وكأنني أطير، ثم تفرقنا كلنا في ثنائيات، سامي مع سارة كان يسير معها مرغمًا وعلى وجهه ضيق، نظر إليّ مستنجدًا لكني لم أعره انتباهي وأنا أتمشى مع علياء، لامحًا بطرف عيني سيادة العميد جالسًا في مواجهة أمي يتصبب عرقًا وعلى وجهه علامات الاستسلام لقدر لا مفر منه، وأمي تنظر إلى علياء في ضيق، زاد ضيقها عندما رقصنا أنا وعلياء.

تحدثنا، ضحكنا، العالم كله كان يغرد معي، سيمفونية كونية جبارة كانت تجتاح كياني، ولأول مرة في حياتي أشعر بقيمتي، أحس بوجودي، لأول مرة يختفي قبح العالم من أمام نظري، لأرى جماله في عينيها، مغامرات شيقة خضتها داخل عينيها، حياة كاملة عشتها وأنا ممسك بخصرها في رقة وقوة كأنني أقول لها في استعطاف، ابقي مع للأبد، لا تتركيني لظلمات روحي وتشوهات نفسي، دعي الزمان يتوقف في تلك اللحظة، أول لحظة رضا عن نفسي طوال حياتي، الآن أدركت هدفي في الحياة أن أحب علياء، لأول مرة أنساها، أنسى سبب قوتي وضعفي، لم أعد أتذكرها، علياء أنستني كل شقائي.

تذكرته عندما انتهت الحفل، ورأيت سامي عائدًا في سخط وسارة متشبثة

بذراعه، وتناهى إليّ صوت أمي تقول للعميد في رقة تذيب الجبال لكن لأول مرة تشعرني بالغثيان، يبدو أنني أتغير بالفعل وأعود لنقاء قلبي:

- ممكن رقم تليفون مكتبك.. كنت عاوزاك في خدمة.

أسرع كالمجذوب بإخراج كارت من جيبه، وأعطاه لها وهو يلمس يدها في لهفة، ثم قال لها في خضوع:

- كلميني في أي وقت.. أنا تحت أمرك.

التقطت أمي الكارت في ظفر، ثم منحته أجمل ابتسامة جعلته يترنح كطفل صغير أمام قطعة فاخرة من الشيكولاتة.

لحظة الفراق لحظة عظيمة، قلوب تخفق متحطمة، وأحلام - تجمد الزمن عندها في لحظة واحدة - تنهار، السعادة تتراجع للخلف تاركة مكانها للحزن واللهفة، لذا وجدت نفسي أقول لعلياء في استجداء:

- هاشوفك تاني.

نظرت إليّ كأنها تنظر لطفل غرير، ثم قالت لي في شيء من الدلال الذي جعلني أتنفس في صعوبة:

- إحنا خلاص أصحاب وهنتقابل على طول.. وعلى فكرة أنا دايمًا في نادي الجزيرة ممكن نتقابل هناك؟!

هززت رأسي موافقًا في فرح غامر، ثم لوحت لي هي وسامي وهما يركبان السيارة مع أبيهما الذي كان يلوح لنا في حماس جعله بالكاد يتفادى الاصطدام بالسيارة التي أمامه.

دلفنا نحن أيضًا للسيارة المأجرة وقلبي يتألم، وسألنا أشرف في حماس:

- فرحوني.

أجابتة أمي في ثقة ملكية:

- اطمن.. ادهول على عينه زي الجردل.

التفت إليها قائلاً بغتة ودون مقدمات:

- عاوز أشترك في نادي الجزيرة.

***

نشبت بيني وبين أمي أول معركة حقيقية، كنت أرى في عينيها وخلف عبارتها المستترة غيرة وحب سيطرة، شعرت بأنها تريد أن تستحوذ علي لنفسها فقط، لا تريد لأي امرأة أن تشاركها في قصة عمرها وكفاحها، لم تصرح لي بذلك، لم تذكر اسم علياء لكنه كان يدوي مع كل كلمة

رفضت أن تشترك لي في النادي، هاتفة في غضب ساخر:

- منين يا حيلتها.. كل اللي معانا صرفناه على الشقة.

لم أيأس منها، لذا استدعيت أشرف بعدما شرحت له كل شيء فضحك لي قائلاً:

- كل الأمهات كده.. عاوزة تحط ابنها في قمقم وتقفل عليه.

سألته في لهفة:

- والحل؟

obeikan.com

تدخل أشرف ببساطة وجلس مع أمي، وكنت أستمع لحديثهما عبر باب غرفتي، فكان يقول لها:

- سيبي الواد يعيشله يومين.. بلاش الضغط بدل ما ينفجر وما نعرفش نلمه.. وما تخافيش عليه هيلف لفته ويرجعلك.

أنكرت كأي امرأة أنها تغار ورسمت على وجهها قناع البراءة قائلة في حسرة:

- أبدًا والله.. ده أنا دايمًا بقوله عيش حياتك.. بس مش عايزين علاقاته تأثر على خطتنا وكل حاجة تضيع.

نظر إليها أشرف في شك، ثم قال لها في خبث:

- أنا أشرف.. مش عيل بريالة هتضحكي عليه.. قول لي اللي جواكي.. ده إنتي ماشفتيش البت غير مرة واحدة وكمان ابنك ماصرحش بحاجة ليه العجلة وسوء الظن؟!

ابتلعت لعابها في صعوبة، ثم همست له في ضيق:

- إنت عارف يا أشرف إني أم.. والأم عاوزة لابنها الأحسن، وعارف كمان إني ست مش عادية وبنظرة واحدة للبت دي فهمت اللي ابني لو قعد سنين مش هايفهمه.

صمتت للحظات ثم تابعت في مرارة:

- البت دي شبهي.. مش في الشكل.. في الطموح.. البت دي ممكن تضحي بأي حاجة علشان توصل.. يرضيك ابني ياخد واحدة شبهي؟

obeikan.com

نكس أشرف رأسه للحظات، ثم قال لها في هدوء:

- ابنك معجب بيها.. هو لسه صغير وده لعب عيال.. سيبيه يجرب ويعيش ويتعلم.. ومع الخبرة هيغير رأيه بس على الأقل يبقى عاش حياته.. فما تكبريش الموضوع.

تبادلا النظرات، فأسرعت تقول مراوغة:

- بس أنا ماعيش فلوس.

نظر إليها ضاحكًا ثم قال لها في خبث:

- بطلي بخل.. على العموم أنا هخليه عضو في النادي من غير ولا مليم.. ليكي حاجة تانية؟!

تنهدت في نفاد صبر ثم تركته إلى غرفتها، فأسرعت إليه فرحًا، وشكرته، فقال لي في حزم:

- أمك بتحبك.. فبلاش تخسرها.

لم أكن أود خسارتها، وأيضًا لن أضحي بقطرة الماء الوحيدة التي روت روحي لتنتشلها من الضياع، ورممت لي نفسي التي تشوهت، أعلم أن جزءًا كبيرًا من كلام أمي حقيقي، فبنسبة كبيرة هذا التشابه بينهما الذي لا تره بعينك لكن تحسه بقلبك هو الذي دفعني لحبها، ربما لأنني أحس نحو أمي بعاطفة غير سوية، فعندما وجدت المماثل لها أسرعت بتحويل دفتي نحو الطريق السوي، فلم تريد حرماني، لخوفها عليّ، لم أعد غرا لهذا الحد، فلتدعني أحيا لمرة في حياتي.

ثم إن الحب لا يحتاج تبريرًا، ولا دافعًا، هو هكذا يأتي بلا سبب ليحول حياتك لسعادة أو شقاء، لذا رغمًا عن أمي وعني كنت مجبرًا على الحياة.

تركت أمي تتحدث في الهاتف مع سيادة العميد، كنت أتخيله في عقلي وهو يتلوى كالسمكة الحية على النار، إذا كنت أنا ابنها وتؤثر بي، فما بالك بالعميد المتلهف لماء بارد يطفئ لهيب شوقه ربما سببه إهمال من زوجته سيدة المجتمع غير المتفرغة له، كانت آخر عبارة سمعتها قبل ذهابي للنادي لمقابلة ابنته:

- مش هقبل أي رفض.. لا.. العشا عندي النهارده.. كله من صنع إيدي.. مستنياك.

ووضعت في الكلمة الأخيرة كمية رهيبة من الشوق والحرارة جعلتني أهمس في شفقة:

- الله يكون في عونك.. تلاقيك بتموت دلوقتي بسبب الولية المفترية دي

ثم خرجت إلى النادي حاملاً عضوية النادي التي أحضرها لي أشرف في وقت قياس وبلا أية أموال مهدرة، وعندما سألته في ذهول:

- بالسرعة دي... إزاي؟

أجابني في غموض معتاد:

- صدقني لو الوزير شخصيًا ماكنش هيجبها بالسرعة دي... بس ماتنساش أنا أشرف وليا أساليبي ومصالحي.

قدرات أشرف رغم إنه أمين شرطة كانت تبهرني، لا شيء صعب عليه،

كل الأبواب تفتح أمامه، وعندما سألته عن ذلك أجابني بكلمة واحدة في غموض:

- العلاقات.

لم أعد أنبهر بعالم الأغنياء منذ مرافقتي لسامي، ورؤيتي لقصره، لذا دلفت للجزيرة بدون انبهار بمبدأ لقد رأيت كل هذا من قبل، تقابلنا أنا وعلياء كانت وسط أصدقائها من فتيان وفتيات، يضحكون ويمزحون بدون حياء أو كلفة، عرفتني عليهم، تقبلوني في بساطة، لكني تقبلتهم في ضيق، فأنا كنت أريد علياء وحدها، لا أريد بشريًا واحدًا على الكوكب، فقط هي، ثم إن معاملتها لأصدقائها الصبيان بدون كلفة كانت تنهش قلبي، المصافحات البريئة واللمسات غير البريئة كانت تضايقني، فهي لي وحدي.

لكني ككلب مطيع لسيده، كنت أتبعها في كل مكان، وأنا لا حول لي ولا قوة، ليس لي رأي، فقط لي حق الصحبة، آكل مما تأكل منه، أشرب مما تشرب منه، أتحدث مع أصدقائها رغمًا عني في لطف، أتحمل مزاحهم السخيف معي والمتحرش معها، كل هذا وأنا مبتسم.

شجعتها وهي تتدرب في حمام سباحة النادي، جففت لها جسدها بالمنشفة وأنا أتنسم رائحتها الطازجة، جسدي يشتعل نارًا عندما ألامس بشرتها، أجد رغمًا عني عيني تغلقان وأجوب عوالم لم يطأها بشر من قبل، لأفتح عيني لأجدها ترمقني في خبث، فأتوتر للحظات، فتبتسم لي في تفهم عميق كأنها تقول لي وأنا أعلم ما بك.

كنت أعود للمنزل منتعشًا، وأتعامل مع أمي في براءة وسعادة، لقد جعلني

حب علياء أطرد أفكاري الشريرة ناحية أمي خارج عقلي.

والذي أكد لي أنني عدت طبيعيًا عندما اتصل بي سامي لنتقابل في شقته، فاتصلت بدوري بأشرف ليحضر الطلب وجلبت المتعة معي، وتقابلنا في الشقة ومعي فتاتان، شرب سامي الحشيش والخمر، ثم دلف مع فتاته إلى إحدى الغرف وهو يهتف بي ساخرًا:

- لو معرفتش.. ابعتهالي.

ثم أطلق ضحكة ساخرة هو والفتيات، غلي الدم في عروقي وجذبت فتاتي إلى الغرفة الثانية، وتعاملت معها في حذر وأنا في داخلي خوف من تكرار المأساة السابقة، لكن في أوج لحظات العلاقة لم تأت الساحرة الشريرة إليّ، لقد رأيت الفتاة تتحول إلى علياء، لينتفض جسدي من الاشتعال، وكانت ليلة أسطورية، ظللت متشبثًا بالفتاة لساعات وأنا أخرج بها كل شوقي لعلياء.

لم أعتبر ما فعلته خيانة لعلياء، فأنا كنت أحيي تلك اللحظات معها، كانت معي بجسدها وروحها، كنت أفرغ أمنياتي المكبوتة نحوها فيها ولو بالوهم..

الأيام تمر..

في الصباح: في المدرسة مع سامي وسارة - التي ظلت تكبس على أنفاسه - والصحبة، وكنت طوال الصباح أفكر في علياء، أتوهم نفسي معها وحدنا في منزلنا نتناجى في حب وشوق.

عصرًا: ربما أذهب لسامي في الفيللا وأجلس معه ومع علياء وأقابل أباه وأمه اللذين اعتبراني فردًا منهم، ثم أخرج مع علياء إلى النادي ككلب

الحراسة، وكانت تعطف عليّ بنظرة أو كلمة.

ليلاً: مع سامي في الشقة الملعونة أو الديسكو أو السينما أو العربدة في أي مكان به نساء وخمر وربما مع علياء التي كانت تأخذني معها في سهراتها ليطمئن عليها أبوها، فأنا كنت بالنسبة لها مهرب أمن، كنت أود أن أخبرها بحبي المفضوح عندها، لكني كنت أتردد وأسوف بسبب غيظي منها ومن عدم صدها لأي متودد لها، كانت تجمع الشباب حولها كأنها تجمع الطوابع، كنت دائمًا في حيرة من أمري معها، أحيانًا نتقارب جدًا وتهمس لي بأسرارها وتعاملني في حب وشوق لو تأخرت عليها، وأحيانًا لا تشعر بوجودي كأنني هواء بلا لون.

أما علاقة أمي بالعميد فقد تطورت، وأصبح بشكل شبه يومي عندنا، لكنها أخبرتني أنه دائمًا يرحل قبل عودتي حفاظًا لمشاعري، ظنًا منه أنني لا أعلم شيئًا عن علاقته بأمي، أصبحت حياتنا تعتمد عليه كثيرًا من مال وتخليص مصالح، أصبح عبدًا آخرًا لأمي كأشرف بالضبط.

نجحنا كما هو متوقع لنا، ليس بالمجهود بل بالمال والغش الجماعي، وقضيت أغلب وقتي في قصر سامي ما بين الموسيقى والأفلام وخاصة الجنسية ومشاهدة علياء التي بدأت تنضج وتضاريسها تنحت، مما جعلني ازداد شوقًا لضمها ولمس كل جزء منها.

وقضاء باقي الوقت معها في النادي ما بين سعيد لوجودي معها وتعيس للنحل المحيط بزهرتي.

وقضاء باقي الوقت مع سامي في اللهو أو الجلوس مع أشرف وأمي في

الـ(روف) ندخن السجائر وأشرف يمزجها بالحشيش لنفسه، كنا نتحدث في كل شيء وكنا نصقل خطتنا في السيطرة على العميد، المسيطر عليه فعليًا، وعندما كان يأتي لأمي كنا نختفي أنا وأشرف حتى يدخل ثم نعاود جلستنا.. وهكذا حتى أتى العام الجديد.

obeikan.com

٧

يمكننا أن نسمي العام الجديد، عام الملكة علياء، التي انضمت حديثًا إلى المدرسة معنا، في البداية كنت أسعد فتى على وجه الأرض، فها هي فتاتي معي طوال الوقت، في المدرسة والقصر الذي أصبحت أحد سكانه والنادي كمشجع لها في تمرينات السباحة.

لكنها كانت كملكة النحل تجمع الذكور حولها، لذا بدأ صراع مميت في المدرسة حول علياء، بقيادة مهاب الجحش هكذا لقب عائلته ابن ملياردير ونادر الشوان ابن وزير، وفي نفس الوقت رجل أعمال.

لم تمانع الملكة علياء من تقرب الذكور منها، بل كانت تستمتع بحربهم عليها مما كان يشعرها بأهميتها، حتى سامي لم يكن يبالي، كان يهز كتفه قائلاً:

- سيبها تعيش يومينها.. خلينا إحنا في دماغنا.

لم أرد عليه، غصة مريرة أصابتني، فهو لا يهتم بأخته، فقط نفسه التواقة للهو، وكذلك لا يشعر بحبي لها رغم كل الدلائل الساطعة أمامه، المهم أن تبتعد عنه علياء ليتابع اللهو دون رقيب أو مسؤوليات.

بدأت علياء تتهرب مني، كلما ذهبت للفيللا لا أجدها وإذا سألت، لا يهتم أحد بالرد، فكنت أتألم وأشعر بالانسحاق الداخلي حتى إنني في أيام كثيرة

كنت أغلق على غرفتي وأبكي لشعوري بأنها رغم معرفتها بحبي لها بدون تصريح مني، إلا أنها لا تبالي بمشاعري.

دلفت أمي على الغرفة وسألتني في حزن لرؤيتها آثار الدموع في عيني:

- مالك.. في حد مزعلك؟

هززت رأسي بالنفي، فتابعت في حذر:

- علاقتك بعلياء كويسة!

لم أرد، وأنا أهرب من عينيها، فتابعت هي في مرارة:

- مش مهتمية بيك.. صح.. مجمعة الصبيان حوليها.. وبتهرب منك.

نظرت إليها في هلع وذهول، فتابعت هي في قسوة:

- أنا قولتلك من الأول دي مش ليك.. دي هتلوعك ومش هتطولها.. صدقني يا ابني بخبرتي دي حتى ولو أتجوزتك مش هتهنيك يوم واحد.. هتفضل طول عمرها تحسسك بالنقص.. وإنك أقل منها.. وإنها اتنازلت وخدتك.. وبالأسلوب ده هتفضل طول حياتك عبد ليها مالكش حياة غير حياتها.. ومالكش صوت تقول بيه لأ.

همست لها من وسط دموعي التي بدأت تسيل:

- غصب عني... بحبها.

ضمتني لصدرها وشعرت بأمومتها ولا شيء آخر، وهمست لي في حنان:

- يبقى لازم تقلها إنك بتحبها.. وسيبها تقرر.. ولو لقيتها بتحبك يبقى لازم

obeikan.com

تسيطر.

لم أرد، لكني قررت المجازفة والتغلب على خوفي، سأخبرها وبعدها حياة أو موت.

انتظرتها بجوار حمام سباحة المدرسة، حيث كانت تتدرب لدخول مسابقة باسم المدرسة، كنت أتابعها في شغف ورجاء، وما كادت تنتهي حتى أسرعت نحوها، لأجد مهاب قد سبقني إليها فسارت معه تاركة قلبي ينزف في غضب.

عبق دخان الحشيش غرفة سامي وأنا وسارة جالسان معه في القصر، سارة أتت رغمًا عن سامي الذي حاول الخلاص منها، لكنها تشبثت به كاللبانة الممضوغة، وأنا أتيت لرؤية علياء التي لم تعد منذ أن أخذها مهاب من عند حمام السباحة، كنت كل بضع ثوانٍ أنظر إلى ساعتي أو أخرج للشرفة في انتظارها.

نظرة غريبة من سارة تجاهي جعلتني أهز لها رأسي متسائلاً، فرمقتني في حدة، ففهمت أنني غير مرغوب فيه، وأنها تريد الانفراد بسامي الذي ما كاد يراني مغادرًا حتى تشبث بي هامسًا وهو ينظر لسارة:

- على فين ماتسبنيش لوحدي معاها.

ابتسمت له بركن فمي قائلاً في إحباط:

- عيش يا معلم.

خرجت من القصر، وجلست بجوار السور بانتظارها، مرت ساعات وأنا

غارق في بحار حزني وخيالات مريضة تنهش روحي، حتى توقفت سيارة بجوار البوابة، فانتبهت لأجد علياء جالسة بجوار نادر، ثم مال عليها لثوانٍ، لا أعلم حقًا إن كان قد قبلها أم لا؟! لكن الغضب ضرب رأسي في شراسة لأرى العالم بلون الدم حولي.

رحلت السيارة، وكادت علياء تمر من جواري بدون أن تشعر بي، فهتفت بها في مزيج من الإعياء والغضب واللهفة والحب:

- علياء.

ظهرت الدهشة على وجهها للحظات، ثم شيء من الضيق، ثم سألتني في هدوء:

- بتعمل إيه جنب القصر؟

أجبتها متلعثمًا، وقد شعرت ببدء المواجهة:

- مستنيكي... كنت عاوز أسألك سؤال بس ما تزعليش مني.

نظرت إليّ في انتظار السؤال، فتابعت في ارتباك أشد:

- إنتي علاقتك إيه بمهاب ونادر؟

لم ترد للحظات، وهي تتمعن فيّ حتى كدت أركع أمامها طالبًا الرحمة، ثم ابتسمت في هدوء هامسة:

- صحاب.. مجرد صحاب.

أسرعت أقول طارقًا الحديد الساخن، وأنا أشير لنفسي كالأطفال:

obeikan.com

- وأنا.

سألتني بنبرة هامسة حانية خبيثة:

- إنت.. إيه؟

تلعثمت بشدة، دارت بي الدنيا، لكني قلت لها بكلمات مرتبكة:

- أنا بقالي سنة جنبك.. في كل مكان بحاول أكون معاكي.. استحملت رخامة صحابك.. استحملت همسهم إني الصبي بتاعك.. واستحملت هزارك معاهم رغم أنه كان بيضايقني.. طول الوقت بحاول أعبرلك وأنا عارف أنك حسيتي بمحاولتي.. طول الوقت عاوز أقولك بس خايف تجرحيني أو تصديني.. عاوز أقولك إني.

تحول صوتي لهمس باكي متابعًا:

- بحبك.

لم تفاجأ أو تهتز، بل تسللت ابتسامة رقيقة على شفتيها ولم ترد عليّ، فقط في نهم قبلتني.

obeikan.com

قبلة الحياة

عشت ليالي طويلة فوق السحاب، أجدف في قارب الحب، أقفز من القارب لأطير في الهواء، فأنزل فوق ظهر عنقاء عملاقة تدور بي في السماء، ثم تهبط بي إلى المحيط فأقفز من فوق ظهرها، لأغوص في المياه بجوار الأسماك فيأتي الحوت الأبيض فأصعد فوق ظهره، فيرميني على جزيرة صغيرة لا يوجد بها غير علياء

سعادتي استمرت، رغم الهفوات الصغيرة من علياء، ما زالت لا تراعي وجودي، ما زالت تضحك وتمزح مع الآخرين رغم اعتراضي، لكن نظرة حادة منها كانت تخرسني.

تغاضيت عن أفعالها حتى لا أخسرها أو أخسر سعادتي القلقة، حتى أمي لاحظت تغيري المبهر وإقبالي على الحياة فلم تعلق بغير كلمة واحدة:

- المهم إنك مبسوط

توالت الأيام كالعام السابق، ما بين علاقة أمي بالعميد الذي أصبح كالوليد المتشبث بصدر أمه لو تركته يبكي، وما بين علاقة سامي بسارة القائمة على مطاردة القط للفأر ثم الهروب إلى شقته حيث الحشيش والنساء، وأشرف المتفاني في خدمتنا وفي عينيه نظرة حزن نحو أمي.

أما أنا وعلياء فقد كانت علاقتنا طوال العام والعام الذي يليه غريبة معقدة،

أبثها حبي وشوقي فتمنحني ابتسامة أو حتى قبلة حانية لأظل أقفز بجوارها كالكلب الفرح، وظلت تتهرب مني لأعلم بعدها أنها كانت مع مهاب أو نادر فأغضب منها فكانت تتضايق مني هاتفة:

- إنت مش أبويا أو أخويا.. ماحدش فيهم بيعلق على سلوكي.. خليك أوبن مايند وبلاش الخنقة دي.. دول مجرد صحاب بنتسلي.

كنت أشعر بالألم وكان يأتيني هاجس بأن أمي على حق لكني كنت أدفنه في قسوة لكن أمي عندما كانت ترى الحزن في عيني، كنت تنظر إليّ في ألم وخلف الألم نظرة أنا محقة.

لكني كنت أكابر في استماتة، حتى لا أخسر استقراري النفسي القائم على دعامات تسمى علياء.

لكن عندما تزداد التسالي وتتحول لقبلات بينها وبين مهاب، فكنت أصاب بالجنون، لتصرخ بي في تأفف:

- هو فيه إيه.. أنت بتراقبني ولا إيه.. كده مش هينفع.

في تلك اللحظات يتحول غضبي إلى خوف، أشعر في تلك اللحظات بأنها ستتركني فأسرع بالاعتذار والندم.

علاقتي بها كانت معقدة للغاية، أحبها وأغار عليها لكني لا أستطيع إعلان غيرتي حتى لا أخسرها، نزفت كرامتي نقطة نقطة وأنا أراها مع غيري حتى لا أخسرها، لكني كنت أخسر نفسي، وتشوهات نفسية قديمة عادت تتكون داخلي، أحاسيس بالنقص والدونية عادت تسيطر على، لكني كنت

أكذب نفسي حتى لا أفقدها.

يكفيني أن أظل بجوارها.

***

انتهت امتحانات الثانوية العامة، وطبعًا كانت للواسطة دور في نجاح طلاب المدرسة، فكانت الامتحانات تسرب إلينا بالإجابة، لذا كان نجاحنا تحصيل حاصل

لذا بدأت أستعد لخطوتي القادمة، التي أصبحت بالنسبة لي أكثر أهمية من ذي قبل، هذه النقلة ستقربني من هدفي، علياء، الآن أصبحت أكثر إصرارًا وحماسًا على دخول الحربية.

في جلستنا المعتادة أنا وسامي في شقته، ووسط الحشيش والنساء قلت له ضاحكًا في جس نبض:

- طبعًا يا معلم.. هتقدم حربية.

نظر إلى للحظات في عدم تصديق، ثم انطلق ضاحكًا في مرح ساخر ثم قال لي في بساطة وهو يحتضن الفتاة شبه العارية:

- حربية إيه يا ابني.. أنا مش بتاع مرمطة.. أنا راجل هلاس.. هسيب النسوان لمين

سألته في دهشة:

- سيادة العميد موافق على كده!

هز رأسه في لا مبالاة قائلاً:

- طبعًا يا نجم.. بابا أصلاً غنى بس كان نفسه يبقى مهم في المجتمع علشان يحافظ على البيزنس ويكبره.. والحمدلله ماعدش يلزمنا حاجة مصالحنا متشابكة معاهم يعني وجود أبويا أو عدمه في السلطة مش هيفرق كتير.. ووجودي كظابط مالوش فايدة.. المهم البيزنس علشان كده هدخل تجارة إنجليش وهدير أعمالنا وأكمل هلس.

تفهمت موقفه، لكني كنت أتمنى أن يلتحق بالحربية ليأخذني معه، لذا قلت له في رجاء:

- بس أنا عاوز أدخل الحربية.. وعاوزك تساعدني.

هز كتفه في بساطة، قائلاً:

- هكلملك بابا.. وهيدخلك.. بس هتوحشني لياليك يا معلم وحشيشك ونسوانك.

ضحكنا، ولهونا.

ضحك سيادة العميد ونحن نتناول الغداء في شقتنا، ثم قال لأمي في لوم:

- مش لازم تفكريني كل شوية.. قلت لك قبل كده الموضوع منتهى.. أول ما نعلن عن التقديم هجيب الملف بنفسي وهتابع كل حاجة.. ما تقلقيش وكملي غدا

بادلتني أمي نظرة قلقة وهي تتذكر كلام أشرف بما أنه يفهم في تلك المواضيع، عندما قال لها في حزم، مشيرًا إلى في شبه اعتذار:

openkan.com

- إحنا عندنا نقطة ضعف خطيرة.. ابنك وهو صغير أتلعب فيه.. والكشف الطبي ما بيرحمش.. علشان كده سيادة العميد لازم يدخل بقوة.. فهماني.

وضعت أمي أمام العميد المزيد من الطعام، ثم نظرت إليّ لأغادر المائدة، فأسرعت بالنهوض وأنا أقول له معتذرًا:

- بعد إذنك.. ورايا في أوضتي شغلانة صغيرة.. خد راحتك.

لمعت عينه في سعادة، وتركته مع أمي وأخذت أتابع عبر فرجة الباب، فوجدته ينتقل إلى جوارها وضمها إليه هامسًا في شوق:

- وحشتيني..

بادلته قبلة حارة، ثم قالت له في دلال وهي تداعب أزرار بنطاله ممررة يدها على جسده ليشتعل جسده من الرغبة:

- وأنت كمان وحشني... بس ليا طلب صغير.

سألها وهو يقبل أناملها:

- أؤمر يا وحش.

قبلت عنقه والتهمت شحمة أذنه لينهار أمامها، ثم همست له في صوت ساحر:

- الواد وهو صغير كان عامل عملية البواسير.. وده ممكن يخليه غير لائق طبيًا.. فأنا كنت عاوزاك.

قاطعها وهو ينقض عليها ليفترسها:

obeikan.com

- واضح إنك مش عارفة أنا إيه بالظبط في الكلية الحربية والبلد كلها.. ابنك أصلاً نجح من غير حاجة.. فبلاش كلام في الموضوع ده.

صمت للحظات، ثم تابع في شهوة متقدة:

- وخلينا في المهم.

تركت له أمي جسدها وهي تبتسم في راحة.

***

سعادة غامرة اجتاحت كياني وأنا أتسلم مظروف التقديم للكلية الحربية من العميد في مكتبه في الكلية، كتبنا كل البيانات معًا، ثم أعطاه لعسكري ليضعه مع باقي الملفات، ثم قال لي في هدوء:

- هبعتلك عربية تاخدك في مواعيد الاختبارات.. وهيكون فيه ظابط معاك هيخلصلك كل حاجة.

صافحته في سعادة غامرة، وخرجت لأرى الشباب يتصارعون أمام منافذ بيع المظاريف في ضراوة وكل منهم يحلم بمستقبل واعد، فابتسمت في سخرية وأنا أدلف لسيارة أشرف الذي كان بانتظاري، نظر إلى في لهفة، فقلت لن في سعادة غامرة:

- كله تمام.

عدنا للمنزل لنجد أمي بانتظارنا، فأخبرتها بأن كل شيء يسير كما خططت هي له، فابتسمت لي ثم قالت في هدوء:

obeikan.com

- أدخل غير هدومك علشان نتغدى.

دلفت لغرفتي، لكن تناهى إلى حوار بينها وبين أشرف، كانت تقول له في مرارة:

- مش النهارده.. بعد ما يخلص الاختبارات ويدخل الكلية هنقعد معاه ونتكلم.

أجابها مترددًا:

- بس أنا خايف عليه.

أتاني صوتها الحاسم:

- يبقى زي ماقلتلك نخلص الأول من المهم وبعدين نتكلم.

عندما خرجت إليهم، وجدتها تخفي ظرفًا خلف ظهرها، ثم قالت لي وهي ذاهبة نحو المطبخ:

- هاحضر الأكل.

سألت أشرف والشك بينهش قلبي:

- فيه حاجة؟

ربت على كتفي بحنان ولم يرد، وأنا لم أكترث في حينها، لقد كنت ملهوفًا على رؤية علياء وإخبارها، لكن كالعادة ظللت أطارد شبحًا عبر الطرقات والنوادي ثم عدت للمنزل بحسرتي وشوقي.

طوال فترة الاختبارات، كانت تأتي سيارة خاصة من الكلية بها ضابط

obeikan.com

وعسكري يقودها، وكان الأول يقوم بإنهاء كل المتعلقات الخاصة بي، وعندما أتى الكشف الطبي كنت قلقًا نوعًا ما، وهواجس قديمة تنهش عقلي، لكني فوجئت بسيادة العميد شخصيًا حاضرًا الكشف الطبي، لم أخلع حتى ملابسي، فقط تم توقيع الكشف بلائق، ثم همس لي مباركًا:

- مبروك حضرة الظابط.. ماتنساش تقول لماما عاوز فتة على العشا.

أنهيت كل الاختبارات بنجاح باهر، وتبقى لي الفحوصات الأمنية والتحريات، وهذا الشيء خارج نطاق سلطات العميد.

لكن أشرف قال لي ببساطة:

- ماتقلقش.. ده ملعبي.. أنا موصي كل المخبرين التابعين للمباحث وكمان روحت لعمك وعملتله زيارة ودية علشان لو حد سأله عنك ومخبر الحارة ظبطه.. كله تمام.

بالفعل ظهرت النتيجة، وأصبحت طالبًا في الكلية الحربية.

obeikan.com

٨

سعادة غامرة وبكاء حار من أمي، وأخذت تقبلني في فرح هامسة في راحة:

- مؤخرًا حلمي أتحقق.

صافحني أشرف وقبل وجنتي قائلاً لي:

- مبروك يا باشا.. أنت من النهارده الباشا الكبير بتاعنا.

ابتسمت في فخر وانتشاء، مؤخرًا سأصبح مرموقًا في المجتمع، مؤخرًا ستطول قامتي قامة من هم فوقي، ستكون لي سلطة تجعلهم يتقربون مني وخطب ودي، الآن أنا في مستوى غير قابل للرفض.

لذا هندمت ملابسي وأنا أقول لأمي في ارتباك:

- ماما.. مشوار وراجع.

سألتني وتغير طفيف يظهر على وجهها:

- رايح فين.

تلعثمت وأنا أقول لها:

- هروح لعلياء علشان أفرحها.

همست لي في رجاء:

- بلاش.

تغير وجهي وأنا أقول لها في ضيق:

- ليه بس يا ماما.. إحنا اتفقنا وعم أشرف كان موجود إنك تسيبيني أختار.

لم ترد، وأشرف يقول لي في حنان مر:

- حصل.. وقلت لازم تسيبك تجرب.. بس المشكلة إنك خالفت توقعاتي.. كنت بحسبك هتشوف الصورة كاملة وتبعد وتعرف أن إحنا مهما وصلنا لسه بينا وبينهم ملايين السنين.. بس إنت فضلت تحت سيطرة الحب وكمان قفلت عينيك عن اللي بيحصل حواليك وكدبت نفسك علشان تفضل معاها.

لم أرد، وأنا مرتبك، فهمست أمي في مرارة:

- علياء مش ليك.. علياء عاوزة واحد من توبها.

قلت لها في رجاء وأنا غير مصدق لما يحدث:

- أنا دلوقتي ظابط وهي بتحبيني.

هزت رأسها في مرارة، ثم دلفت لحجرتها، وخرجت بعد قليل وفي يدها ظرف أصفر، ومدت يدها به قائلة في مرارة:

- أتكلم يا أشرف.

أسود وجه أشرف وهو يقول لي في ألم:

- خد الصور من أمك.. دي صور علياء مع مهاب في شقته وعربيته.. أنا

obeikan.com

حطتها تحت مراقبتي علشان أحميك علشان أمك عاوزة كده.

أخذت أقلب الصور وعمود من النار يخترق قلبي، ثم صرخت بهما في قسوة:

- ليه عملتم كده.. أنا لسه بحبها ومش فارق معايا.

ثم التفت إلى أمي في كره، صارخًا:

- هتفرق إيه عنك.. أنا زي ما رضيت بيكي.. أنا كمان راضي بيها.. وهخودها زي ما هيا.

سالت دموع أمي دون رد، واقترب مني أشرف في حنان واضعًا يده على كتفي هامسًا:

- أنا وأمك عملنا كده علشان بنحبك.. وكان لازم نفوقك قبل ما تلاقي نفسك متقيد في قيود مالهاش مفتاح.

دفعته في غلظة صارخًا:

- اطلع بره.. أنا بكرهك.

ثم استدرت نحو أمي صارخًا بها بعيون دموية:

- بكرهك إنتي كمان.

ثم غادرت المنزل مغلقًا الباب خلفي في عنف تاركًا أمي تبكي في مرارة.

***

مزقت الصور في عنف وأنا ألتقط ورقة صغيرة خط فيها عنوان، رميت

obeikan.com

الصور على الأرض وأنا أبكي، ثم ألقيت نظرة على العنوان.

جلست بانتظارها أمام تلك العمارة الشاهقة بعدما علمت من خدم القصر بأنها غير موجودة، مرت ساعة لأجدها تغادر العمارة مع مهاب، قفزت كالمجنون راكضًا نحوها وكدت أن أصرخ بها، لكن صوتي أبى الخروج.

ما كدت أصل إليها حتى وجدتها قد دلفت مع مهاب في سيارته التي انطلقت تاركة إياي أسقط على الأرض صارخًا في جنون:

- علياء.

ابتسمت لي أمام سور القصر، ثم سألتني عندما رأت الجنون في عيني:

- مالك.. تعبان؟

همست لها في ضراعة مجنونة:

- تعبان بيكي.. تعبان بسبب حبك.

رمقتني في سعادة، مما جعلني أتابع في لهفة:

- أنا أتقبلت في الكلية الحربية.

همست لي وهي تقبل وجنتي:

- مبروك.

شجعني رد فعلها، لأشعر بالسعادة، لذا قلت لها في حسم:

- عاوز أتجوزك.

بهت وجهها بغتة، ثم هتفت بي:

obeikan.com

- إنت مجنون.

سألتها في ارتباك:

- مجنون علشان بحبك!

هزت رأسها في قوة، هاتفة في حسم:

- عاوز تحبني حبني.. مش هامنعك بس تتجرأ وتطلبني للجواز.. إنت كده مجنون.. إزاي تتعدى حدودك.

كانت الدنيا تدور بي وأنا أقول لها في استماتة:

- بس إنتي شجعتيني على حبك.. وبوستيني.. يعني كنتي موافقة.. إيه اللي أتغير؟ مطت شفتها في سخرية، ثم قالت لي في برود:

- لو هتجوز كل واحد باسني.. يبقى هتجوز مليون واحد.. مش معنى إني مارفضتش حبك إني أتجوزك.. بص يا بابا أنا ممكن أقضي ليلة معاك لمزاجي.. لكن أتجوزك.. مستحيل.. كل واحد بيتجوز اللي يليق بيه واللي يناسبه اجتماعيًا وماديًا.

قلت لها في ضعف والعالم ينهار حولي:

- هبقى ظابط.

ضحكت في سخرية، قائلة:

- حتى الظباط درجات.. إحنا أصلاً أغنية وبابا ظابط للوجاهة ولتخليص أعمال.. إحنا محسوبين على أعلى طبقة في المجتمع.. طبقة الحكام.. أنا

obeikan.com

هتجوز واحد منهم.. وإنت نهايتك عقيد أو لوا معاش بس عمرك ما هتبقى واحد مننا.. إنت واللي زيك مخلوقين علشانا وماينفعش تبصوا لينا علشان أنتوا ناس وإحنا ناس تانية خالص ماتحلمش بأكتر من كده.

ثم تركتني مغادرة، والعالم يدور بي في سرعة، مددت يدي نحوها وهي تسير أمامي كملكة محطمة للأرواح، التفتت إليّ مبتسمة في سخرية، ثم عاودت السير، وكل شيء حولي يتفتت ويتحطم، وظلام دامس يحيط بي وأنا أصرخ:

- علياء.

***

سألت سامي من وسط زجاجات الخمر وسجائر الحشيش التي كنت ألتهمها التهامًا لأول مرة في حياتي:

- أنا بالنسبة لك إيه؟

أجابني مازحًا كعادته:

- صاحبي بس مش ناوي أنام معاك.

نفس حشيش عميق، ثم سألته في ألم:

- مش قصدي أنا.. قصدي باقي الناس بالنسبة لكم إيه؟

أجابني في عدم فهم:

- مش فاهم..

obeikan.com

ربت على كتفه، ثم جذبت الفتاة إلى الغرفة، وهو يقول لي مازحًا:

- الله يسهله.

دفعتها في قسوة فوق الفراش، وعندما هممت النوم فوقها وأنا أحاول تخيلها علياء لأنتقم منها وأكسر لها أنفها، وأنني لست أدنى منها، لكني لفزعي سقطت على الأرض زاحفًا للخلف وأنا أرى أمي أمامي، فأخذت أصرخ في مرارة وعنف:

- إنتي إيه ورايا في كل حتة.

ثم غادرت الشقة راكضًا، وأخذت بسبب التوهان والسكر أتخبط في الجدران والسيارات في الشوارع، حتى وصلت للمنزل لتفتح لي أمي الباب.

أخذت الصور أمام عيني تندمج وتنفصل في سرعة، بين صورة أمي وصورة علياء، أتاني صوت بعيد:

- مالك؟

لم أرد وأنا أرى أمامي علياء ثم أمي وهكذا في تبادل سريع ثم علياء!

ثم في جنون انقضضت عليها ممزقًا لها ملابسها، صرخت بي في عدم تصديق وهي تلملم ثيابها، لكني لم أتركها وأنا أقول لها في حقد طاغٍ:

- إنتي ليا.

دفعتني في عنف، صارخة:

- أنا أمك يا حيوان!

قلت لها في سخرية وأنا أجذبها نحوي في عنف:

- ما كله حرام.. جت عليا أنا.

لا أعلم لمن كنت أوجه كلماتي لها أم لأمي، لكنها دفعتني في رعب صارخة:

- أنا أمك يا نجس.. فوق... حتى لو كنت شرموطة بس مش مع ابني.. فوق يا كلب.

ثم لطمتني في قوة على وجهي، لأجد علياء تختفي من أمامي وأرى أمي ممزقة الثياب، مددت يدي نحوها هامسًا بها:

- أمي.

تلقفتني بين ذراعيها، ثم فقدت الوعي.

***

عدت للدنيا لأجد نفسي في فراش وثير وأجهزة طبية تحيط بي وأمي نائمة على مقعد بجوار الفراش، كنت لا أزال في حالة عدم الاتزان، ثم ببطء أخذت ذكريات حديثة تتسلل إلى عقلي، علياء ورفضها لي، أمي ومحاولتي اغتصابها، شهقت في هلع وأنا أرمق أمي في ذعر، استيقظت أمي - على شهقتي- مفزوعة، فأسرعت نحوي هامسة في حب قلق:

- حبيبي.. إنت صحيت.

تراجعت في الفراش بعيدًا عن لمساتها، وأنا أقول لها مرعوبًا:

- ابعدي عني..

obeikan.com

حاولت لمسي، لكني في جنون ظللت أصرخ بها:

- ابعدي عني.. ابعدي عني.

حالة هياج سيطرت عليّ، ليدلف طبيب وممرضة، فأسرع بالإمساك بي صارخًا بالممرضة:

- حقنة مهدئة بسرعة.. وهاتي ياسر يمسكه.

ظللت في حالة الهياج، وأمي تبكي في مرارة، عادت الممرضة ومعها شخص آخر فأمسكا بي في قوة، وفي صعوبة بالغة شقت الحقنة جلدي، لحظات وبدأ الليل يهبط على عقلي، ولأجد نفسي أهمس في ضعف:

- علياء... أمي.

بغتة أستيقظت لأجد أشرف جالسًا بجوار الفراش يتهامس مع أمي، ما كاد يراني مستيقظًا حتى قال لي مبتسمًا:

- سلامتك يا وحش.

لم أرد عليه وأنا أرمقه في حقد بالغ، وصور عديدة له تجتاحني منذ أن حول أمي لمومس وحتى تدميره لحبي، جعلته نظراتي الحانقة يتصبب عرقًا في ارتباك لكنه تابع مازحًا:

- على العموم أنا مسامحك على طردك ليا.

أشرت للباب وحاولت أن أتحدث لأطرده، لكن صوتي لم يخرج من فمي، شيء ما يمنع الكلمات من الخروج من حلقي، اتسعت عيناي في ذعر وأنا أمرر يدي على حلقي، فتحت فمي وأغلقته مرات في هلع، نظرت إليهما

obeikan.com

مستنجدًا الكلمات تخنقني، الذعر انتقل لأمي الصارخة بي:

- مالك.. فيه إيه.. اتكلم؟!

كنت أشير إلى حلقي مذعورًا، فأخذت أمي تصرخ بي:

- اتكلم.. اتكلم.

لم أرد عليها وأنا أصرخ بلا صوت.

لم ينفع العلاج النفسي بالمستشفى في إعادة صوتي إليّ، كان الطبيب يقول لأمي مطمئنًا:

- ده عرض هستيري مؤقت وهيخف مع الوقت وهيرجع يتكلم زي الأول.

لكن أمي كانت تنظر إليّ في حسرة، ثم تقول للطبيب في رجاء:

- لازم يخف بسرعة.. مستقبله ممكن يضيع.. الكليات هتفتح وهو لازم يسلم نفسه للكلية الحربية.

لكنه أجابها في أسف مشيرًا عليّ:

- مش بإدينا.. بإديه هو.

لكني لم أعد أهتم، لا شيء في حياتي أصبح له قيمة بعدما فقدت علياء، ليتني فقدتها رغمًا عني، لكنها هي من طعنتني في روحي، هي من أعادت إليّ تشوهات نفسي بسخريتها من وضعي في سلم الحياة، هي من جعلتني أشعر بدونيتي، صدمتي كانت شديدة ومرة لأنها منها هي.

أيام تمر وموعد الكلية يقترب، وأنا لا أبالي، أجلس في غرفتي منعزلاً

obeikan.com

صامتًا، تأتي أمي إليّ بالطعام فلا أمسه إلا لقيمات بسيطة، ثم أتذكرها فأبتلع اللقمة بدموعي، ثم أنام سارحًا في ذكريات أغلبها حزين.

أتاني سامي وجلس معي وحاول إخراجي من انعزالي بالنكات والضحك، لكنه فشل فغادرني محبطًا، وأنا أمد يدي إلى ظهره محاولاً الهمس من وسط دموعي متسائلاً عنها، ألم تعلم بما بي؟، ألم يخبرها قلبها؟ ألم تشفق على مسكينها؟ لكن لساني لم يطاوعني، فرحل تاركًا أسئلتي تخنق روحي وصدري.

ظلت تؤلمني في أحلامي، حاولت هناك التخلص منها لكنها كانت لرعبي تتحول لأمي، ثم تحاول مضاجعتي ضاحكة كالساحرة، لكني كنت أنهض مفزوعًا من النوم، وأظل بعدها متيقظًا باكيًا، حاولت كثيرًا كسر الطوق من حول عنقي، لكن كلما حاولت ضاق حول رقبتي ليخنقني وليأكد لي أنني مازلت عبدًا لها.

عبد جلدته بسوط الطبقية والشعور عندها بالفوقية وعندي بالدونية، جلدتني بسوط السخرية لأستيقظ من حلمي في البقاء معها لأسقط في كابوس فقدانها.

مازلت رغم كل العذاب أحبها، رغم يأسي مازلت أعشقها، وهذا هو السبب في بقائي في حالة الضعف وعدم شفائي حتى الآن.

بغتة وجدت نارًا تلتهم كياني، أريد أن أرى جلادي، أشاهده ليطفئ برؤيته نار قلبي، أتوسل إليه ليعيدني إلى العبودية.

لذا ارتديت ملابسي، وخرجت من غرفتي لأجد أمي جالسة حزينة وأشرف

يواسيها، لم أعيرهما انتباهًا، لكنها أمسكت بي في ذعر هامسة:

- رايح فين إنت تعبان؟!

تملصت منها، وأنا أرمقها في لوعة، فتابعت شاهقة في مرارة وحنق:

- رايح لها.. بعد كل اللي عملته رايح لها.. طب إزاي... المرة دي هتيجي لي ميت.

ثم انفجرت باكية، لكن أشرف ربت على كتفها ثم قال لها في هدوء وهو يشير إليّ:

- سيبيه.. هو في حالة ربنا وحده اللي عالم بيها.

نظرت أمي إليه معنفة، لكنه تابع في حزم:

- ما تخافيش أنا معاه.

حاولت أنا الاعتراض في ضيق، لكنه حسم الأمر قائلاً:

- هتروح إزاي مافيش تاكسي هايفهمك.. أنا معاك.

على سور القصر جلست في مكاني المعتاد منتظرًا الملكة علياء تطل عليّ من عليائها، وجلس أشرف في سيارته بعيدًا يراقبني، لحظات وتوقفت سيارة وبرز منها مهاب الذي كان يرمق ساعته في انتظار، دقائق وهلت علياء عابرة بوابة القصر في خطوات واثقة، جعلتني أقفز من مكاني في لهفة وشوق، لكنها لم تحس بوجودي وهي تقبل مهاب، حاولت النداء عليها لكن صوتي لم ينبعث من موته، همت علياء بالدخول لسيارة مهاب،

obeikan.com

فأسرعت أنا نحوها محاولاً منعها وطلب الرحمة والعودة إلى مملكتها، لكني فوجئت بأشرف يمنعني ممسكًا بي في قوة، حاولت الخلاص منه في غضب هادر، لكنه لم يفلتني وأنا أرى السيارة تغادر بعلياء، ومعها تغادرني الحياة، صفعته في قسوة، لكنه لم يفلتني إلا والسيارة مبتعدة هاتفًا بى في قسوة:

- ما ينفعش تدني نفسك أكتر من كده.

لم أهتم بالرد عليه وأنا أركض خلف السيارة لعدة أمتار حتى اختفت عن بصري، فسقطت على ركبتي باكيًا محاولاً الهمس بحلق ميت، علياء!

كطفل متبول لا إراديًا سحبني أشرف من يدي إلى سيارته، وأنقدت له في سلاسة ولا مبالاة ودموعي تنزف، انطلق بالسيارة وهو يقول لي في مرارة:

- حرام عليك نفسك وأمك اللي دموعها ما نشفتش علشانك.. حرام عليك مستقبلك اللي أمك ضحت علشان تعملهولك.. سامحني أنا طول عمري جنبك وبساعدك فلازم أقولك اللي هاقوله لك دلوقتي.

صمت للحظات، ثم تابع في هدوء مرير:

- في العالم بتاعنا.. إحنا مش أكتر من خدم للي فوق.. رغم جبروتي إلا إن ليا حد ماقدرش أتعداه وإلا أتفرمت.. عارف يوم ماخدعنا سامي.. عارف لو سامي كان فهم اللعبة كان زمنا أنا وأنت روحنا ورا الشمس، بس أنا اعتمدت على الخوف.. أنا وأنت صغيرين الناس دي مش شيفانا.. واحد زيي كل مهمته إنجاز المهام القذرة بدلهم علشان تفضل إيديهم نضيفة.. صدقني أنا بجبروتي ده ماشي جنب الحيط.. كل مواطن ليه حيطة يمشي جنبها وبتختلف حسب قدرة كل واحد.

صمت للحظات، ثم تابع في قسوة:

- علشان كده ما تحاولش تتعدى السور الفاصل بينك وبينهم.. هما ليهم العالم بتاعهم وإحنا لينا العالم بتاعنا.. كل اللي عليك عمله إنك تحاول تحسن من مستواك علشان تمشي جنب حيطة أقوى.. إحنا في عالم عنصري فحاول إنك تبقى في مكان يحميك من العنصرية.. حاول تحقق حلم أمك في إنك تبقى حاجة

لم أرد عليه، وغصة في حلقي، وكلامه يعيد إليّ كل الذكريات البشعة في حياتي

رأيتني في غرفة مظلمة مقيدًا في السقف ورأسي للأسفل، وجلاد يمزق ظهري بسوطه، لكني لا أستطيع الصراخ ألمًا، لساني لا يطاوعني، زاد الجلد والدماء تسيل متساقطة على وجهي ثم على الأرض، وصوت ضحكة شامتة يرن في أذني، ثم توقف الجلاد أمامي ونزع لثامًا كان يغطي وجهه هامسًا في تشفٍ وقح:

- عبد لعين..

لم تجرحني الكلمة، بل الوجه والصوت، حاولت الهمس في رجاء باسمها، لكن لساني أبى، شعرت باختناق وأن كل الحروف والكلمات تجمعت في حلقي لخنقي، حاولت الشهيق بلا فائدة، شعرت بالموت وضحكة تشفٍ تزلزل كياني، وفجأة انطلقت صرختي.

تسللت يدها إلى شعري لأقفز من كوابيسي مفزوعًا، ما زالت لمساتها تخيفني وخاصة بعد الذي فعلته بها، فابتعدت هي في حزن، ثم همست لي

openkan.com

في حنان:

- كنت بتصرخ ليه يا حبيبي.

رددت عليها بنظرة منكسرة، فجلست هي على طرف الفراش متابعة في مرارة:

- لسه بتفكر فيها بعد اللي عملته فيك.. يا ابني خلاص التفت لمستقبلك وفكر في نفسك.. بلاش تضيع مجهود السنين علشان واحدة ما تستهلش.

زومت في غضب، رافضًا حديثها، لكنها تابعت في ألم أشد:

- إنت بتتعذب علشانها.. طيب هي حاسة بعذابك.. هي أصلاً فكراك.. هي موقفة حياتها زي ما إنت عامل.. أبدًا هي مكملة حياتها كأنك مش موجود.. كأنها عمرها ما عرفتك.. إنت بالنسبة لها ولا حاجة.

أخذ صدري يصعد ويهبط في سرعة، ودموعي تنساب في مرارة، وكلماتها تنهش قلبي في ضراوة، كنت أشير إليها لتصمت، لكنها تابعت في قسوة:

- الحياة مابتقفش على حد.. إنت الوحيد اللي هيخسر كل حاجة وهي هتعيش حياتها ومش هتحس بأي ندم ناحيتك.. ضعفك مش حل.. استسلامك مش هيرجعهالك.. إنت ممكن ترجعها بس مش بالطريقة دي.. حقق نفسك واجبرها ولو بعد مليون سنة إنها ترجعلك.

كانت كلماتها تحرك شيئًا بداخلي، شيء يخبرني بأنها محقة، هناك أشياء مدفونة داخلي تحاول التمرد والخروج، أشياء كنت أكبلها من أجل الحب، ترميمات روحي بسبب الحب عادت تتساقط من جديد لتبرز التشوهات

obeikan.com

والقبح في روحي، لماذا البقاء كبهيمة تدور في ساقيتها؟ لماذا لا أتمرد عليها وعلى الجميع؟ لماذا لا أحوّل يأسي إلى قوة دافعة؟

نظرت إلى أمي وما زال الضعف ينهشني، فتابعت والأمل يحدوها:

- لازم تبقى قوي علشان الكل يهابك ويحترمك.. لازم تجبر الكل على احترامك... هي كمان اثبتلها إنها مش فارقة معاك.. أوصل لفوق لغاية ما تبقى أعلى منها وبدل ما كانت بتستعبدك.. استعبدها إنت.. ركعها أنت.. أنتقم بدل ما تستسلم.

كنت أرتجف وجسدي يهتز بقوة وصراع مميت داخلي، كل تشوهات روحي تحاول الخروج للنور معلنة عن مولدها الجديد، مولد شيطاني الخاص، جزء مني كان يقاوم وهو مستعذب الألم والاستسلام، لكن أمي تابعت في قوة محطمة ما تبقى من ضعفي:

- أنا مش عاوزة أفكرك بالعذاب اللي شفناه في حياتنا.. أنا وإنت حفرنا في الصخر لغاية ما وصلنا لفوق.. فبلاش ترجعنا تاني لتحت.. بلاش تخلينا ننداس بالجزم من تاني.. الفقرا مالهومش تمن.. عبيد بيحب الحياة ولو حولين رقابيهم حبال العبودية.. إنت لازم تشيل الحبل من حوالين رقبتك وتمسك بحبالهم بين إيديك.. لازم تبقى سيد وقائد.

كلماتها كانت تحطم كل نقاء باقٍ داخلي، كانت المشاعر السلبية تتصاعد لتخنق أي مشاعر أخرى، بدأت أستعيد خبرات حياتي السابقة قبل علياء، خبرات كلها مرارة وذل، أقشعر جسدي وأنا أتذكر قسوة البشر على أنا وأمي، الوحيدة التي ضحت بكل شيء من أجلي ولم تطالبني بأي ثمن، حتى

عندما أخطأت في حقها لم تتركني بل ظلت تساندني، أليس من حقها عليّ تحقيق حلمها؟

نهضت أمي من فوق طرف الفراش وقالت لي في حزم حنون:

- آخر حاجة هقولهالك.. وهتكون آخر مرة أكلمك فيها.. القرار قرارك يا إما تستسلم وتخسر كل حاجة.. يا إما تفوق من غيبوبتك وتحقق حلمك أو على الأقل تثبت لها إنك أفضل منها وإنها ولا حاجة... على العموم ماكنش ينفع إنك تطلب منها تنزلك... لا... إنت لازم تجبرها إنها اللي تطلعلك.. إنت لازم تبقى فوقها مش تحتها.. إنت اللي تركب مش هي اللي تركبك وتسوقك.. خد القيادة وهتركعها.

ثم غادرت الحجرة.

(أمي قوتي وضعفي).

***

حواسي كلها مرتبكة، أسمع أصواتًا لم يسمعها بشر من قبل، أتحدث مع كيانات أسطورية لم أرها من قبل، أرى كل من عرفتهم في حياتي لكن بصور لم أرها من قبل، لا شيء ثابتًا الكل متغير، العالم من حولي أراه كما لم أره من قبل، كل الموجودات أراها كأنني كنت أعمى وقد أبصرت أو كأنني وافد جديد بمشاعر جديدة أتى للعالم لأول مرة.

لقطات مسبقة من حياة ربما عشتها أو ربما ليست بحياتي كانت تمتزج ببعضها البعض في خليط سميك القوام لزج لتمر عبر مصفاة روحي،

لا شيء يمر، الخليط يسد مسام روحي، روحي تصاب بالعتمة، الظلام يسيطر طاردًا أي مشاعر نحو أي كائن.

لقطات من الطمع والجبن والذل والتكبر، هذه هي أبرز مشاهد حياتي، طمع عمي وجبن البشر أمام غشم السلطة جعل أمي "مومس"، جعلها تفقد الإيمان بالشرف والكرامة، جعلها تدس لي السم في مشاعري، جعلها تخسر كل شيء مقابل أن تبعدني عن قاع الفقر إلى جزيرة السلطة.

الفقراء عبيد للمأكل والمشرب، بهائم مستعبدة من السلطة بجبروتها وأغنيائها، الفقراء جبناء يتصنعون العمى والصمم حتى لا يفقدوا نعمة العبودية، يتنازلون عن حقوقهم في الحرية والكرامة مقابل الحياة ولو في ذل، باعوا أمي من أجل البقاء، اتهموها بالفسق ليس عن تقوى بل ليشعر كل منهم في داخله بأنه شريف وقريب من الجنة مقارنة بتلك العاهرة وهو لا يدرك أو يدرك ويتعامى أنه السبب في فقدها إيمانها بالشرف.

أمي كانت تمتلك الوضوح والرؤيا، لم تنافق أو تدعي إيمانًا زائفًا، باعت نفسها مقابل الصعود لأعلى، لكنهم لم يستطيعوا بيع أنفسهم أو شراء الإيمان فسقطوا تحت الأقدام.

عايروني بأمي لفقري، لكن لو كنت أمتلك المال والسلطة لأصبحت أمي مثال الشرف، هكذا هم العبيد لا يجيدون غير الخوف والنفاق.

ثم أتت من علمتني درسي الأخير، طالما لا أمتلك المال أو السلطة، فليس من حقي النظر للشمس حتى لا أفقد بصري، هم الأسياد ونحن العبيد، الحياة خلقت لهم ونحن خلقنا من أجل خدمتهم وراحتهم، بل وواجب علينا

شكرهم لتنازلهم وتواضعهم معنا فتركونا نخدمهم.

سور فاصل بين عالمنا وعالمهم، هم هناك فوق جبل الأوليمب يحددون لنا أقدارنا ويمرغون لنا وجوهنا في طين الفقر منتظرين منا - في أسفل الجبل- الرضا بالذل والإخلاص في عبادتهم، فعبدناهم في خوف حق العبادة.

علياء ربة الجمال علمتني الدرس، ليس من حق العبيد التطلع لأسيادهم، علمتني أنه ليس هناك حب، ليس من حقي الجلوس بجوارها على عرش الأوليمب، العرش لإله وليس لعبد، فتحول التعبد في محرابها لإلحاد بوجودها.

الاستسلام واليأس والتكبر والذل طعنوا الحب فهوى ميتًا، تاركًا خلفه الحقد عليها وعلى إلهة الأوليمب وعلى العبيد الفرحين بقيود العبودية.

حقد كان يترعرع في بطء خلال فترة صمتي، لينمو مثمرًا ثمرة وحيدة يانعة تخطف الأبصار.

لم أعد أريد الوصول لأعلى من أجل السلطة أو الابتعاد عن شبح الجوع، لم أعد أريد الوصول لتحقيق حلم أمي، بل لتحقيق حلمها الحقيقي الذي كانت تغذيه بالأفعال وليس الكلام، الهدف الحقيقي الذي كانت تجهزني من أجله، هدف حياتها والآن أصبح هدف حياتي الوحيد.

صوت هامس اقتحم عقلي بغتة، صوت لا مثيل له، لم أسمع مثله من قبل، صوت مس جراحي، مس روحي، صوت قادم من اللاوعي، من ظلمات العقل، صوت يقول لي مباركًا ومشجعًا إياي على ما انتويت عمله:

(أنت الأمل)

من يومها، لم يتركني هذا الصوت طوال حياتي، صوت من أرسلني لأعيد للعالم ما فقده، صوت من السماء اختارني لأنفذ المشيئة، لذا خرجت من محنتي وضعفي مكتسبًا دعم السماء، هذا الصوت كان في البداية يأتيني على فترات متباعدة، ربما مرت شهور ولا أسمعه، أحيانًا كنت أحتاجه فكان يخذلني ولا يأتي، وأحيانًا يأتي في أوقات لا أحتاج لوجوده بها، كان يأتني حسب مزاجه هو، أحيانًا كنت أبكي وأتضرع ليأتي خوفًا من أن يكون قد تخلى عني، ثم أتى وقت طويل اختفى فيه الصوت تمامًا مع انشغالي في دوامة الحياة، ثم بغتة ومع تقدم العمر عاد فجأة وأصبح لا يفارقني ليل نهار.

نهضت من فوق الفراش، وكل شيء داخلي قد تبدل تمامًا وللأبد.

(نهض إنسان جديد مشوه القلب والروح، فتح الباب وجه جديد تشتعل في عينيه النيران، فتح الباب في عنف لتقفز من فراشها مذعورة، ترمق عينيه الدمويتين في هلع، يبتسم لها قائلاً:

- أمي.

وبين كفي الثمرة الوحيدة

الانتقام.

openkan.com

٩

تدريبات شاقة، ومحاضرات أكاديمية غير شيقة، لكني لم أكن أبالي بتلك التفاهات، خطوت خطوات في طريق اللاعودة وسأكمله حتى أصل لنهايته.

ثلاثة أشياء كانت تعطيني الطاقة للبقاء والاستمرار حيًا، الموهبة الفطرية – التي نمت على يد أمي وأشرف – في التخطيط وتجميع المعلومات، فكنت أجمع المعلومات في الكلية عن كل شخص في محيطي أو كل ضابط مدرس، ثم إن قربي من سيادة العميد جعلني قريبًا من دائرة التدريس في الكلية، فأصبحت صديقًا شخصيًا لمدير الكلية الحربية، مما دفعني لأصبح عينًا له بين الطلبة، هناك من الطلبة من تم رفته من الكلية بتقرير مني.. رغم ذالك كانت علاقتي بباقي الزملاء وخاصة أبناء أصحاب الرتب والمال فوق الممتازة، فأنا كنت خدومًا جدًا معهم كما كنت أفعل مع سامي، كنت أجلب لهم الحشيش في السر، وفي الإجازات كنت آخذهم لشقة سامي – الذي تصادق عليهم – وأجلب لهم المتعة، حتى أصبحت أسيطر عليهم.

أما مدير الكلية الحربية، فكنت أتبرع بوقتي لخدمته، في الكلية أو حتى في منزله، فتعرفت على أسرته الكريمة، وأقمت معهم علاقات صداقة راقية من أجل المستقبل الذي أخطط له.

الشيء الثاني المثابرة والاجتهاد، فكنت مجدًا في التدريبات مما غيّر الكثير في تكويني الجسماني، ومجتهدًا في الدراسة الأكاديمية مما جعلني

من الطلاب المسلط عليهم الضوء في الكلية.

أما الشيء الثالث وهو المهم بالنسبة لي، فكان الحافز والدافع لأستمر في التخطيط لهدفي الوحيد، كنت ليلاً أجلس ومعي كراسة صغيرة أكتب بها بضعة أسماء ثم أشطبها وفي اليوم التالي أكتبها من جديد، لا أريد لناري أن تخفت أو تنطفئ بل أن تظل ملتهبة حارقة.

وعلى رأس القائمة الملكة، التي ذهبت إليها في أول إجازة حتى قبل أن أذهب لأمي واعتذرت لها عن سخافاتي ورجوتها لتعفو عن عبدها، فعفت عني كملكة، لذا كل إجازة كنت أذهب إليها في الفيللا لأجلس معها كأن شيئًا لم يحدث، وكنت أخرج معها بالبدلة الميري لتستعرض بي أمام صديقاتها، تحدثنا عن الصداقة وأن ما فات مات، تجاوزت معها تجاوزات بريئة تقبلتها ببساطة، كالزمن الغابر كنت أجلس أمام حمام السباحة أراقبها في ألم، والنار داخلي تتأجج، عندما كان يأتي مهاب ليأخذها ليخرجا كانت النار في داخلي تحرق أية مشاعر تحاول البزوغ ليبقى هدفي خاليًا من الشوائب.

علياء كانت الحافز الذي يدفعني للاستمرار، كان لابد لي في كل إجازة من الذهاب إليها لأشحن روحي بالنار التي تدفعني كالقطار البخاري لمحطة الوصول

والدافع الثاني كان الصوت الملازم لي، الصوت النابع من اللامكان، اللازمان، الصوت الذي كلما رآني أضعف صفعني لأشد من عزمي، هامسًا لي:

(أنت الأمل)

ثم كنت أترك علياء حافزي الحقيقي وأذهب مع سامي وأصحابي أو أصحابه إلى الشقة لنعربد كما يحلو لنا، لكني لم أعد لشرب الخمر أو الحشيش، لم أنس أنني كنت سأهوى في الجحيم بسببهما، لابد أن يظل عقلي متيقظًا لأبقى مسيطرًا على الجميع، فقط كنت ألف التبغ في سجائر كعادتي وأمارس الجنس في غل وصورتها ذليلة تجوب خيالي.

أما علاقتي بأمي فكانت متذبذبة ما بين ضعفي أمامها وأمام تضحيتها - ولن أنسى دموعها وهي تراني لأول مرة بزي الكلية الحربية - ورفضي لها ولحياتي معها خاصة بسبب الحادثة المشؤومة، وكذلك فأنا بعدما أتخرج سأكون في مكانة حساسة كما أخطط، مكانة لا يليق بها محيط أمي.

لذا بقيت معها على مضض، وأنا مبيت النية على الخلاص من قيودها، أمي أقوى سلسلة تحيط بعنقي، لو كسرتها وتحررت من سلطانها، سأصبح قادرًا على أي شيء، لو تغلبت على ضعفي نحوها، سأصبح ماردًا لا يقهر.

(أمي قوتي وضعفي).

***

مرت شهور ثم ثلاث سنوات وأتت السنة النهائية، وحياتي روتينية بحتة ما بين الدراسة والتدريب في الكلية التي صقلت مواهبي وغذتني بالمفاهيم الجديدة بأنني كضابط جيش فوق البشر، وأنني بشري متفرد بذاته وصفاته، الجيش هو الوطن، هو كل شيء وما دونه لا شيء، غذونا بالغرور والتكبر على المدنين مهما كانت دراجتهم في الحياة، مهما كنت وزيرًا أو طبيبًا أو مهندسًا أنت لا تساوي ضابط جيش.

إمداد جديد من المشاعر الطبقية استفزت في داخلي المشاعر القديمة من النظرة الدونية والطبقية من الأغنياء للفقراء، العنصرية في المجتمع ليست حكرًا على أحد، الغني عنصري نحو الفقير، المتسلط عنصري نحو الضعيف، ضابط الشرطة عنصري نحو المواطنين، ضابط الجيش عنصري على الجميع.

كل هذا تراكم داخلي وجعلني أصمم على تنفيذ هدف حياتي الوحيد، الانتقام لنفسي المشوهة، لذا كانت الأسماء تزداد في الكراسة.

أسرفت في التعرف على زملائي الضباط، وبدأت في فرزهم لتحديد المفيد منهم لخططي، كونت مجموعة رائعة من الأصدقاء، هؤلاء كنت آخذهم معي لشقة سامي لنلهو، هؤلاء كنت أغذيهم بالحشيش والولاء لي أنا، هؤلاء سندي في المستقبل، لذا كنت أكتب عنهم تقارير ممتازة لإدارة الكلية.

أما الإجازات فكنت أقضيها مع سامي غير المبالي بدراسته الجامعية، لكنه كان ينجح في الاختبارات بأساليبه المعتادة، وظلت سارة ملتصقة به كالوحمة لا يستطيع نزعها.

أو كنت أقضي الوقت مع المحفز لمشاعري النارية، وكانت أمتع لحظات حياتي عندما أشاهدها مع مهاب، كانت روحي المظلمة تنتعش فتزداد العتمة.

وعندما كنت أعود للبيت، كنت أشعر بالبرد، لم أعد أحب هذا المنزل، أصبح هناك حد فاصل بيني وبين أمي، لم تعد علاقتنا كسابق عهدها منذ

الحادث الأليم، هناك رسميات في التعامل، نظرات مرتبكة متبادلة، لكن لا أحد منا أعترف بأن العلاقة تنهار، لم تعد أمي تسيطر عليّ كالسابق، ما تعلمته في الكلية غيّر الكثير داخلي، جعلني أتعالى حتى على أمي، جعلني أفك قيودها من حول عنقي، لكن رغم كل هذا كانت تأتي عليّ لحظات وأجدني أقع تحت سيطرتها لكنها لحظات نادرة.

اقتربت سنوات الكلية على الانتهاء، لأجدني قد تغيرت وأصبحت أكثر حزمًا وصرامة، وأكثر غرورًا وتعاليًا لذا وجدتني أنظر لسيادة العميد الذي أصبح لواء نظرة عادية ليس كالسابق، الآن هو مثلي، كلانا ضابط، لذا وجدتني أقول لأمي في صرامة :

- لازم تقطعي علاقتك بسيادة اللواء.

كانت تنظر إليّ في هدوء، ثم قالت لي في بساطة:

- ده منايا يا حبيبي.. بس إزاي... ماتنساش إنه هو اللي فاتح البيت وكمان هقوله إزاي؟

قلت لها في صلف:

- أنا مركزي ماعدش يسمح باللي بيحصل ده.. أنا دلوقتي هبقى تحت الميكروسكوب.. كل حركاتي مرصودة.. لو حد عرف بعلاقتك باللوا حياتي هتدمر.. أما من ناحية الفلوس فأنا عارف إنك محوشة اللي يكفيكي طول حياتك وكلها شهور وهاخد مرتب.

أجابتني في استهتار:

- خلاص يا سبع قوله إنت.

غار الدم من وجهي لكني لم أرد، والصوت الهامس يقول لي في روية:

(تجلد.. وكل شيء سيأتي في موعده).

تلك المرأة ما زالت قادرة، لكنها لا تعلم من أنا الآن، لم ترني وأنا أتدرب في الكلية، لم تشاهد مواهبي وهي تتبلور لأصبح بارعًا في التخطيط وجمع المعلومات، لذا ردي عليها سيكون عمليًا.

زارني سامي لأول مرة في الكلية، قابلته أنا وزملائي بالترحاب، جلسنا في المقصف، وطلبت له مشروبًا، لكنه همس لي في سخرية:

- مافيش بيرة ساقعة!

ضحكت للحظات، ثم نظرت لأحد الزملاء ليغيب قليلاً ثم يعود ومعه زجاجة بيرة مثلجة، دفعتها لكف سامي الذي نظر إليّ في دهشة، فقلت له في حزم ساخر:

- لو عاوز نسوان جوه الكلية.. هجيبلك... مافيش حاجة صعبة عليا.

تجرع الزجاجة في نهم، ثم قال لي في بساطة:

- أنا جيت علشان أعزمك على خطوبتي

ابتسمت له في سعادة، ثم احتضنته قائلاً في فرح:

- مبروك..

صمت للحظات عندما لم أجد أي تأثر على وجهه، ثم قلت له في شك:

obeikan.com

- إنت مش فرحان ليه.. مين العروسة.. أوعى تكون..

ابتسم في سخرية، ثم قال في بساطة:

- توأمي الملتصق..

انفجرت ضاحكًا، وأنا أقول:

- سارة.

هتف بي في غيظ:

- مش عاوز ضحك.. أنا حاولت أهرب منها.. بس هي كانت عاملة زي القدر مافيش منه مهرب.

صمت للحظات، ثم تابع في هدوء:

- بس حفلة الخطوبة مش هتكون ليا أنا وسارة لوحدنا.

نظرت إليه في تساؤل، وأنا متوقع الرد، فتابع في بساطة:

- علياء هتتخطب لمهاب.

رغم انتظاري تلك الخطوة طوال السنوات السابقة، ورغم معرفتي بالرد، لكن رصاصة من الثلج اخترقت صدري لأشعر ببرودة شديدة جعلتني أرتجف كالمريض، لكني تحاملت قائلاً له في ابتسامة باهتة:

- مبروك.

صرخات متتالية منطلقة من فمي الغاضب في ذلك المكان المعزول تحت كوبري على شاطئ النيل، سواد بشع يغلف عيني، نار سوداء من شدة الغل

obeikan.com

كانت تأكل قلبي:

- علياء... علياء... علياء.

أتاني صوت متهكم لشخص مار بالمصادفة:

- مالك يا دفعة.. هي طرقعتلك ولا إيه؟

التفت إليه في قسوة وغل، وصوتي الروحي الملازم لي يقول في بساطة:

(نفث عن غضبك... الأمال الكبرى تحتاج تضحيات صغيرة).

وبدون حرف واحد أخرجت معاناتي الداخلية عليه، نفذت عليه كل ما تعلمته في الكلية، خرقة بالية مشوهة الوجه كانت تستعطفني:

- ارحمني... أنا غلطان لك... أبوس إيدك.

لكني في شراسة ووعي ينسحب لعالم الماضي:

- إنت ما تستحقش الرحمة.. إنت ما رحمتش أمي واغتصبتها.. ما وقفتش جانبها وأشرف بيحولها لمومس.. إنت عمرك ما قلت لا لظلم.. عاوزني أرحمك ليه.. إنت زيك زي كل الناس مالكومش لزمة.. لو كنتم وقفتم للناس اللي فوق كان زمانا زي بعض وكان زمان علياء لي أنا.. فاهم.. كلكم عبيد وخدم.. كلكم.. كلكم.

عدت لإدراكي لأجد الرجل صامتًا لا يبدي أي حركة.. هززته بقدمي لم يتحرك، فأسرعت بالرحيل دون ندم، وأنا أقول لنفسي في ألم:

- إنتي السبب يا علياء.. إنتي السبب.

obeikan.com

دلفت للمنزل لأجد أشرف جالسًا مع أمي، ما كاد يراني حتى أسرع كعادته في الآونة الأخيرة بالوقوف في احترام، ثم يقول لي في سعادة:

- سعادة الباشا الكبير.

لم يكن مزاجي رائقًا، فلم أبادله الابتسامة، لكني اغتصبت كلمات باردة من فمي قائلاً في تعالٍ أصبح يتقبله مني في بساطة مع بعض اللمز بأنه من صنعني فلا داعي للتكبر:

- أزيك.. يا أشرف.

هكذا بلا ألقاب ك(عم) أشرف سابقًا، فأسرع ينظر لأمي كأنه ينتظر منها إشارة، فتلقى منها نظرة حثته على الرد قائلاً في لهفة:

- تمام.. معاليك.... بس كنت عاوز أتكلم معاك في موضوع.

مزاجي كان كالقطران الأسود، لذا قلت له في ضجر:

- بعدين يا أشرف.

أسرعت أمي تقول لي في حزم:

- مش هناخد وقت كبير من معاليك.. لو سمحت أقعد علشان نتكلم مع بعض..

لم أجادلها، وأنا أجلس في امتعاض، فأشارت لأشرف ليتحدث، فابتلع لعابه في صعوبة ثم قال متلعثمًا:

- زي ما حضرتك عارف.. أنا بقالي سنين جانبكم.. خدمتكم بعنيا علشان

obeikan.com

بحبكم.. كنت كل ما أفاتح أمك في موضوع معين كانت بتقول لي لما الباشا يكبر.. ودلوقتي..

صمت للحظات مرتبكًا، فاستلمت أمي زمام الحديث قائلة:

- أشرف كان متجوز وعنده عيال ومراته ماتت من زمن وعياله كبروا وهو محتاج ونس.. وإنت أغلب الوقت مش هنا.. فاتفقنا على الجواز.. أنا بكبر في السن وجمالي مع الوقت هينتهي وهحتاج حد جانبي وإنت ماعدتش فاضي وإنت لسه في الكلية.. أمال لما تخلص هيبقى الوضع إزاي؟

كنت أغلي مع كل كلمة، أنا الضابط الكبير في المقام أمي تتزوج من أمين شرطة، مستحيل، لكني لم أقل ذلك بل قلت لهما في سخرية مقيتة:

- طب إنت يا أشرف هتعمل إيه بالجواز.. إنت أصلاً مالكيش فيها... ثم إنت إزاي هترضى تقعد بره وسيادة اللوا جوا معها.. مش نخلص منه الأول.

غضب هادر على وجه أمي المجروحة من كلامي، وانكسار على وجه أشرف، لكن أمي قالت لي في حدة:

- ما تقلقش أشرف مننا.. وأنا مش محتاجة منه غير الونس وهو طول عمره نفسه يفضل جانبي.

نهضت ببطء من فوق المقعد، ثم رمقتهما في حزم، ثم قلت لأمي الغاضبة:

- هنقفل على الموضوع ده لغاية ما حفلة التخرج تعدي.. وبعدين نتكلم.

تجاهلت أشرف ثم قلت لها في سخرية وأنا أدلف لحجرتي:

- ما تنسيش تتشيكي... إحنا معزومين على خطوبة علياء.. اللوا عازمك

obeikan.com

بنفسه.. يلا يا قمر عندك طلعة!

ثم أغلقت الباب خلفي في قوة تعبيرًا عن غضبي، وصوتي الروحي يهمس لي: (حان وقت تبديل الأوراق).

***

أضواء مبهرة حول حمام السباحة في القصر المنيف، وكوشة راقية جلس بها الرباعي والسعادة تغمر بعض الوجوه كسارة وعلياء ومهاب، واللامبالاة على وجه سامي، ومئات المدعوين من كبار رجال المال والدولة انتشروا في كل مكان يأكلون ويشربون.

كعادة أمي كان دخولها مفاجئًا، تلك المرأة تقترب من الخامسة والأربعين ومازالت ناضرة كالتفاحة الآثمة في الشجرة الملعونة، لذا مع مرورها تجمدت عيون وخرست ألسنة عن الكلام، يجب أن أضع حدًا لتلك المرأة، مكانتي الجديدة لا تسمح بأن أكون في موضع شبهات.

توارت تلك الأفكار مع اقترابي من علياء، نسيت العالم كله حتى الساحرة لم أعد أحس بوجودها، فقط علياء سيطرت على مجال رؤيتي، ضممت يدها ليدي للحظات وفي عيني سؤال واحد، لماذا؟ حاول الصوت مواساتي لكني أخرسته في قسوة، سحبت يدها في ارتباك لأنجذب من عالمها عائدًا إلى عالمنا القميء، ومع عودتي تغلبت على لحظات ضعفي وعادت إليّ قسوة قلبي وعتمتها، صافحت مهاب في قوة وأنا أرمقه في قسوة وتحدٍ جعله يرتبك، ثم قبلت سامي في مرح مصطنع وقبضة مؤلمة تعصر قلبي، ثم صافحت سارة هامسًا لها في خبث:

- صبرت ونلت يا وحش.

ضحكت سارة في سعادة، ثم تركت الرباعي وقلبي يبتعد نازفًا، ثم باركت أنا وأمي لسيادة اللواء وحرمه المصون، لأول مرة تتقابل أمي مع حرم سيادة اللواء، تعمدت أن أجعلهما يتعارفان وأخذت أراقب وجه سيادة اللواء الممتقع بعض الشيء، وابتسمت لنظرة زوجته لأمي، نظرة مرعوبة من الجمال الساحق للساحرة، لذا جذبت في عنف زوجها مبتعدة والغيرة تطل من عينيها.

ثرثرت مع العشرات من معارف سامي ومعارف سيادة اللواء وخاصة ضباط الحربية، وكان أغلب الحديث بينهم عن حفل التخرج الذي سيحضره سيادة الرئيس، ربت أحدهم على كتفي ثم قال لي في فخر:

- طبعًا إنت هتتكرم من الريس.. من العشرة الأوائل.

تدربنا في الكلية على الاحتفال، طريقة الصعود والنزول، طريقة مخاطبة الرئيس وكان ضابط المخابرات المسؤول عن التعليمات يقول لنا في حزم:

- أوعى حد يعمل حركة مفاجأة.. أو يبص في عين الريس.

شعرت بالغضب، ما زالت العنصرية تطل على من كل مكان، من أكبر آدمي لأحقر إنسان، الرئيس يعاملنا كعبيد إحسانه، لذا ممنوع رفع الرأس أمامه بل خفضها في ذل لتنال رضاه وهذا ما أنتويه، همس لي الصوت في قوة:

(تضحيات صغيرة حتى ولو بالكرامة من أجل الهدف الكبير).

دلفت مكتب سيادة اللواء في الكلية، وقلت له في رجاء:

- عاوز توصية من سيادتك.

استعراضات حربية ممتعة أسعدت الجلوس وخاصة أمي التي كانت تبكي في فخر، وكان الرئيس وقيادات الجيش والدولة يتابعون الاستعراضات، وكان الرئيس يميل على الجلوس من حوله ملقيًا التعليمات والنكات ليبتسموا مرغمين

أتت لحظة تكريم أوائل الكلية الحربية، بدأ النداء علينا بالترتيب، وكان كل من يسمع اسمه يصعد في خطوات عسكرية صارمة ثم يصافح الرئيس والقيادات ثم يكرمه الرئيس بنيشان.

أتى دوري كأول الدفعة وأنا أرتجف، فالقرار الذي اتخذته إما يخسف بي الأرض أو يصعد بي للسماء، فصافحت القيادات وقلبي ينبض في عنف حتى توقفت أمام الرئيس وأنا أشعر بالدونية والخوف، ثم بحركة مباغتة ولا تتماشى مع تعليمات ضابط المخابرات انحنيت مقبلاً يد الرئيس هامسًا في ارتباك:

- بحبك يا ريس.

تجمد المشهد للحظات، ثم ارتباك على وجوه القيادات وضباط المخابرات، وخوف حذر على وجهي، لكن كل ذلك تبدد مع ضحكة مغرورة من الرئيس الذي ربت على كتفي في حنان استعراضي ثم مال عليّ قائلاً في حزم:

- ولد مجتهد.. أأمرني يا حبيبي.

قلت له وأنا أنظر للأرض وقلبي يخفق في خوف:

openkan.com

- عاوز أبقى جنبك... في حراسة سعادتك.

أطلق ضحكة صافية وهو ينظر لتكويني الجسماني، ثم قال لي في خبث:

- الحرس الجمهوري محتاج تيران.. ماعلش شوف حاجة تانية وأنا أوعدك بالتنفيذ.

تنهدت في ارتياح وقد وصلت لمبتغاي، فقلت له في لهفة:

- المخابرات الحربية.

استدار نحو أحد القيادات ثم قال له في صرامة وهو يشير إليّ في حزم:

- الواد ده يروح المخابرات بعد مراجعة توصيات سيادة اللوا مدير الكلية والملف الأمني..

ابتسمت في فخر.

obeikan.com

١٠

خالفت المخابرات الحربية كل توقعاتي، الملل سيد الموقف، خيالك عن عمليات عبقرية وأفلام الحركة أقذفه في أقرب سلة قمامة، هنا طوال الوقت تقارير وأوراق وكلها تصب في اتجاه واحد أمن الرئيس واستقرار الجيش.

حتى المخابرات العامة التي كانت ترسل تقريرها إلينا، وإلى الرئاسة كان كل عملها هو ضمان الاستقرار في البلد وأمن الرئيس وهي تشارك أمن الدولة في نفس المهام، لكن كل منهما يلعب في ملعب مختلف، أحيانًا في نفس الملعب بالخطأ، وهنا الأولوية تصبح للمخابرات، أحيانًا هناك عمليات خطيرة لكن قليلة ودائمًا ما يتم وضع ضابط مخابرات ليس من أبناء القيادات بها، أبناء القادة لا يتم التضحية بهم، التضحية تتم بالعبيد مهما كانت رتبته، وهو نفس المبدأ في الجيش كله وكذلك الشرطة، المهام الخطرة والمناطق النائية لأبناء الشعب، أما المناطق المركزية والمناصب المؤثرة فمن نصيب قادة المستقبل من أبناء القادة أو أبناء المال.

أصابني الإحباط، بلد كاملة مجندة لخدمة شخص واحد، كلنا ندور في فلك سيادة الزعيم الحامي، هذا البلد قائم على عقل شخص واحد يديره كالطفل كما يحلو له، مزاجه يؤثر على مقدرات بلد كامل، لا أحد يستطيع قول لا له، كل قراراته واجبة التنفيذ حتى ولو كانت ستؤدي لكارثة.

obeikan.com

وهنا كان يأتي دورنا، تنفيذ القرار مع وضع خطط عاجلة لمحاصرة الكارثة، كنا نلهث طوال الوقت فكريًا في وضع خطط ننفث بها الكارثة بعيدًا عن الانفجار.

كلما تعمقت في العمل، توصلت لنتيجة واحدة، هذا بلد السادة والشعب الخانع الخائف عبيد، هذا البلد يحتاج لصدمة قوية لينتبه للخطر الذي ينحدر إليه، البلد يتسع فيه الفجوة بين السادة والعبيد، ومع الوقت يفرز نوع جديد من البشر يشبه الزومبي وهؤلاء لو تكاثروا سيأكلون الأخضر واليابس.

العدالة الاجتماعية هي صمام الأمان لأي بلد، لو اختلت مع الوقت يقع البلد كله، لكننا كلنا نتعامى عن ذلك من أجل مصالحنا ومصالح الكبار.

لذا مع الوقت تكون عندي قناعة واحدة:(هذا البلد لن ينفع معه مسكنات أو حلول مؤقتة أو إصلاح، هذا البلد لابد من أن يهدم ويسوى بالتراب ويتساوى الجميع، ثم على مبدأ المساواة والعدالة يبنى من جديد كوطن عادل للجميع).

لم أكن أحب السياسة ولم يكن لي باع فيها، لكن هنا تعلمت ما لم يتعلمه الساسة الكبار.

هنا لم تتداو جروح نفسي، بل زادت اتساعًا، لم أعد أرى العنصرية في شخص ما سأنتقم منه كما كنت أخطط أو أرى الجبن في شخص آخر يستحق الانتقام لتفريطه في حقه أو حق غيره أستنجد به، هنا تأكدت أن البلد كله قائم على أساس ضعيف ويحتاج صدمة لينهض من ضلاله.

كل خططي تغيرت وتبلورت، لكن ليس معنى ذلك أنني تخليت عن خططي القديمة نحو كل من أساء لي، بل هناك أسماء جديدة أضفتها.

ستقول عني شرير، كلا، أنا مصلح لكن بطريقته الخاصة، سأطوع الشر من أجل الخير، سآخذ حقي وسأنتقم من الأسياد لطغيانهم ومن العبيد لصمتهم.

أعلن الصوت الروحي القادم من السماوات عن رضاه، هامسًا لروحي:

(أنت الآن في مسارك الصحيح.. أنت الآن الرسول الذي سيوصل رسالته للأحياء والأموات).

***

زيارة غير متوقعة من شخص ظننت أنني لن أراه مرة ثانية في حياتي، أتى لحسن حظي ولسوء حظه، ما كدت أدلف للمنزل حتى وجدت أمي وأشرف وشخص ثالث معه شاب في نفس عمري أو أكبر قليلاً، ملامح ليست غريبة لكنها بعيدة مختفية داخل تلافيف ودهاليز المخ.

الصمت كان المسيطر على المجلس، وما كدت أصل إليهم حتى أسرع الجميع بالنهوض ومد الأيادي للسلام، لم أمد يدي وأنا أجلس في غرور، وأمي تقول بصوت بارد:

- عمك يا حضرة الظابط.

قلت لها في حزم، وأنا أضع ساقًا فوق الأخرى:

- عارف.. مخي جابه في آخر لحظة.

ثم التفت للرجل المبلل في عرقه وقلت له في حزم:

- خير.. إيه اللي جابك وعرفت عنوانا منين؟

أجابني متلعثمًا:

- أنا عارف العنوان من ساعة التحريات اللي كانت عليك.. وجيلك قاصدك في خدمة.

صمت، فلم أرد عليه، فقط أشرت إليه بعنجهية ليتابع، فأمسك بكتف ابنه للحظات ثم قال في سرعة وفخر:

- ابن عمك خلص كلية الطب.. بقى دكتور.. بس هيلبس في الجيش تلات سنين.. كنا عاوزينك تنزله لعسكري لمدة سنة علشان مستقبله.

نظرت لأمي والغيظ يأكل وجهها، ثم قلت له في برود:

- سيب لي البيانات وأنا هقوم بالواجب.

ثم نهضت في حزم معلنًا انتهاء المقابلة، فنهض مرتبكًا وهو ينظر لابنه الذي تقدم إليّ بمظروف به البيانات، نظرت لأشرف فأسرع بالتقاط المظروف وأنا أقول للشاب:

- هاوديك مكان ترتاح فيه.

غادرا المكان، لتنفجر أمي في سخط:

- أنت عاوز تموتني.. أنت ماضربتهوش بالنار ليه.. إنت ناسي اللي عمله فينا زمان.

لا، لم أنس أنه السبب في دمارك ودمار روحي، لكن الحياة تعطي فرصة ثانية- دائمًا- غير متوقعة، وأنا لن أضيعها بسبب غضبك.

اتجهت لغرفتي، لكنها استوقفتني هاتفة في حدة:

- أشرف عايزك في موضوع.

التفت إلى أشرف، وأشرت إليه بعدم الكلام، ثم قلت لها في قسوة بالغة:

- مافيش كلام لغاية ما تخلصي من سيادة اللوا.. أنا كل يوم قلبي بيقع في رجلي في الشغل وأنا بتخيل أن حد من اللي معايا عرف حاجة عنك.. إنتي ممكن تضيعي كل حاجة.

تلون وجه أشرف بالأسود، ولكنه لم يتفوه بكلمة وأمي تصرخ بي في حدة:

- دلوقتي بتستعر مني بعد ما عملتك راجل.. لولا اللي أنت بتستعر منها دلوقتي كان زمانك بتنضرب على قفاك في الشارع.. يا حيلتها.

أربد الغضب في وجهي، وأنا أميل عليها في شراسة وخوف قديم منها ما زال يصدني عنها، ثم قلت لها:

- تربيتك يا ماما.. وقلة الأصل مش هجيبها من برة.. على العموم أنا وإنتي ماعدناش ننفع لبعض.. وضعي الأمني لازم يبقى فوق الشبهات.

أشارت لنفسها مصدومة، ثم قالت لي غير مصدقة:

- أنا بقيت بالنسبة لك شبهة.. بعد كل اللي عملته علشانك!

زفرت في حنق، ثم قلت لها في غضب:

- يوه.. كل شوية أنا اللي عملتك.. أنا اللي عملتك.. تشكري يا ست.. بس لازم تفهمي حاجة أنا أتغيرت ماعدتش بخاف منك ولا عدت تحت سيطرتك.. هناك في الكلية أو يمكن قبلها أتغيرت بس للأقوى.. بقيت زي الراجل الحديدي من غير مشاعر.. واللي هيقف في طريقي هفرمه.

صمت للحظات لألتقط أنفاسي، وهي تنظر إلّي في رعب غير مصدقة، لم تكن تعلم أنها ومن بعدها علياء قد أطلقا الوحش الكامن في داخلي، وحش سيهدم المعبد فوق الجميع، ثم قلت لها في قسوة:

- حتى إنتي ممكن أفرمك.

ثم أغلقت باب غرفتي خلفي، تاركًا إياها مع أشرف يرتجفان من المفاجأة الصادمة، والصوت يهمس لي في خبث:

جدع يا باشا.. في صميم قلبها.

***

صدمة أمي فيّ جعلتها تفقد الرغبة في الكلام معي، وهذا بحق كان شيئًا رائعًا، مؤخرًا تمردت عليها، خرجت من كمها كما تخرج الحمامة من كم يد الساحر لتنطلق نحو الحرية، رغم ذلك كنت أشعر بالحنين يدفعني للعودة إليها، كحمامة الساحر عندما تعود إليه معتذرة ليعيدها للقفص، حيث الطعام والأمان ولو في ذل وعبودية.

لكني قاومت الرغبة في العودة، لن أصبح كباقي البشر، لن أستطعم العبودية، سأحطم قيودي وأكمل طريقي نحو الفضاء، هدفي واضح ولن أحيد عنه، لن أضعف، لن أترك شيئًا يعوقني حتى ولو كانت مشاعري،

سأحطم كل شيء في طريقي حتى أصل لمبتغاي، أنا الآن رسول الدمار، أتيت لدمارها لتبنى من جديد.. فبداية البناء الخراب، فانتقامي رغم قسوته رسالة حب.

لذا بخطوات دءوب كنت أمهد الطريق لأصدقائي المتناثرين في أرجاء الجيش، كنت أبدل لهم التقارير وأشطب الجزاءات، وأساعدهم على الترقي مستقبلاً.

وفي الإجازات كنا نتقابل ونتقارب لربط الود بيننا، كنت أخبرهم بما أفعله من أجلهم، فيثنون عليّ، ومع الوقت أصبحوا يدينون لي بالولاء، وأصبحت بالنسبة لهم قائدًا وزعيمًا ينتظرون منه أي إشارة ليظهروا له الولاء.

ترددت كثيرًا على قصر سيادة اللواء، وجلست مع علياء وأخبرتني بأن حفل زفافها على مهاب قد اقترب، سألتها عن مهاب وأخباره، فقالت لي في لا مبالاة:

- ماعدتش بشوفه كتير.. البيزنس واخده.

قلت لها في جراءة وأنا أنظر في عينيها:

- في حد يسيب القمر لوحده.. ملعون البيزنس.

أطلقت ضحكة صافية، ثم قالت لي في خبث:

- بقيت جريء قوي.

قلت لها في خبث مماثل:

- تلميذك يا أستاذة.

زادت ضحكتها مكرًا، ثم مالت نحوي منتظرة قبلة، فهي لا تمانع اللهو، لكني ابتعدت عنها في مكر، هامسًا:

- مامتك فين؟

أشارت للداخل في غضب.

لم يمنعني العمل في المخابرات من زيارة سامي الذي أصبح مشغولاً جدًا في إدارة أعمال والده، ولدهشتي أثبت براعة غير عادية في العمل، لكن كل ذلك لم يمنعه من متابعة اللهو في الشقة، وأحيانًا كنت أذهب معه أو أرسل إليه أحد أصدقائي الضباط.

من أهم الملفات التي كنت أطلع عليها في الأرشيف، ملف سيادة اللواء، كنت أتفحصه بصورة دورية.

وخلال الأشهر القليلة الماضية، اكتسبت ثقة رؤسائي في العمل، وأشادوا بمهارتي في جمع المعلومات والتخطيط، وفراستي في تحديد اتجاهات بعض الأفراد المشكوك في ولائهم للنظام الحاكم.

لم أفعل مثل باقي زملائي في المخابرات وأجعل علاقتي مع أمن الدولة علاقة ندية أو أوامر واجبة التنفيذ، بل كونت صداقات مع أبرزهم وصنعت شبكة من العلاقات.

أصبحت كالإخطبوط لي أذرع في كل مكان، حتى ديوان رئاسة الجمهورية أصبح لي بحكم التقارير المتبادلة أصدقاء بداخله، وفي جلسات النميمة

كنت أتعرف على أخبار القصر الرئاسي وفضائحه والصراعات الأسرية والرئاسية.

عندما كنت أضع التقارير المتفرقة القادمة من كل مكان، بالإضافة للنميمة والأخبار الشفوية، كان يقيني يزداد كل يوم بأن هذا البلد يهوي نحو الهلاك وأن السادة القائمين عليه بعضهم أعمى والبعض الآخر يدرك ذلك، لكنه بقصد أو لقلة حيلة لا يحاول إيقافه عن السقوط، لكنهم أعدوا لأنفسهم العدة للهرب وترك السفينة لتغرق بدونهم.

لذا أيقنت أنني بالفعل أتيت في الوقت المناسب، وأنني مبعوث الرب للانتقام من الجميع، لذا أنبعث الصوت من داخلي في رضا:

)أحسنت.. ولا تنسى أن الصغائر تتجمع وتصبح كبائر).

معه حق، يجب الخلاص من صغائري حتى لا تتراكم وتصبح جبلاً يعوق طريقي نحو هدفي، يجب أن أتخلص من كل من يدنس طريقي..

همس لي الصوت بذات الرضا:

(هذا هو بداية طريق الخلاص).

***

اقتحمت الشقة كالإعصار، لأجد زوجة سيادة اللواء ترغي وتزبد في غضب هادر، وأمي وسيادة اللواء ينظران للأرض بدون كلمة واحدة، لكني أسرعت أقول لزوجة اللواء في حزم:

- لو سمحتي يا طنط كفاية فضايح.

لم تصمت، بل تابعت جذبها للواء من ملابسه الداخلية، وهي تصرخ في جنون:

- بعد العمر ده كله بتخوني... ومع مين.. أم صاحب ابنك.

همت أمي كساحرة شريرة بالرد، لكني أشرت إليها بالصمت، ثم جذبت زوجة اللواء من ذراعها لتجلس، قاومتني للحظات، لكني أجبرتها على الجلوس وأنا أقول لها في حزم:

- لو سمحتي كفاية كده.. الناس هتتلم علينا.. جوزك مركزه حساس وأنا زيه.. ما يرضكيش جوزك وهو على وش فريق تتسببي في رفته.

ارتجف اللواء في ذعر، وهو ينظر إليّ في ضراعة، وخاصة وزوجته تقول في عنف:

- يستاهل أبو عين زايغة.

ثم استدارت لي متابعة في تهكم:

- وإنت كمان مش تلم أمك خطافة الرجالة!

هنا صرخت بها أمي في قوة وكيد نسائي:

- وحياتك يا حبيبتي هم اللي بيترموا تحت رجلي.

همت زوجة اللواء بالرد، لكني صرخت بالجميع:

- مش وقت شغل حريم.. كلنا كبار ولازم نتعامل مع الموقف بحكمة.

ران صمت للحظات بعد كلماتي، ثم اتجهت نحو اللواء وقلت له في مرارة:

obeikan.com

- بعد ما اعتبرتك زي أبويا تخوني.

أسود وجهه لكني تابعت وأنا أرمق بطرف عيني وجه أمي المندهش من كلامي:

- بس علشان خاطر ابنك صاحبي وعلشان مكانتك في الجيش والمجتمع وكمان علشان مكانتي في المخابرات ما قدمناش غير حل واحد تاخد مراتك وتمشي وكلنا ننسى الموضوع ده للأبد ونعتبر اللي حصل غلطة من الكل ومش هتكرر.. قلتم إيه؟

غمزت بطرف عيني لسيادة اللواء، فالتقط طرف الخيط، فأسرع نحو زوجته مقبلاً رأسها، قائلاً لها في رجاء:

- سامحيني يا حبيبتي.. غلطة ومش هتتكرر..

تمنعت للحظات، لكنه تابع:

- علشان خاطر عيالنا.. علشان صورتك قدام صحباتك في المجتمع الراقي.

ضغط اللواء بذكاء على نقطة ضعفها، فأسرعت تقول له في قسوة:

- خلاص.. يلا بينا على البيت.. تعبت من الجري وراك في كل بيت شوية.

قبل رأسها، ثم ارتدى ملابسه أمام نظرات أمي الصامتة، نظر إليها في لوعة تلاشت سريعًا أمام نظرات زوجته.

أسرعا نحو الباب، فملت على اللواء قائلاً له في خبث:

- أنا اللي أنقذتك من مراتك.. ليا عندك واحدة.

obeikan.com

ابتسم لي في امتنان وخزي، والتقى بصري ببصر زوجته للحظات لتبتسم لي

عدت لأمي لأجدها تنظر إليّ في خبرة ساحرة شريرة، ثم قالت لي في مرارة:

- بجد.. ضربة معلم.

سألتها في حيرة:

- قصدك إيه؟

أجابتني في شيء من الشراسة:

- يا حبيبي أنا اللي مربياك وعرفاك زي إيدي.. إنت اللي عملت الليلة دي... صح؟

ابتسمت بركن فمي ثم تصنعت الغضب قائلاً:

- بدل ما تشكريني إني خلصتك من مرات سيادة اللوا.. على العموم.. أنا ماعدش ليا عيش في البيت ده.. مكانتي ما تسمحش بالقرف ده.. أنا هسيبلك البيت.

كلماتي كانت ترشق في صدرها، لتشهق للحظات في ألم ثم همست في مرارة باكية:

- بعد العمر اللي ضيعته عليك هتسبني لوحدي.. بعد ما ضيعت شبابي عليك هتسبني..

obeikan.com

مشاعر الضعف حاولت الظهور، لكن برز بغتة الصوت السماوي صادحًا:

(إياك والضعف.. الآمال العظيمة تحتاج لتضحيات..).

وجدتني أقول لها في حسم:

- ده قرار نهائي... كده أو كده أنا كنت هسيبك لما أتجوز..

ابتلعت دموعها وهي تهمس لي في ألم:

- فعلاً... أنا السبب في اللي بيحصلي.. ضحيت بكل حاجة علشان أعمل منك حاجة بس مقابل كده نزعت منك النخوة والرجولة.. أنا السبب في إنك تبقى جاحد كده.

زفرت في غيظ، وأنا أقول لها:

- كلامك ملوش فايدة.. أنا أهم حاجة عندي حلمي وهافضل ماشي وراه لغاية ما يتحقق حتى ولو ضحيت بالكل.

سألتني في مرارة:

- حتى أنا.

قلت لها في صراحة مقيتة:

- منك إنتي بالذات.. إنتي نقطة ضعفي الوحيدة.. علشان كده لازم أحيدك علشان أقدر أركز في الطريق.

كانت تتلوى من الألم لكني لم أعيرها انتباها، فهمست لي من وسط دموعها:

- هتسيبني لمين؟

obeikan.com

قلت لها في عملية وكأنني قد أعددت كل شيء:

- ماتخفيش.. هجيبلك خدامة تخدمك وتونسك.. وهبعتلك مصاريفك أول كل شهر.. وهبقى أزورك كل فترة.

قالت لي متهكمة في ألم:

- تصدق.. كتر خيرك.

قلت لها في حزم، وكأنني لم أستمع لعبارتها:

- المهم ماحدش يحس بوجودك.. أي حركة غلط منك هتهدد مكانتي ووجودي

كانت ترمقني غير مصدقة، ثم همست لي في ذهول:

- عاوز تدفني بالحيا.

كنت أود أن أقول لها، لو اضطررت سأفعلها، لكني لم أرد والقسوة تسيطر على روحي.

ساد الصمت ربما لدقائق وهي تحاول كفكفة دموعها، تحاول لم شتات نفسها، وهي غير مصدقة، لم تكن تظن يومًا ما أن ابنها المقيد في ذيل جلبابها سيغدر بها ويطعنها بسكين في قلبها.

تنهدت هي للحظات ثم ضربت ضربتها الأخيرة متوقعة أنها ستباغتني وتجبرني على التراجع:

- خلاص.. بدل الوحدة ما تكلني هتجوز أشرف!

obeikan.com

أطلقت ضحكة ساخرة أذهلتها، ثم أمسكتها من كتفها في عنف قاطعًا الضحكة لتشعر هي بالذعر، ثم قلت في قسوة:

- إنتي باين عليكي كبرتي وخرفتي.. إنتي مافهمتيش كلامي.. أنا قلت خدامة مش أشرف.. هاقول إيه لأصحابي في المخابرات أو رجال الأعمال.. ماما متجوزة أمين شرطة.. لا وكمان مخصي... اعقلي أحسن لك.. وأشرف ده خلاص هتقطعي علاقتك بيه زي سيادة اللوا... بصي إنتي هتقطعي علاقتك بكل الرجالة.. خلاص استغنينا عن خدماتك.

تراجعت أمي مذعورة أمامي، فابتسمت لها في قسوة، ثم اتجهت نحو الباب لأغادر، فأتاني صوتها المهزوم:

- هتجوزه غصب عنك.. أنا أمك.

لم أرد، والصوت المرسل من سماء الإنقاذ يقول:

(لابد من التضحيات).

***

استرخيت على مقعدي خلف مكتبي في غرفتي بجهاز المخابرات، ثم التقطت سماعة الهاتف وقمت بإجراء ثلاث مكالمات سريعة مع ضابط أمن دولة وضابط جيش في منطقة التجنيد وضابط شرطة صديق لي، ثم عدت للاسترخاء وبسمة عميقة نابعة من قلبي ارتسمت على شفتي، وقد أيقنت أنني في طريقي الصحيح.

خبر صغير في إحد الجرائد: القبض على تاجر المخدرات المعلم(....)

obeikan.com

وذلك بعد اقتحام قهوته وتفتيشها، تم العثور على خمسين طربة حشيش.

خبر آخر في يوم آخر: القبض على جماعة من الشواذ في حارة (.....)، وقد اعترفوا بقيامهم بالشذوذ منذ زمن بعيد.

كنت أشاهد صورهم غير المغطاة بالشريط الأسـود متشفيًا، وشعور بالسعادة يجتاحني، شعور بالقوة، قوة السلطة لا يدانيها قوة، وأنا مسترخٍ في مكتبي أعبث بالأقدار كيفما أشاء، أخفض وأرفع كما أريد، القوة شعور ممتع أكثر من المخدرات والجنس.

ما زلت ألاعب الماضي، لابد من غلق صفحته ومحوها للأبد حتى لا ألتفت لغير المستقبل.

أتاني اتصال من مركز التجنيد، وقال لي صديقي:

- زي سيادتك ما أمـرت.. المستجد وزعناه على الحـدود.. في منطقة القلاقل

قلت له شاكرًا:

- شكرًا...

شهر أو أقل توقفت سيارتي أمام صوان العزاء الضخم، ثم ترجلت منها وصافحت عمي الباكي، قائلاً له في حزن مصطنع:

- مات راجل..

هم بالرد غاضبًا، لكن رؤيته للحرس خلفي جعله يتراجع، هامسًا في بكاء:

pelikan.com

- منك لله.. إنت السبب في موت ابني.. موت الحاجة الوحيدة اللي كنت بفتخر بيها.. ابني الدكتور.

ملت على أذنه هامسًا في غضب وتشفٍ:

- وإنت قتلت كل حاجة حلوة جوايا..

صمت للحظات ثم أشرت للحرس للاستعداد للرحيل، ثم قلت له في قسوة:

- نسيت أقولك.. معايا ورق قديم بالبيت بتاع أبويا.. قدامك أسبوع قبل ما أهده

صرخ بي في هلع:

- كله إلا البيت.. إنت خدت ورثك حتى اسأل أشرف!

قلت له ساخرًا وأنا أدلف للسيارة:

- أنت حضرت الوحش ومش هتقدر تصرفه.. ولو تقدر تثبت حاجة اثبتها.. كله بالقانون وده في جيبي.. بالنسبة لأشرف لو شوفته سلم لي عليه.

ثم أطلقت ضحكة ظافرة والسيارة تنطلق بي نحو منزلي الجديد الذي أعطتني إياه المخابرات.

حفل زفاف أسطوري في فندق خمس نجوم، وكانت علياء متألقة في فستانها القصير ورقصها المثير حتى إنني هممت بالانقضاض عليها وتقبيلها، وكذلك سارة كانت جميلة لكنها لم تترك ذراع سامي الذي كان يحاول الخلاص منها قائلاً في غلظة:

obeikan.com

- خلاص يا بنت التييت.. إحنا اتجوزنا وبقيتي قدري.

ضحكت سارة في سعادة هامسة:

- وأنا هوريك اللي عمرك ما شفته!

التقى بصري ببصره للحظات لنطلق معًا ضحكة ساخرة، ثم قال لها في خبث:

- أشوف إيه يا حلوة.. ما كل ده أنا دوسته كتير.

مطت شفتها في دلال، فتركتهما للمشاكسة، واستدرت نحو علياء وجزء مني مازال يتألم، جزء مني يتلوى مع رقصها الفاجر، مرارة في حلقي، أعلم أنني لو أردت النوم معها لفعلت ببساطة بلا زواج، لكني لم أكن أريد هذا فقط، بل كنت أريدها بجواري للأبد، همت دمعة بالتحرر من قبضتي الحديدية وأنا أشاهد مهاب يراقصها في رومانسية، لكن الصوت القاتل هتف بي في قسوة:

(إياك والضعف.. لا تنسى أنها السبب في دمارك... لا تنسى أنها تعالت عليك وعاملتك في غرور كأنك مجرور من القازورات.. لا تنسى أنها تعتبرك عبدًا لا يرتقى لمستواها.. لا تنسى أنها جلادك.. لا تنسى أنها من السادة الناهبين لدماء العبيد... لا تنسى أنها الآن أولى بالانتقام من الحب).

كراهية تصاعدت بداخلي والصوت يشحن بطاريات البغض والكره في أعماقي، لذا وجدتني أرمقها في شراسة ثم بعدما جلست بجوار مهاب، صافحتها وأنا أقول لها في خبث:

- كان نفسي أنام معاكي النهارده بدلا من ابن المحظوظة ده.. على العموم الأيام الجاية كتير يا وحش.

أطلقت علياء ضحكة عالية، فتركتها مبتسمًا لأجلس بجوار سيادة اللواء وزوجته التي مالت نحوي هامسة:

- مش عارفة أشكرك إزاي.

قلت لها في خبث:

- النهارده أشكريني زي علياء ما هتشكر مهاب وزي ما شكرتيني في الفيللا يوم ما اتفقنا على جوزك وأمي.

أجابتني في دلع:

- اللوا هينام بدري.

ابتسمت لها ساخرًا، وأنا أميل نحو اللواء ممسكًا بيده فصافحني في امتنان هامسًا:

- أشكرك لأنك أنقذتني من مراتي والفضيحة.

ابتسمت له في هدوء، ثم نهضت تاركًا الفرح وفي داخلي نيران مستعرة

هاتفني صديق من أمن الدولة، قائلاً لي وأنا مسترخٍ على المقعد في مكتبي:

- الحملة هتطلع النهارده واسمه مدرج فيها.

قلت له في امتنان:

- شكرًا لك.

obeikan.com

قذفت بالصحيفة على المائدة الجالسة عليها أمي، فرفعت بصرها إليّ بدون كلمة والألم ما زال يجتاحها، ثم عادت ببصرها إلى طعامها، فجلست في مواجهتها وقلت لها في شيء من الحزم:

- الجرنال فيه خبر يهمك.

ثم دفعته نحوها، فالتقطته في استخفاف، لكن ما كادت تقرأ الخبر حتى شهقت في ذهول، وأسقطت الأطباق بدون وعي وهي تقول لي في عدم تصديق:

- إزاي.. كان معايا إمبارح... ده كدب.. كان بيقول هيروح حملة وهيجي لي النهارده نتفق على الجواز.

جلست أنا كالتمثال الشمعي بلا أي انفعال، أراقبها وهي تصرخ وتبكي قائلة:

- كان هنا إمبارح.. مات.. طب إزاي.

دبت الحياة في التمثال، لأقول لها في أسف:

- الموت علينا حق.. أدعيله بالرحمة.. ده مات شهيد الواجب والوطن.

نكشت شعورها واحمرت عينها فأصبحت كالساحرة الشريرة في أفلام الكارتون، ثم قالت لي في عنف:

- أنت السبب.. أنت اللي عملت ده كله.

هززت رأسي في أسف، فتابعت هي في عدم تصديق وهي تنظر ليديها كأنها تشاهد دما عليهما:

obeikan.com

- أنا السبب.. أنا اللي خلقت الوحش ده جواك.. أنا السبب.

قلت لها مؤمنًا:

- دلوقتي إنتي عرفتي أنا ممكن أعمل إيه.. أنا ما حدش يقدر يقف قدامي.. فاستهدي باللّه واسمعي الكلام.

دفعتني في صدري، صارخة:

- إنت قاتل.. قاتل.

أمسكت بكتفها في عنف، هامسًا:

- أمي.

أخذتها في سيارتي التي أعطتني إياها المخابرات إلى بيتنا القديم، ثم أشرت بإصبعي نحو المنزل المحاصر بالبولدوزارات لهدمه، هاتفًا في قسوة:

- بصي علشان تعرفي قوتي... وأن ما حدش يقدر يقف قدامي.

تناهى إليها صوت صرخات عمي وزوجته وأبنائهما والقوات تقذف بهم في الشارع والأثاث يرمى من النوافذ، وعمي يكيل التراب على رأسه صارخًا:

- منك للّه... منك للّه.

لمعت شماتة خفيفة في عينها، وأنا أقول لها في تلذذ:

- شوفتي كنتي عاوزاني أطرده لما جالنا... بس أنا كنت أحكم منك ورتبت له وقهرت قلبه على ابنه وبعدين شردته هو وعياله.. شفتي انتقام أحسن

obeikan.com

من كده.. جبت لك حقك.. مش تسمعي كلامي أحسن.. قول لي عاوزة مني إيه تاني.

أجابتني في ألم:

- أشرف.

جلست في سيارتي وهي بجواري تشاهد الجنازة العسكرية لأشرف، كانت دموعها تسيل وهي تقول لي في مرارة:

- ليه عملت كده.. أشرف ياما خدمك.

قلت لها وأنا أتابع الجنازة:

- علشان أشرف حاول يعمل زيي ويتعدى حدوده.. بس هو مش عارف أن أنا فاهم اللعبة فامينفعش يلعبها معايا.. هو اللي قالي أنه ما ينفعش أني أبص لعلياء علشان هي أعلى مني.. فكان لازم ما يبصش ليكي علشان أنا أعلى منه.

صمت للحظات لأشاهد دموعها ثم قلت لها:

- مش أنا السبب في العنصرية دي بس لازم أمشي على قانونها لغاية ما أوصل لفوق خالص وبعدين أدمر كل القوانين العفنة دي.

صمت للحظات، ثم قلت لها بصوت كفحيح الثعبان:

- وكمان كان لازم أحاصرك وأمنع أي طوق نجاة ليكي.. لازم تبقي تحت سيطرتي علشان الماضي ما يطلعليش في نص الطريق ويوقعني.. إنتي الماضي اللي أنا خايف منه.. بس ماقدرش أخلص منه.. بس ممكن أحبسه

obeikan.com

لغاية ما أوصل

همست لي وهي مستسلمة:

- أقتلني؟

قلت لها في أسف:

- ماقدرش... إنتي لسه قوتي وضعفي.

قالت لي متمردة:

- وأنا مش هستسلم.

قلت ساخرًا:

- وأنا هاعد عليكي أنفاسك.

صمت للحظات ثم قلت لها في ألم:

- سامحيني بس لازم أوصل لهدفي.

صدح الصوت المرسل لي وحدي:

(لا بد من التضحيات).

obeikan.com

١١

كأنها دولة، كأنها حكومة، كأنها معارضة، هذا ما تعلمته في المخابرات، لا شيء كما يبدو لك، هذا الوطن غير حقيقي، مجرد تمثيلية سخيفة، كل منا يؤدي دوره كأنه له وجود حقيقي، ولابد من تقمص الشخصية لتقنع ولتقتنع أننا في عالم حقيقي.

المال هو المحرك الرئيسي للبلد، لا أقصد هنا الاقتصاد الفعلي للدولة والشعب، أقصد اقتصاد النخبة الحاكمة من رجال أعمال ورجال الجيش وعلى الرأس الرئيس وعائلته الكريمة.

الشعب يسحق ويذل، لكن لابد أن يقنعني (كأنه راضٍ)، والمعارضة المتداخلة مع النظام في مصالح ومصاهرات لابد أن تقنعني (كأنها تعارض)، والجيش الغارق في التجارة والاقتصاد المعلن أو الخفي لقيادته لابد أن يقنعني (كأنه مستعد)، حتى الآن لا أعلم مستعد لمن؟ لا تصدق ما يقال في الصحف والتلفاز عن العدو، فالمصالح المشتركة معه مثل شبكة العنكبوت، لقاءات يومية للتنسيق مع العدو، شراكة اقتصادية مع العدو، وفي العلن عداء شديد مع العدو.

ليظل الشعب مقتنعًا بأننا نحميه من العدو.

ملفات كثيرة لرجال أعمال يتاجرون في السلاح أو المخدرات أو الدعارة

وتجارة الرقيق الأبيض أو الأعضاء كنت أقرأها، ثم يطلب مني تجميدها، ذهلت في البداية، لكني تعلمت الحكمة ببطء، وعلمت أنني ما زلت غريرًا.

لو قبضنا عليهم، سيسقط بالتبعية معهم رجال من الساسة والحكم، لكن السبب الأهم سقوط هؤلاء سيؤدي لغلق مصانع وشركات وتشريد آلاف العمال، مما يؤدي لزيادة البطالة، ثم زيادة مطالبات الشعب للحكومة، ثم تهوي الدولة للقاع، لذا من المستحيل القبض عليهم، فقط تقنين الوضع أو الخلاص من غير المرضي عنهم.

كل لحظة كنت أتأكد أنني أسير في طريقي الصحيح، هذا البلد لابد من أن يأخذ فرصة للبداية من جديد.

هاتفني الصوت المرسل لآخر مرة قبل أن تأخذني الحياة واستمرئ حياة الدعة والرخاء:

(إنت رسول الدمار.. لتخرج الحياة من الموت).

***

الساحرة الشريرة لم تستسلم لقواعدي الجديدة، بل تمردت وفي عنف، قررت الساحرة تدميري، كل بضعة أيام كنت أرسل إليها بخادمة، فكانت تضربها وتطردها، فأرسل غيرها وهكذا، حتى ضقت بها ذراعًا، ثم علمت من الخادمة الأخيرة أن أمي ترتدي ملابسها الفاخرة ثم تخرج من المنزل وتعود في أحيان كثيرة مخمورة وبين يديها شاب جلد، وكذلك علمت أنها راودت العساكر الذين كنت أرسلهم بالمال إليها.

استشطت غضبًا من تلك المرأة، لو تهامس العساكر بذلك ستكون نهايتي،

لذا اقتحمت عليها المنزل صارخًا بها:

- إنتي عايزة إيه.. تدمرلي حياتي؟!

رمقتني في سخرية ولامبالاة، ثم قالت لي:

- حياتي وأنا حرة فيها.

قلت لها في شراسة:

- لا مش حرة.. أفعالك ممكن تدمر حياتي.

أجابتني في شراسة متبادلة:

- أنا اللي عملتك.. ومن حقي أهدمك زي ما هدمت لي حياتي.. جزء من حياتي ضاع عليك والباقي عاوز تدفنه بالحيا.. حتى وجودك جنبي حرمتني منه...

لوحت لها محذرًا:

- آخر تحذير.. أنا لسه مش عاوز أخسرك... بعد كده ما تلومنيش على اللي هعمله.

قالت لي في سخرية:

- أعلى ما في خيلك أركبه.

طوال الوقت كنت أعاني من سؤال واحد، حتى من أمي رغم الفجوة الكبيرة التي تزداد اتساعًا كل يوم:

- أنت هتتجوز إمتى؟

obeikan.com

سؤال كان يطاردني في كل مكان، في المخابرات أو السهرات مع الأصدقاء أو حتى سامي الذي كان يقول لي ساخرًا من وسط دخان الحشيش:

- لازم تتجوز علشان تلاقي اللي ينكد عليك.. لازم تتجوز علشان تحسبن عليها وتخش الجنة.

حتى رئيس جهاز المخابرات، سألني بطريقة عرضية وأنا أقدم له التقارير:

- إيه مش ناوي تخش دنيا.. لازم تتجوز علشان حياتك تستقر...

ابتسمت له في تكلف، ثم قلت له مداعبًا:

- عندك عروسة ليا.

ضحك للحظات ثم قال لي:

- يا ريت بس كلهم اتجوزوا.. قولي بس على طلباتك وإحنا معارفنا كتير.

طلبي ليس بمستحيل، كنت أريدها خليطًا من جمال أمي وعلياء، ومرح علياء لكن بلا عبث، كنت أريدها مضحية وحنون كأمي، لكن ليست مثلها في الوضاعة، أريدها متعالية كعلياء لكن متواضعة معي، أريد حلم غير موجود..

لدهشتي وعندما أبديت موافقة مبدئية على الزواج، جند رجال المخابرات أنفسهم وكذلك أصدقائي بحثًا لي عن عروس.

هاتفني صديق لي من أمن الدولة قائلاً:

- واحد زميلي في الشرطة اتصل بيا.. علشان مش عارف يوصلك وبلغني لو

obeikan.com

كنت أعرف أوصلك أبلغك بالكلام المحرج اللي هاقوله دلوقتي.

جعل وجهي يسود من الغضب والغيظ، ثم أسرعت إلى قسم الشرطة ليقابلني الضابط المسؤول، فأخرجت له هوية المخابرات فرحب بي في احترام فقلت له في حزم:

- عاوز أشوفها.

أجابني في احترام، وهو يشير للعسكري:

- تحت أمرك.

عاد العسكري بها وأنا أكاد الموت من الغضب والإحراج، ما كدت أراها حتى ضغطت على أسناني في غيظ، لكنها ابتسمت لي في لا مبالاة، أخذت أتفحص ملابسها المثيرة التي تظهر أغلب جسدها، ثم قلت للضابط في حزم:

- أنا هخدها معايا.. بس اللي حصل هنا سر ما حدش يعرف بيه.. وأي ورق تفرمه.

أومأ برأسه قائلاً في مداهنة:

- ما تقلقش يا باشا.. سرك في بير... أول ما بلغتنا إن حضرتك في الجيش وأنها تبع حضرتك وشوفنا البطاقة.. رحنا على طول مبلغين أمن الدولة علشان يبلغوا حضرتك.

ملت نحوه في حزم، ثم قلت له:

- شكرًا... ولو عوزت حاجة بلغني.

obeikan.com

ثم جذبتها من يدها وخرجنا والخزي يأكلني.

دفعتها في غلظة لتسقط على فراشها، ثم قلت لها في غضب هادر:

- حرام عليكي.. فضحتيني.. البوليس يقبض عليكي في ملهى ليلي سكرانة رمقتني في حدة، ثم قالت لي في جنون:

- هافضحك في كل مكان.. علشان ترجع لي.

صدمتني عبارتها للحظات، إنها تريد إعادتي إلى سيطرتها، حب التملك جعلها تفقد التميز، كما ضحت من قبل لصنعي مستعدة لهدمي لأعود إليها، فقلت لها في قسوة:

- حرام عليكي.. سيبيني لحالي.. عاوز أحقق هدفي.

هتفت بي في جنون باكية:

- أنا مستعدة أهدم كل حاجة علشان ترجع لحضني.. حتى ولو رجعنا للحارة القديمة.

لم أرد عليها، فأمسكت بيدي في حنان هامسة:

- عاوزة ابني.. أنا خسرت كل حاجة.. حياتي كلها اتدمرت ماعدليش غيرك... عايزك ترجع.

قلبي كان يتألم رغم سواده، لكني في حزم جذبت يدي منها ثم قلت لها في قسوة:

- ابنك مات من زمان.. قلبه مات.. روحه ماتت.. حتى هدفك القديم

obeikan.com

مات.. اللي قدامك ده شخص تاني كل هدفه من الحياة حاجة واحدة بس الانتقام من ظلم الحياة

صمت للحظات لأتنفس في عمق وأنا أنظر لدموعها ولوعتها، ثم تابعت في قسوة:

- بعد اللي عملتيه النهارده ما عدش ليكي عذر عندي... خلاص استنفدتي كل اللي ليكي عندي... وإنتي كمان ما عدش عندك وسايل ضغط تانية عليا... علشان كده أنا قررت إني أسيبك برحتك تخرجي تدخلي... تنامي مع رجالة وتسكري.. براحتك.. عيشي زي ما إنتي عايزة بس بعيد عني... من النهارده مافيش رابط بيني وبينك.

كانت تنظر إليّ كأنها تنظر لمجنون، ثم همست لي في عدم فهم:

- مش فاهمة.. أنا لسه أمك واللي بعمله بيهدد شغلك.

قلت لها ساخرًا في حزم:

- اللي إنتي بتعمليه بالفعل بيهدد كرامتي وشغلي.. بس ما تنسيش إني راجل مخابرات وواصل... علشان كده أفضل حاجة لإنهاء أي تهديد... البتر.

سألتني في رعب:

- هتعمل إيه؟

قلت لها في شراسة:

- هتخلص منك للأبد.

***

obeikan.com

كفكفت دموعي ورئيس المخابرات يحتضنني مقبلاً إياي، ثم شد على يدي في حرارة هامسا لي:

- مش عاوز أشوفك كده.. شد حيلك.

أومأت برأسي في أسى، ثم اصطحبته وأجلسته في صوان العزاء ليستمع للذكر الحكيم، ثم عدت لاستقبال المعزين من رجال شرطة، ومخابرات، وجيش، وغيرهم.

انتهى العزاء في وقت متأخر لأعود لمنزل أمي، أخذت أنظر لصورتها على الحائط للحظات، ثم انفجرت ضاحكًا وأنا ألتفت لأمي الجالسة في الصالة تراقب جنوني، ثم قلت لها في سخرية:

- والله جنازتك كانت مشرفة... بس كانت نقصاكي.

أجابتني في مرارة واستكانة:

- إنت إيه شيطان.

قلت لها في بساطة متناهية:

- أعملك إيه.. فضحاني في كل مكان... فكان لازم أرتاح منك وأموتك.

قالت لي محاولة الخروج من إحباطها:

- بس أنا معايا اللي يثبت إني عايشة.

أطلقت ضحكة شيطانية، ثم قلت لها في خبث:

- كل حاجة اتظبطت زي ما أنا عايز.. شهادة وفاتك مختومة من الحكومة..

obeikan.com

جنازة فخمة حضرها شخصيات مهمة.. آه نسيت أنا طلعتلك بطاقة جديدة باسم جديد مالوش علاقة بيا.. وغيرتلك كل أوراقك في السجل المدني... ببساطة أمي ماتت فعلا وإنتي بقيتي في الحكومة واحدة تانية... من المستحيل تثبتي أي حاجة.

كانت دموعها تسيل ببطء، لكنها قالت في مقاومة ضعيفة:

- بس الناس لو شفوني هيعرفوا إنك كداب.

قلت لها ساخرًا:

- أغلبهم مش هيهتم علشان المصالح المشتركة.. ومافيش مانع من إطلاق إشاعة إن واحدة شبه أمي بتدعي عليا وكمان لزيادة الحرص هحطك تحت المراقبة وهمنعك من الكلام مع أي حد.

زاد نشيجها وهي تقول لي في مرارة:

- كل ده علشان كنت عاوزة أرجعك لحضني!

قلت لها في سخط:

- أفهمي بقى أنا خلاص كبرت وطرت برة العش... أنا خلاص ما عدتش محتاج حد يعوقني عن هدفي.. هدفي طويل المدى محتاج تفاني وصبر وإنتي حاجز.. حاجز نفسي أكتر منه مادي... كان لازم أخلص منك.. بس علشان إنتي أمي ولسه باقي عليكي.. حجمتك بس.

همست لي في عدم فهم:

- إنت ليه بقيت كده.. تصرفاتك غير منطقية... غير مفهومة.. تصرفات

obeikan.com

مالهاش أي لازمة.. كل رد فعل ليك أكبر من الحدث اللي بيحصل..

قلت لها في سخرية:

- تربيتك يا ماما.. بذورك اللي رمتيها في نفسيتي الخصبة للانتقام.. والحذر من الماضي اللي ممكن يطلع لي زي الشبح.. علشان كده لازم رد فعلي يكون قاسي حتى ولو كان غير مبرر.

صمت للحظات، ثم قلت لها وأنا أهم بمغادرة المنزل:

- دي آخر مرة أرحمك فيها علشان إنتي أمي... ألزمي البيت وهوفرلك كل اللي إنتي عايزاه.

همست لي في ألم:

- عايزة ابني.

قاومت ضعفي أمامها، رغم كل ما أفعله إلا أن القيد الحديدي الذي تربطني به إليها كلما كسرته شاعرًا بالتحرر، أجدني في داخلي أعيده لعنقي لأظل أدور في ركابها، ما زلت أريد أمي، لكني أقاوم من أجل هدف حياتي الذي زرعته هي داخلي، يا للسخرية أحاول الهرب منها لتحقيق حلم هي السبب فيه، أهرب منها إليها، هي سبب شقائي طوال حياتي ثم قلت لها:

- ابنك ماعدش ليه وجود.

صرخت بي في جنون وأنا أغلق الباب خلفي:

- أقتلني؟!

***

obeikan.com

في جلسة عائلية سخيفة، رأيتها، ابنة قيادي في المعارضة، قدمت لنا أنا ورئيس المخابرات المشروبات، ثم جلست في مواجهتي ناظرة للأرض، بعين بائع خبير قيمت البضاعة، وبعين رجل مخابرات محنك قيمت أباها المليونير وأحد زعماء المعارضة والشريك الرئيسي لأغلب رجال السلطة في الأعمال، هو رجل الحكومة لكن بشكل آخر.

هنا جاءت آخر مرحلة للتقييم، هل تشبههم؟، وجهها قريب من وجه أمي التي فقدت أجمل لحظات عمرها بأن تكون معي الآن، المرح المطل من عينيها يشبه علياء لكن علياء لم تكن نظرتها بريئة بل نظرة مليئة بالشبق.

تكاد تقترب من طموحاتي، لذا أومأت برأسي لمدير الجهاز، فأسرع في عملية بالتحدث في الموضوع وأنا أعلم جديًا أنهم على دراية به، زواج صالونات عادي جدًا لم أكن أظن أنني سألجأ إليه، قرأنا الفاتحة، وفي قلبي غصة جعلتني أهمس في مرارة:

- كان نفسي تبقى معايا... وكان نفسي تبقى إنتي.

بدأنا أنا وخطيبتي سلوى مدكور في التسكع معًا، في نادي الجزيرة والديسكوهات وعلى النيل، وجدتها ظريفة ولبقة، لكنها لم تمس قلبي، هناك مغاليق صدئة تمنعه من فتح بابه لها، ما زالت علياء تسيطر على كينونتي، أشعرني ذلك بالسخافة، فأنا أقابل علياء بل وأنام معها ورغم ذلك ما زلت أشعر بأنها ليست معي، علياء جعلت قلبي يزهد في كل النساء سواها، قلبي يحبها ويكرهها، يتعبد في محرابها ثم يلحد بسبب غطرستها وعنصريتها التي أشعرته بالدونية، أعتليها في قسوة مخرجًا كل غضبي وقهري لكني أشعر من نظرتها أنها هي من تعتليني كالحصان ولجامي بين

أصابعها توجهني كما تشاء.

أنا شخص تائه، كل شيء في داخلي ملخبط، بغض وحب لعلياء ولأمي في نفس اللحظة، سواد في روحي طاغٍ ضد العالم كله لكن انتقامي منه حب، قتلي للماضي ورجاله واجب لأتقدم إلى الأمام، أنا حقًا لا أعلم ما الذي أفعله؟، لكني كبطل مأساوي مجبر على إكمال الطريق حتى النهاية.

همست لي علياء من فوق فراش مهاب:

- خطيبتك حلوة.

أخذت ألف سيجارتي للحظات، وما كدت أنتهي منها حتى اختطفتها علياء في دلال، وأشعلتها لنفسها هامسة:

- أحلى سيجارة بشربها من إيدك.

لففت أخرى لي، ثم قلت لها في خبث وتمني:

- غيرانة منها.

أطلقت ضحكة ساخرة، ثم قالت لي في لا مبالاة:

- لا طبعًا... ما أنت كنت قدامي قبلها... أنا العلاقة بيني وبينك مجرد متعة متبادلة.. حب ممكن... غيرة لا.

طعنتني للمرة الثانية ليزداد كرهي لها، وتزداد عبوديتي لها، كلما جلدتني ازددت تعلقًا بها، كلما زاد كرهي لها زاد شغفي بها، وكلما زدت يقينًا بأنني أسير في الدرب الصحيح.

استلمت مهام عملي الجديد، أصبحت بفضل مهاراتي وحب رئيس

opelkan.com

المخابرات لي وعلاقات من سيكون حماي مندوب الجهاز في الرئاسة، همزة الوصل بينهما..

فتح أمامي عالم جديد، شاهدت عالم الرئاسة عن قرب، تعاملت مع الديوان الرئاسي، كونت صداقة جيدة مع رئيس الديوان، فعلمني البروتوكول الرئاسي وأعلمني بكثير من الأسرار والقرارات التي دفعتني لاستثمارها اقتصاديا، بدأت في تكوين شركات وشراء أراضٍ كانت ستخصص للاستثمار فمعرفتي بتلك القرارات مبكرًا ساعدني على الحصول عليها قبل الجميع، بدأت تحت ستار شركات حماي المستقبلي في بناء إمبراطورية سرية قوية، كنت دائمًا أسبق الجميع بخطوة، وأمام الجميع كان حماي يظهر بمظهر الرجل الذكي المطلع الناجح، لكني كنت المحرك السري للإمبراطورية التي أقلقت مضجع إمبراطوريات رجال أعمال آخرين، أعرب سامي عن قلقه من المنافسة غير العادلة، رغم أن والده في دائرة صنع القرار، إلا أنه لا يستطيع اختراق الستار الحديدي لسرية القرارات، فقلت له في بساطة وتلقائية:

- اعمل اندماج اقتصادي بين شركاتك وشركات مهاب.

لم يرد للحظات، ثم برقت عيناه في قوة، هاتفًا:

- فكرة عبقرية... كده الميزان هيتعدل ونقدر ننافس.

ابتسمت في سخرية دون رد.

قابلت الرئيس في الديوان بالصدفة البحتة، أسرعت بأداء التحية العسكرية، فابتسم لي في بساطة مصافحًا، فأسرع رئيس الديوان يقول له:

- مندوب المخابرات الحربية.

نظر إليّ للحظات بتمعن، فأسرعت أقول له في سعادة مقبلاً يده:

- أنا الظابط اللي باس إيدك في الاحتفال من سنين.

أطلق ضحكة متذكرة، ثم قال لي:

- افتكرتك.. عامل إيه دلوقتي.

قلت له في سعادة:

- بخير ما دمت مع حضرتك.

أسرع رئيس الديوان يقول له مشيرًا إليّ:

- ده ظابط مجتهد يا ريس...

أجابه في بساطة، مغادرًا المكان:

- شوف اللي فيه الصالح وأعمله... وممكن تديله ترقية استثنائية...

ترقية استثنائية دفعت بي إلى الأمام، اختصرت من عمري الكثير ووفرت عليّ مجهود التخلص من الطابور الذي يسبقني في الترقيات.

طوال الوقت أكون علاقات مع الضباط في مختلف أسلحة الجيش، وعلاقات في الرئاسة، حتى السيدة الأولى تقربت منها وأمددتها بمعلومات خاصة بالرئيس، مما جعلني من المقربين والمحظيين عندها.

أصبحت أعامل في القصر الرئاسي كصاحب بيت، لم أغضب أحدًا، لم أدخل في الصراعات والمؤامرات داخل أروقة القصر الرئاسي، فقط كنت

obeikan.com

أمد كل طرف بالمعلومات، ثم أبقى على الحياد، وكلما زاد الصراع أهملوا الدولة، وبدأت الدولة في الترهل والانهيار.

حددت يوم الزفاف بعد تسويف طويل، للأسف لم أحبها ولم أكرهها، لكني مضطر للزواج منها وخاصة وبعد تشابك المصالح، كنت أعلم أنها تعشقني رغم جفائي معها، رغمًا عني كنت أعاملها بقسوة عندما أقابلها بعد لقائي بعلياء، لا ذنب لها لكني كنت أعود من عند علياء مختل العقل مهزوم الروح، ظلام روحي كان يزداد كثافة لدرجة أنني كنت أود ركل أي شخص أراه أمامي أو الانتقام من أي سلطوي يقع تحت يدي، الشيء الوحيد الذي كان سيريحني هو الانتقام.

قبل الزفاف بيوم، كنت مع سامي الذي احتضنني فرحًا في شماتة، ثم أخبرني بأن إجراءات الدمج الاقتصادي على وشك الانتهاء وستصبح شركة عملاقة بقيادة مهاب كرئيس لمجلس الإدارة، باركت له هامسًا في خبث:

- بس إنت أجدر منه.

أجابني في لا مبالاة:

- مش مهم... المهم نقدر ننافس.

بذرت فيه بذرة الشك والحقد ثم تركته ذاهبًا إلى علياء، ما كادت تفتح لي الباب حتى انقضضت على شفتيها تقبيلاً، ثم دفعتها فوق الأريكة في عنف، وعلى لساني كلمة واحدة تأبى الخروج:

- أنقذيني... أنقذيني.

أبت الكلمة الخروج، مارست معها في عنف جعلها تصرخ من المتعة، تاهت في بحوري فلم تر دموعي وهي تسيل على جسدها متعبدة مناجية:

(دعينا نهرب معًا... نترك لهم العالم.. أنقذي روحي من ظلامها.. أنقذيني من شهوة الانتقام التي ستدمرني وتدمرك ثم ستحرق العالم كله... خذيني إلى جزرك اللامرئية واخفيني عن العالم... اهربي معي).

في لحظة النشوة الكبرى، أطلقت أنا صرخة لا بشرية، وشهقت هي لتغوص في عالم اللذة، ثم نامت تاركة إياي أراقبها في لوعة، هامسًا بصوتي المنطلق في ضعف:

- أنقذيني.

سألتني من وسط النعاس:

- بتقول حاجة؟

مسحت دموعي بيدي، وتمالكت أعصابي، وعاد الرجل الحديدي يسيطر، فقلت لها وأنا ألف سيجارة:

- مافيش... بقولك فرحي بكرة.

انتبهت لي بغتة، ثم قالت لي في دلال معتدلة:

- ليه هو أنا مقصرة معاك علشان تتجوز عليا.

ثم نزعت السيجارة من فمي لفمها متابعة في ابتسامة:

obeikan.com

- مبروك.

شعرت في داخلي بألم، ثم قلت لها ملتاعًا:

- مش هشوفك لفترة.

وجدتها تحتضني هامسة في تلذذ:

- هستناك... إنت الوحيد اللي بيقدر يأدب جسمي... النهارده بالذات كانت علقة سخنة.

قبلتها ثم رحلت وكلمة واحدة تدور في عقلي المتألم:

- أنا عاوز كلمة واحدة منك بدل كل ده... بحبك.

لكنها حتى الآن لم تقلها لي، قلتها لها آلاف المرات لكنها أبقت العلاقة بيننا عند حد المتعة، وهذا هو عذابي، جسدي يتمتع، لكن روحي ما زالت كالأرض العطشى.

تبادلنا النظرات في صمت، والحزن يخيم على منزل أمي، ثم قلت للخادمة:

- هي عاملة إية دلوقت.

قالت لي في احترام وأسف:

- زي ما هي من آخر مرة كنت حضرتك هنا.. الأكل بتاكله بالعافية والمحايلة

تنهدت في أسى، حاولت أمي التمرد عليّ لكني حاصرتها في كل مكان، ذهبت لمعارفي لتخبرهم بأنها على قيد الحياة منعها رجالي من التحدث

obeikan.com

مع أي بشري، وتجاهلها البعض الآخر لسطوتي.

ذهبت للملاهي الليلية وعربدت لتجبرني على التراجع، لكن رجالي كانوا حولها يخرجونها من أي مأزق تقع فيه في سرية تامة بدون ذكر اسمي، فشلت أمي تمامًا في إعادتي إليها، فزهدت العالم وتقوقعت على نفسها مكتئبة.

كنت كل عدة أسابيع أو أشهر أزورها عندما أتذكرها، لقد صدقت بالفعل أنها ميتة، قلبي جحد من ناحيتها بسبب انشغالي في المخابرات والبيزنس، وللحق كنت أفضل الجلد من علياء على الذهاب إليها.

كلما ذهبت إليها جلسنا نفس تلك الجلسة، نتبادل النظرات لدقائق مما يسبب لي الارتباك ووخزة في قلبي، فأسرع بلملمة نفسي مغادرًا قبل أن أضعف.

لقد انتهت أمي وتحولت لحطام إنسان، ولي الفخر، فعلتها من أجل الخلاص من قيودها المغللة لروحي، فعلتها ليكون طريقي في اتجاه واحد نحو الأمام.

- أنا هتجوز بكرة.

وجدتني أقولها كالرصاصة، فانتبهت إليّ خارجة من جمودها، وبدأت دموعها تسيل في صمت للحظات، ثم تحدثت إليّ لأول مرة منذ شهور:

- عاوزة أحضر الفرح... عاوزة أشوف ابني في الكوشة.. عاوزة أحضنك قدام المعازيم وأفتخر إني أمك.. عاوزة أشوف اللحظة اللي كل أم بتستناها.

ابتلعت لعابي في صعوبة، هامسًا:

- صعب.. إنتي ميتة... أنا جيت علشان أقولك بس.

زاد نحيبها، وهي تقول متضرعة:

- لازم أحضر... أنا أمك... أبوس إيدك ما تحرمنيش من اللحظة دي.. علشان خاطري.

لم أرد عليها للحظات مفكرًا، ثم قلت لها ببطء:

- ممكن تحضري بس بشرط.

سألتني في لهفة باكية:

- موافقة... شرط إيه؟

قلت لها زائغًا بعيني عنها:

- هتيجيي لابسة نقاب علشان ما حدش يعرفك كأنك من المعازيم.. وهسيب خبر بكده علشان ما حدش يتعرضلك.

زاد بكاؤها، صارخة في هستيريا:

- أنا عاوزة أبقى جنب ابني في الزفة... حرام عليك..

قلت لها في شراسة مصطنعة وقلبي يخفق في قوة:

- أسمعيني كويس... هتنفذي الكلام يا تستني هنا في حبسك الانفرادي تتكلمي مع الجدران وابنك بيتجوز من غير ما تشوفيه.. وكمان لو حاولتي تبوظي الفرح وتعلني عن نفسك مش هعتقك ورجالتي هيبقوا حواليكي لو حاولتي الغدر هيخرجوكي من غير ما حد يحس... هتنفذي التعليمات ولا

obeikan.com

نفضها سيرة؟!

نظرت إليّ في ضعف، فبادلت نظرتها بنظرة وقحة متحدية جعلتها ترتجف في ذعر، لذا همست هي في ضعف وإذعان للأمر الواقع:

- اللي إنت عايزه بس أشوفك في الفرح.

جلست أمي في آخر القاعة بنقابها وحيدة معزولة، لا أحد يؤنسها، فقط الكل يرمق تلك المنتقبة في دهشة ولكن بدون تعليق بسبب رجالي المحيطين بها، كان وجودها نشازًا في جوكله فساتين سهرة عارية الأكتاف والسيقان.

فرح مبهج أحياه عدد من المطربين والراقصات، وحضرة عدد مهول من الشخصيات العامة من الدولة والمعارضة من أجل حماي، ورجال الأعمال، ووفد رئاسي شرفتني على رأسه حرم الرئيس شخصيًا.

قبلني سامي في سعادة، وكذلك سارة التي قالت لي في خبث:

- علشان تبطل صرمحة مع جوزي في الشقة إياها.

قلت لها مندهشًا:

- إنتي عرفتي؟

قالت لي في بساطة:

- من زمان بس معدياها بمزاجي.

أتى الدور على علياء لتقبيلي، فهمست لها في لوعة:

- مش كان زمانك مكانها.

ضحكت في سخرية، ثم قبلتني ثانية هامسة:

- متتأخرش في شهر العسل عليا.

صافحت مهاب في قوة وأنا أنظر إليه في حقد جعله يسحب يده من يدي مرتبكًا.

رقصنا وشربنا نخب الزواج، والتقطنا صورًا مع كل رموز النظام والمعارضة، كل شيء كان مثاليًا، حتى أمي كانت مثالية فلم تحاول النكوص بالوعد.

التقى بصري ببصرها لأرى الدموع تسيل من خلف النقاب، أعلم أنها تشعر بالألم والعالم كلة يشارك ابنها فرحته وهي ممنوعة من التعبير عن فرحتها، شعور بشع لكني اضطررت له.

فجأة نهضت أمي وأنا قريب من مائدتها أنا والعروس عندما كنا ندور حول الموائد كالقطار، وجدتها أمامي، شعرت بالذعر وأنا أنظر إليها في رجاء ثم إلى رجالي لكنها أسرعت تقول في همس لعروسي:

- جوزك ده أنا اللي مربياه وتربيتي طمرت فيه فعزمني على فرحه.. طيب ومتواضع.

ثم اتجهت ببصرها إليّ قائلة في رجاء:

- ممكن أبوسك أنت وعروستك.

أشرت لرجالي المنقضين بالابتعاد، ثم انحنيت لها لتقبلني، ضمتني لحضنها في حنان لأرتجف من الألم والذعر، وأجدني أعود صغيرًا كما كنت، أجدني أشعر بالراحة في حضنها، كم أشتاق لدفئه وحنانه، ثم

قبلتني قبلة مبللة بالدموع، هامسة لي في حب جارف:

- ما حدش هيحبك قدي... عمري ماهبوظلك فرحك.. مهما عملت هتفضل ابني.

كتمت دموعي في صعوبة بالغة، هذه المرأة ما زالت تعرف كيف تسقطني من عليائي، هذه المرأة سبب شقائي.

)أمي قوتي وضعفي)

ثم قبلت زوجتي، هامسة لها:

- خلي بالك منه

ثم غادرت الفرح ومعها غادرني الفرح!!

obeikan.com

١٢

لقبت بأصغر مدير لجهاز المخابرات، أيامها لم أكن أتجاوز بدايات العقد الخامس من عمري، في حوالي الثانية والأربعين من عمري، وكل ذلك بفضل علاقاتي في القصر الرئاسي، وخاصة بعد سيطرة السيدة الأولى على مقاليد الحكم، وأصبحت هي حاكم البلاد الفعلي، وأصبح سيادة الرئيس – البركة- مجرد ديكور وخاصة مع تقدمه في السن وبدأ في فقدان صحته الجسدية، وأصابته بالشيخوخة المقرونة بما يشبه الزهايمر.

كنا نحكم البلد الموشك على الغرق بأسلوب كيد النساء، أصبحت القرارات تأخذ بالأهواء، بالحب والبغض، والمناصب يوضع بها المقربين من السيدة، ومناصب تنزع لأسباب مضحكة، كمثال زوجة الوزير التي ارتدت زيًا مشابهًا لزي السيدة الأولى في أحد المؤتمرات العامة، خطأ فادح دفع ثمنه سيادة الوزير بالإقالة من منصبه.

ناسبني هذا المناخ جدًا، فتخلصت من الطابور الذي كان يسبقني في الرتبة، وتمت إحالتهم للتقاعد ليشغر لي منصب مدير المخابرات، فاستحققته عن جدارة وخاصة وأنا مؤيد من السيدة الأولى والديوان الرئاسي.

أصبح الكيان الاقتصادي الخاص بحماي - وطبعًا أنا صاحب نصيب الأسد في أسهمه سرًا - أكبر كيان اقتصادي في مصر يليه شركة مهاب

وسامي التي كانت تتلقى الصفعات المتتالية بسبب سوء الإدارة والتي كان سببها صراع سامي ومهاب على الإدارة مما هدد الاندماج بالانفصال لولا تدخل والد سامي سيادة الفريق الآن وعضو المجلس العسكري، تدخل في آخر لحظة ليبعدهما عن إدارة الشركة، ويسلم القيادة لشخص أجنبي متخصص.

أوصلت لأمي خطًا ساخنًا مباشرًا من المخابرات لأطمئن عليها، وخاصة بعدما استسلمت للأمر الواقع، وعندما كانت تشتاق لرؤية ابني الصغير، كنت أرسله إليها وأنا أحذرها من أي اعترافات ليلية، وقد أقنعت زوجتي بأن تلك المرأة كانت جارة لأمي وقامت بتربيتي كأمي بالضبط، لذا من واجبي أن أودها.

عاد سامي للشقة القديمة لكن بنهم، بعدما أصبح شبه عاطل بسبب طرده هو ومهاب من قيادة الشركة، فأصبح يدخن الحشيش ليل نهار ويضاجع النساء بكثرة، حتى إن سارة اشتكت لي دامعة:

- أنا سيباه براحته علشان بحبه... بس كد انتحار.

ذهبت إليه وحاولت التفاهم معه، لكنه رفض التفاهم قائلاً لي في بساطة:

- إنت عارف إني ما بحبش القيود وبحب الحرية وهي كمان عارفة كده وموافقة على كده... مالهوش لازمة الكلام ده.

قلت له في حزم:

- بس إنت مزودها حبتين.. إنت بتنتحر.

قال لي في لا مبالاة:

- فاضي... أنا راجل فاضي.

أصبح لقائي بعلياء نادرًا جدًا، بسبب انشغالي ليل نهار في المخابرات والقصر الرئاسي بجور السيدة الأولى، وتخليص أعمال الشركة سرًا، كما أن زوجها أصبح شبه متفرغ لها، مما أدى لنشوب الكثير من المشاكل بينهما، اتصلت بي هاتفة:

- عايزاك.

قلت لها متحججًا:

- مش فاضي ورايا شغل كتير.

أجابتني في حدة:

- مستنياك في الشقة.

بعض النهايات لا تأتي بعد أحداث درامية عنيفة، بعض النهايات والتغيرات الجذرية تأتي هكذا بلا سبب طبيعي أو منطقي وربما لسبب تافه، كلمات بسيطة تتصاعد دراميًا متحولة لنهاية.

لم تعطيني فرصة بعدما فتحت لي باب الشقة التي كنا نتقابل فيها بعيدًا عن زوجها شبه المعتكف في المنزل بسبب إحباطه، نزعت عني ملابسي وتعاملت معي في قسوة حتى انتهت مني، ثم استرخت بجواري على الفراش هامسة من بين دموعها:

- أنا خلاص ماعدتش قادرة... كل يوم خناق وزعيق.

obeikan.com

صمتت للحظات ثم همست لي وهي تحيطني بذراعها:

- حتى إنت بقيت بخيل عليا.

قلت لها في شيء من المرارة:

- كان زمانك وخداني كلي.

هزت رأسها في ضجر قائلة:

- أنا زهقت من كلامك في الموضوع ده.. إحنا علاقتنا كده أحسن.. ما فيهاش ربطة المتجوزين.. فيها حرية ومرح.

قلت لها في ألم:

- والحب!

تنهدت في قوة، ثم قالت لي في حسم:

- مافيش حاجة اسمها حب... فيه مصلحة... أنا وإنت بنقضي وقت حلو مع بعض بيخلينا ننتعش ونرجع نكمل حياتنا.

قلت لها في مرارة:

- إنتي بتنتعشي.. بس أنا بعد كل لقاء بينا قلبي بيزداد برودة وقسوة... أنا كل مقرر أبعد عنك علشان أرتاح بلاقي نفسي برجعلك زي الكلب وأتمسح فيكي.

صمت للحظات لأمنع دمعة من الهبوط ثم قلت لها:

- أنا عاوز أسمع منك كلمة واحدة وصدقيني بعدها هاسيب العالم كله

obeikan.com

علشانك.

ظلت تنظر إليّ في استغراب، فتابعت في ألم ورجاء:

- عاوزك تحبيني... عاوز أسمع منك كلمة بحبك.

نهضت ببطء وهي تنظر إليّ مستنكرة ثم قالت لي:

- إنت مجنون..؟!

نهضت بدوري ثم ركعت أمامها ممسكًا بيدها ثم قلت مترجيًا:

- قوليها علشان ترحميني... قوليها وأنقذي روحي.

جذبت يدها من يدي في عنف بلا كلمة واحدة، لكن نظرتها المتعالية أخبرتني أنها ما زالت تنظر إليّ نظرتها المغرورة، ما زالت تراني عبدًا لها، ما زلت رغم وصولي للقمة بالنسبة لها لا شيء، هي ابنة سيادة الفريق في المجلس العسكري، وأنا رغم أنني مدير للمخابرات إلا أنني ما زلت خادمًا لهم.

للمرة الثانية تحطمني، لذا لملمت نفسي وقسوتى القديمة تعود بقوة، ثم في صلابة اكتسبتها عبر الأيام قلت لها:

- كان عندي أمل إنك تنقذيني من ظلام روحي بس للأسف روحك أكتر عتمة من روحي.. بس خلاص العبد أتعلم درسه الأخير... لازم العبد يكسر سيده علشان يركع سيده ويذله وياخد بحقه، وأنا هكسرك وهجيبك زاحفة لغاية عندي.

تردد صدى صفعتها لوجهي للحظات، وهي تهتف بي في شراسة:

obeikan.com

- تركع مين يا كلب.. إحنا أسيادك.

نظرت إليها في بغض قادم من روحي، ثم تركتها مغادرًا الشقة، وانتهت علاقتي بها لفترة طويلة.

***

في تلك الفترة تبدلت الحياة تمامًا في العالم كله، مع ثورة التكنولوجيا من هواتف محمولة بكاميرات وإنترنت، كل شيء أصبح سهلاً وفي متناول اليد.

لكن تلك الصحوة سببت لنا الكثير من المشاكل المهددة للنظام المهلهل فعليًا، نظام على حافة الهاوية يحتاج لدفعة صغيرة ليسقط للأبد.

كنت أنا من الأسباب التي تسرع من نهاية النظام، قلبي المعتم بسبب العنصرية كان يدفعني لخيانة النظام القمعي الذي صنعني، كنت في الجهاز أغير التقارير المحذرة من الكارثة وأبدلها بتقارير مريحة للنخبة الحاكمة، كل التقارير من مخابرات عامة وحربية وأمن دولة كانت تصب عندي أولاً ثم في ديوان الرئاسة الذي أحكمت قبضتي عليه، لذا كانت الصورة التي تصل للرئيس وللسيدة الحاكمة صورة وردية لبلد منعم ولشعب مرفه.

لم أحاول إخبارهم بالحقيقة لبغضي للجميع، وغضبي من شعب العبيد، لذا لم أحاول إيقاف الكارثة بل كنت أنفخ في النار لتكبر وتلتهم الكل.

والذي زاد من اقتراب وقوع الكارثة، ممارسات الشرطة غير الطبيعية نحو العبيد، انتهاكات وقتل وتعذيب جسدي وصل لمرحلة الفجر، كل ذلك كان موجودًا في العصور السابقة بنفس الغباء، لكن الهواتف والإنترنت وتصوير

تلك الانتهاكات أبرزها وجعلها تتردد على كل الألسنة، لكننا لم نهتم، الشعب خائف والعبيد لن يثوروا أبدًا لحبهم العبودية وقيودها.

الذي لم نضعه في الحسبان كان الشباب، هؤلاء الغارقون في التوافه، وفرنا لهم المخدرات، المواقع الإباحية، المقاهي ليجلسوا عليها بعد التخرج عاطلين، حاصرناهم بكل ما يشغلهم حتى عن الالتفات لمستقبلهم..

لكننا لم نعي معنى كلمة شباب، الشباب هو التمرد، هو الفعل غير المتوقع في الوقت غير المتوقع لأناس غارقين في التفاهات فينهضون بغتة بدون سبب لقلب الموازين.

كنت في ذلك الوقت أعيش حياة عادية مستقرة، زواج مثالي من إنسانة متفانية، لكنى للأسف لم أحبها، ولم أخلص لها، فقط عاملتها برفق أغلب الوقت.

ألهاني العمل المستمر في المخابرات والشركات عن هدفي الذي كرست حياتي له، لكني بلا وعي كنت أمهد له بتغيير التقارير وحجب بوادر الكارثة عن النظام الأعمى.

كنت أحضر مع الرئيس والمجلس العسكري الاجتماعات المهمة، وكنت أتقابل مع سيادة الفريق، أغلب تلك الاجتماعات كانت تنتهي إلى لا شيء عن البلد وأحوال الشعب، فأغلبها كان الرئيس يتودد فيها للمجلس العسكري لضمان ولائه ومقابل ذلك كان يزود لهم المخصصات المالية ويتركهم يستثمرون في كل شيء.

أما أنا فلقد قمت بواجبي نحو أصدقائي في كل قطاعات الجيش، لقد

خلصتهم بتقاريري من الرتب التي تسبقهم في الترتيب حتى أصبحوا الصف الثاني للمجلس العسكري، حتى في أمن الدولة أوصلت بعض أحبائي لمناصب كبيرة بفضل علاقاتي في الرئاسة.

كانت لي بفضل حماي علاقة ممتازة بالمعارضة، خاصة وموقعي يسمح لي بالاجتماع بهم من أجل الوطن.

أغلب الوقت كنت أطمئن على أمي بالرقم المباشر الخاص بها، كانت تتهمني بالتقصير نحوها، فكنت أتعلل بالعمل، لكن الحقيقة أنني عندما أزورها أتذكر الماضي ويبدأ حلمي القديم في الانتقام في البروز، لكني كنت أسحقه بعدما تعودت على الرخاء والثراء.

في إحدى الزيارات وعندما دلفت لغرفتي القديمة وجدت الكراسة الخاصة بي، وجدتني فيها قد قمت بالشطب على عمي وأشرف والمعلم وأصدقائي في الإعدادية، وكذلك أمي، فشعرت بألم نحو الأخيرة لكني محوته في سرعة.

توقف بصري في الكراسة عند اسم معذبتي، علياء، ظللت للحظات أنظر لاسمها في مرارة، إنت السبب الحقيقي في عذابي، إنت سبب تشوه روحي، إنت الوحيدة التي تشعرني بضالتي، مهما وصلت لمناصب أشعر أمامك بتفاهتي.

أمسكت بالقلم ودموع قليلة تتساقط على اسمها ثم كتبت بجوارها، اقترب الموعد

لا أعلم إن كانت تلك نبوءة أم أنني لا شعوريًا كنت أستعد للعودة لطريقي

وهدفي.

في الفترة الأخيرة في المخابرات كنت أشعر بدنو شيء ما، هناك رائحة غير طبيعية في الجو، أو هو مجرد حدس.

تجولت في البلد بسيارتي، لكني وجدت كل شيء طبيعيًا، الشباب على المقاهي، عبيد لقمة العيش كما هم يضربون وينزفون كرامتهم ويهللون لمنتهكي كرامتهم، أما الطبقة العليا فكانت كما هي تتجبر وتتسلط وتعيث فسادًا في البلد بدون خوف أو حذر.

أما القصر الرئاسي فكان كما هو يمر بفترة من التراخي والارتباك لتضارب القرارات بين الرئيس فاقد السيطرة ورجاله والسيدة المتسلطة برجالها من جانب آخر، بسبب الصراع تراخي الوزراء والموظفين الكبار في أعمالهم وتفرغوا للبيزنس ونهب الأموال، وأهملوا الشعب والبلد فزاد الغلاء والظلم وتوحشت الشرطة بأسلوب غير مسبوق في أشد الأنظمة ديكتاتورية.

أخرجت جميع الملفات الخاصة بالبلد والخاصة بالشخصيات المهمة ثم أخذت نسخة من كل ملف، راجعت الملفات ثم التقارير المخابراتية وتقارير أمن الدولة الخاصة بالأعوام الأخيرة، أصبت بالإرهاق لكني تابعت في حزم ضاغطًا على أعصابي، ثم كان استنتاجي المخيف بعدما وضعت أجزاء الصورة بجوار بعضها البعض.

تراخٍ من الدولة وتجبر رجال الأعمال تحت حماية الدولة، بالإضافة لقسوة غير مسبوقة من الشرطة، بالإضافة لتوهان في القصر الرئاسي، ثم هناك

obeikan.com

غلاء وبطالة وظاهرة غريبة لانتحار الشباب وظواهر غير طبيعية من احتراق قطارات بسبب الإهمال المستشري في البلد أو بسبب تهالك البنية التحتية وغرق العبارات بسبب الإهمال والتراخي من الجيش أو فرق الإنقاذ وهناك العنصرية ضد ابن البلد لصالح الأجانب مما يشعر المواطن بالدونية، ثم هناك دوري الخطير في تسفيه الأخطار المحدقة بالبلد في تقاريري، وأخذي للبلد في اتجاه خاطئ.

هناك بركان خامد على وشك الانفجار، وسيكون بيد الفصيل المهمش، لا أقصد المعدمين أو المعارضة بل أقصد أكبر فصيل في البلد، الشباب، كل تقارير متابعة الإنترنت تدل على صحوة شبابية قادمة، الشباب قادم والدولة النائمة لم تحسب حسابهم.

أغمضت عيني وتنهدت في قوة، هناك ثورة قادمة لو فشلت ستزداد الدولة تجبرًا، لو نجحت أمثالي سيضحى بهم وفي كلتا الحالتين سأخسر حلمي وفي النهاية لن يحقق أي شخص أي شيء، ما لا يعرفه الجميع أن الفساد هو أساس الدولة، وأي محاولة للإصلاح هو مخدر موضعي بلا قيمة، السرطان لا يعالج بالمسكنات بل بالبتر وإلا استفحل وقضى على الجميع.

ستظل العنصرية مسيطرة حتى ولو نجحت تلك الثورة، رأس المال ما زال مع الطبقة العليا ورأس المال هو المتحكم في مصائر الدول، لذا مع الوقت سيسيطر ويعيد الكبار إلى مواقعهم، ربما فقط تبديل في الوجوه، لكن النظام رغم ترهله سيظل مسيطرًا بالمال.

فكرة وحيدة عادت تلح عليّ، هذا البلد لن يصلح حاله إلا لو تساوت الرؤوس،

ولن تتساوى الرؤوس إلا لو فقد رأس المال دوره، ولن يفقد رأس المال دوره إلا إذا هدم البلد على رأس الشعب وتساوى الجميع وهرب من هرب ثم يبنى من جديد على أساس من العدالة الاجتماعية.

كان قرار جريء يلح على عقلي، الصف الثاني من قيادات الجيش معي، وهم شخصيات محبوبة، ولي رجالي في أمن الدولة والشرطة، ومعي المال اللازم، لماذا لا أرجع إلى هدفي الوحيد في حياتي؟، لماذا لا أترك حياة الرفاهية التي أستحليتها؟، لقد ضحيت بأناس كثر حتى أمي من أجل حلمي، فلماذا التلكع والتأخير؟ الفرصة لا تأتي غير مرة واحدة، والبلد الآن طيعة، ثم إنني لو فعلتها سأستطيع الانتقام من الكبار كما انتقمت من العبيد.

قلبي كان ينبض في حماس افتقدته منذ سنوات، منذ ألهتني حياة السادة، الآن كل ما أحتاجه هو الجراءة والمغامرة، لو نجحت ملفاتهم معي بكل فضائحهم وسأنشرها وأصبح بطلاً شعبيًا وبعدها أحقق حلمي، ولو فشلت ماذا سأخسر بعدما خسرت كل شيء، خسرت أمي قصدًا، وخسرت علياء غصبًا، وخسرت نفسي للأبد.

لذا لم يعد هناك شيء أخسره، لم يعد لحياتي أهمية، كل حياتي تسير نحو هدفي، هو فقط ما يبقيني حيًا..

لذا يا سادة قررت الانقلاب.

***

قامت الثورة

باغتتني أنا شخصيًا، والسبب غباء الشرطة المستفحل، هؤلاء الأغبياء

لا يستعملون العضو المسمى بالمخ أبدًا، بدأت ما تدعى بالثورة بوقفة احتجاجية عادية رأيتها مئات المرات وانتهت إلى لا شيء، لكن تلك المرة تفاقم الوضع بسرعة مخيفة لم تعطيني فرصة للتصرف أو تعطي حتى فرصة للقوة السياسة بالتدخل.

تفاقم الوضع بسبب التعامل الوحشي للشرطة مع تلك الوقفة الاحتجاجية المحتجة على التعامل الوحشي للشرطة، أعتقد أن هذا هو السبب في تحول الشرطة لثور هائج لأنهم شعروا بأنها تمس كرامتهم شخصيًا.

الشرطة تلك المرة لم تدرك حجم الخصم جيدًا، فهؤلاء الشباب بالحماس المتدفق في عروقهم يختلفون تمامًا عن شعب العبيد الذي نحكمه، لذا كانت المفاجأة حقًا من نصيب الشرطة التي وجدت نفسها تقابل خصمًا لا يستهان به.

تزايد التعامل الوحشي للشرطة، وازداد إصرار الشباب على كسرها وكسر هيبتها، ومع الوقت مال ميزان القوة للشباب مع تضاعف أعدادهم ومواجهتهم الموت بكل شجاعة.

ارتباك تام في الدولة، لم يعطينا حتى فرصة للتدخل والتهدئة وفي أيام قلائل اندحرت قوات الشرطة تمامًا واختفت من كل أنحاء البلاد وسيطر الشباب وبدأ ينزل معهم العبيد الذين شعروا بغتة بشبح الحرية يلوح لهم، واستغلت المعارضة الفرصة ونزلت ليس من أجل الثورة بل من أجل الضغط على النظام الحاكم والتفاوض معه على مكاسب خاصة بهم، فسيطروا على ميادين البلاد ومعها زاد حماسهم وتطورت مطالبهم لمطلب واحد أساسي

وهو عزل الرئيس.

إحباط شديد أصابني، فجعلني أسب للثورة وللشباب السذج الذين أضاعوا عليّ فرصة عمري في الانتقام، هؤلاء السذج لم يقرأوا التاريخ جيدًا، حتى ولو نجحوا لن يحكموا، فقط ستلخبط الأوراق ثم سيعاد ترتيبها بأشكال جديدة ولكن سيظل أسلوب الإدارة واحدًا.

كنت خلال الأشهر الفائتة أعقد لقاءات سرية مع رجالي في كل أنحاء البلاد من جيش وشرطة ورجال أعمال، أقنعت الكثير منهم وتخلصت من البعض الرافض، وبدأنا في السيطرة على الجيش بدعم الموالين لنا وترويج شائعات ضد المجلس العسكري حتى يكرهوه.

وبما أنني رجل مخابرات محنك فقد سيطرت على عدد من الإعلاميين الكبار، وكنت أزودهم بالتقارير التي تأجج نار الغضب ضد الرئيس ومن حوله.

كل شيء كان يسير في طريقه الصحيح، لكن الثورة التي لم أتوقع موعدها سبقتني في تنفيذ انقلابي، والسبب الشرطة الغبية اللعينة.

لابد لي الآن من إعادة ترتيب أوراقي، الآن لو نجحت الثورة وكان الشباب أذكياء سنعلق في المشانق، ولو كانوا غر سذج فإما ستفشل الثورة وستعود قبضتنا الحديدية للسيطرة وسأفقد أيضًا فرصتي أو ستأجل لوقت طويل بسبب حالة الانتباه التي ستصيب كل القطاعات أو ستنجح الثورة لكن الشباب لن يستطيع السيطرة والحكم لقلة الخبرة، وفي تلك الحالة سنعود أيضًا لكن ببطء.

في كل الحالات خسرت أنا فرصتي، خسرت حلم حياتي، هدفي في الحياة انتهى، لذا جلست في مكتبي مكتئبًا ولا شيء مما يحدث حولي يهمني، حتى الاجتماعات العاجلة كنت أذهب إليها متراخيًا أو لا أذهب على الإطلاق.

لقد انتهيت..

غلبني اليأس والغضب فوجدتني أتذكر الصوت المرسل، تذكرته فقط عند الاحتياج، طوال السنوات السابقة لم أتساءل لماذا أتى واختفى بغتة؟، طوال فترة الاستجمام الطويلة، لم أعط نفسي فرصة لتذكر الصوت، لهتني حياة الرفاهية، لكني اليوم أنا في أمس الاحتياج إليه، هيا حدثني وقل لي إنني قد عدت لصوابي، قل لي ما الحل؟ أهتف لي في تلافيف عقلي بأحد حلولك؟ على الأقل ثبتني ولا تتخلى عني في وقت الشدة، عود إلى لأعلم أنك لست غاضبًا مني وأنني ما زلت رسولك لهلاك الظلم والجبن والضعف في هذا العالم القذر، عد إليّ، لم أشعر بأي تغير، لا أحد يجيب، فقلت لنفسي في سخرية محبطة:

- مالهوش وجود.. ده وهم... أو الاتصال ما بينك وبينه انقطع.

في تلك اللحظات رن الهاتف لينتفض جسدي في قوة، هل عاد؟ لكن أتاني أغرب. اتصال عبر الخط الساخن المؤمن، اتصال من شخص لم أتوقعه، عبر الهاتف أتاني صوت أمي متسائلاً:

- إيه اللي بيحصل في البلد؟

أجبتها في ضيق:

- ثورة... شوية عيال عملوا ثورة.

صمتت أمي للحظات ثم سألتني:

- مش أنت اللي ورا اللي بيحصل ده.. مش ده حلمك.

أجبتها في سخط:

- مفيش ثورة بتنجح في البلد دي.. العيال دي هتفشل وتغرقنا كلنا وهيضيعوا لي حلمي... البلد دي مابينجحش فيها غير الانقلابات.

كررت سؤالها في حزم:

- مش إنت ورا الثورة.

أجبتها في ضيق:

- قولتلك لأ... مش أنا اللي وراها.

أجابتني في حنكة وبساطة:

- خلاص خليك وراها.

ثم أغلقت الهاتف بدون حرف زائد، هذه المرأة ما زالت عبقرية، ما زالت تتمتع بعقل الساحرة الشريرة، بالفعل هذا هو طوق النجاة لهدف حياتي، تلك المرأة أعطتني السلاح الجديد للفوز وتصحيح المسار.

)هذه المرأة قوتي وضعفي).

لابد أن تنجح تلك الثورة، لو فشلت الثورة وأصبحت العيون مستيقظة لن أجد العمر لأنقلب محققًا هدفي، لكن الثورة لو نجحت وأنا خلفها ستعطلني

obeikan.com

قليلاً فقط ثم أعود بالطريق لمساره الصحيح، لابد أن أصبح كما قالت لي أمي خلف الثورة، كلا لست قائدًا لها بل معين لها، وصاحب فضل عليها وعلى شبابها.

لابد أن تفشل القوى في الوصول لحلول للأزمة، لابد للرئيس أن يظل على موقفه المتمسك بالسلطة، لابد من استخدام موهبتي وتقاريري الخاطئة في أخذهم إلى حتفهم.

حان وقت العمل الحقيقي.

حان موعد أذان الثورة.

***

صافحت سيادة الفريق وبعض من أعضاء المجلس العسكري، وكان التوتر هو سيد الموقف، وكنا نتناقش في غضب، لحظات ودلف السيد الرئيس ليكتمل مجلس الأمن الوطني بقيادة سيادته.

تجادلنا وتناقشنا وحدث تلاسن، لكن الرئيس أوقف كل هذا بصوته الصارم هاتفًا:

- أنا عاوز حل مش جدل عقيم.

قال له وزير الدفاع بعدما نظر لوزير الداخلية في اشمئزاز:

- حضرتك عارف أن الداخلية انكسرت، وشوية العيال سيطروا على البلد، فنفذنا أوامر حضرتك والقوات المسلحة نزلت تأمن البلد والناس استقبلوهم كويس.

obeikan.com

صمت للحظات، فسأله الرئيس في حدة:

- بس إيه... كمل كلامك.

أجابه في شيء من التردد:

- عملنا اجتماع مع المعارضة بقيادة وزير المخابرات العامة.. واتفقنا معاهم على إنهاء الوضع المضطرب مقابل بعض المكاسب وبعض الوزارات بس العيال رفضوا ترك الميادين لغاية حضرتك ما تسيب الحكم.

أخذ ينظر في وجوهنا للحظات، ثم قال في صرامة خائفة:

- أنا ممكن أسيب الحكم بس البلد من غيري هتضيع.

ثم أشار إلينا متابعًا في قسوة:

- وأنتوا كمان هتضيعوا... كلنا في مركب واحدة... لازم تشوفوا حل للكارثة دي..

صمت للحظات، ثم سأل مدير المخابرات العامة:

- الشعب رأيه إيه في اللي بيعملوه الولاد دول؟

أجابه في سرعة:

- حضرتك اللي في الميادين مش كتير قوي.. أغلب الشعب في البيوت مستني اللي حيحصل... الأقلية مع العيال دول... الأغلبية ما بين مؤيد لحضرتك والاستقرار أو مالوش رأي.

سأل الرئيس وزير الدفاع في حزم:

obeikan.com

- تقدر تتخلص من العيال دول.. هديك أمر بفض الميادين.

لم يرد وزير الدفاع وهو يتبادل النظرات مع الجميع في قلق، فمن الواضح أن الرئيس كبر في السن ولم يعد يدرك شيئًا، فأسرع أحد القادة بالرد مترددًا:

- ما ينفعش حضرتك... العالم كلة مترقب للأحداث.. الخطوة دي اتأخرت.

زفر في غيظ، متسائلاً في غضب:

- يعني إيه أسيب الحكم علشان شوية رعاع.

لم يرد عليه أي منا، والصمت مخيم علينا في أسى، ثم قال وزير الإعلام بغتة:

- فيه حل ممكن يدينا أمل ولو ضعيف.

سأله الرئيس في لهفة الغريق للأكسجين:

- قول بسرعة.

أجابه في سرعة كما طلب:

- الشعب بتاعنا عاطفي جـدًا.. ومحب للاستقرار حتى ولـو مالقاش الأكل.. والعشرة مابتهونش عليه... وهما مايعرفوش غير حضرتك من سنين طويلة... فلو جهزنا خطاب مؤثر لحضرتك يكتبه متخصصون من إعلاميين ودكاترة علم النفس.. ممكن كلامك يقلب الشعب على العيال دول.

obeikan.com

تناقشنا وتجادلنا كثيرًا في ذلك الاقتراح، لم نجد أمامنا غيره، فانفض الاجتماع لأسرع أنا بعقد اجتماع خاص بي، لابد من إفشال الرئيس.

***

- نصف ثورة... نصف انقلاب

بدأت بتلك العبارة اجتماعي السري مع قيادات الصف الثاني بالجيش والشرطة وبعض الأصدقاء من رجال أعمال وإعلاميين، تبادلوا النظرات في عدم فهم، ثم سألني أحدهم:

- قصدك إيه؟

قلت له في هدوء:

- طبعًا خطتنا الأولى في الانقلاب باظت بسبب الثورة المشتعلة حاليًا وكل الحسابات أتغيرت، فمافيش قدامنا غير حلين، الأول دعم الرئيس وبقاء الوضع كما هو، والثاني وده اللي أنا ميال ليه وهو دعم الثورة بنصف انقلاب لتصبح الثورة غير مكتملة الأركان.

سألني أحدهم في حذر:

- مش الأولى لينا دعم النظام الحاكم.

قلت له في حزم:

- بالتأكيد وبكده كل واحد منكم هيفضل في مكانه.. وهتفضل القيادة بأيديهم... بس لو نجحت الثورة بأيدينا إحنا هيبقى لنا ظهير شعبي قوي

obeikan.com

يدعمنا بعدين لما نحب نستخدمه... هنبقى أبطال عند الشعب.

صمت للحظات ثم اتجهت بكلامي لرجال الأعمال بالذات:

- أنتوا بالذات ليكو دور مهم معايا النهارده... الريس هيخطب في الشعب محاولاً إقناعهم بترك الميادين... لو فشل كده هيبقى تمام لكن لو نجح هنخسر كل حاجة.. فلازم يفشل وده دوركم.

صمت ثم أشرت للإعلاميين متابعًا في قوة:

- وهنا هييجي دوركم في تأليب الناس ضده.

تنهدت في قوة ثم قلت لهم في شراسة ثعبان جائع:

- بالنسبة لقادة الجيش اللي معايا يستنوا مني إشارة لتنفيذ الخطة القديمة بس لصالح الثورة... يلا نراجع محاور الخطة ونشوف دور كل جهة من جيش لرجال أعمال لإعلاميين.

ثم تراجعت في مقعدي مبتسمًا.

دمعت عيناي مع كل كلمة من خطاب الرئيس، وبدأت الميادين في الانفضاض التلقائي تعاطفًا مع العشرة القديمة، ولم يبق غير الأنقياء ثوريًا في الميادين، أما المعارضة فقد هجرت الميادين، إما خوفًا أو حفاظًا على مكتسبات ووعود بمكاسب، وقد شعر الجميع بنهاية الثورة، لكن كان لي رأي آخر، لن أخسر الحرب.

التقطت سماعة الهاتف، ثم قلت للطرف الثاني كلمة واحدة:

- نفذ.

obeikan.com

ثم أصدرت أوامري للقادة التابعين لي، والمسيطرين فعليًا على الجنود، بفتح الطرق للخطر القادم، ثم اتجهت لخزانتي السرية واطمأننت على ملفات قادة النظام..

وبدأت اللعبة.

هجوم كاسح على الميادين من بلطجية ومأجورين، وبدأ الإعلام الموالي لي في بث المشاهد وإظهار وحشية النظام الغادر، وتهامس الجميع:

- ولاد الوسخة ضحكوا علينا بكلام عاطفي علشان نمشي ويستفردوا بالعيال ويقتلوهم.

بعدما كانت الميادين شبه خالية، عاد الطوفان إليها من جديد وعادت الروح للميادين بفضل عشرات القتلى والجرحى.

وهنا أتاني اتصال من الرئاسة لعقد اجتماع عاجل، التقطت سماعة الهاتف وللمرة الثانية قلت كلمة واحدة:

- نفذ.

التقيت بسيادة الفريق الذي كان يقول لي مذهولاً:

- هو إيه اللي بيحصل... أنا نمت وكل حاجة تمام والثورة خلاص على وشك الموت... مين ابن الجزمة اللي عمل كده وخلى الناس ترجع تاني.

قلت له في خبث:

- رجال الأعمال لما الميادين فضيت.. قالوا نوجب مع الريس ونخلص خالص على العيال.

obeikan.com

هتف بي في سخط:

- أغبيا... ضيعوا كل اللي الريس عمله... فقدنا كل التعاطف تاني.. والناس ملت الميادين وبقينا في وضع حرج مالهوش حل... إحنا بنقع.

لم أرد عليه لدخول الرئيس إلى الاجتماع ودخان الغضب يتراقص فوق نيران رأسه، جلسنا كلنا في صمت، ثم هتف بنا الرئيس في حدة:

- مين الغبي اللي عمل كده.

لم يرد أحد وكلنا ننظر لبعضنا البعض في توتر، أما أنا فقد كان قلبي ينبض في قوة شديدة وخاصة مع السؤال المحبط للريس واضعًا يده تحت فكه:

- حد عنده حل؟

ساد الصمت وأنا أفرك يدي في توتر وانتظار، ثم أعلن هاتفي الخلوي - الذي لم أسلمه للحرس كما نفعل دائمًا في اللقاءات المهمة والسرية - عن اهتزازة قوية، فشعرت بالراحة ثم نهضت قائلاً في قوة:

- الحل عندي.

سألني الرئيس في لهفة والعيون تتابعني في انتظار:

- إيه هو؟!

قلت له في هدوء:

- حضرتك كفاية عليك كده.

رمقني في ذهول، وتعالت الأصوات المستنكرة، لكني تابعت في حزم:

- كلكم كفاية عليكم كده.

ومع آخر كلمة اقتحمت قوة من رجالي الاجتماع، وفي سيمفونية منتظمة أصبح خلف الرئيس وكل قيادي في الدولة والجيش ضابطان، حدث هرج ومرج والرئيس يهتف غير مصدق:

- فيه إيه؟!

وتعالت الأصوات بين القادة مستنكرة ومهددة، لكني قلت لهم في قسوة:

- إحنا سيطرنا على الجيش والثوار على البلد.. وأنتم رهن الإقامة الجبرية... فبلاش أي محاولات مالهاش فايدة..

ثم أشرت لرجالي، فتم إلقاء القبض على الجميع وترحيلهم لمكان سري، وعندما مر الفريق من جواري نظر إليّ في ترجٍ وعتاب، فربت على كتفه هامسًا:

- ماتقلقش كله علشان نهدي الشعب وبعدين كل حاجة هترجع زي الأول.

برقت عيناه في أمل، فأطلقت ضحكة ساخرة، متابعًا في قسوة:

- أنا بهزر معاك... عصركم انتهى وبدأ عصري.

سالت دمعة من عينه والضابط يجذبه للخارج، لا يوجد وقت لنضيعه، البلد على صفيح ساخن، ولا أحد يعلم بأمر الانقلاب غيري أنا ورجالي، فالعالم كله مشغول بالميدان، لذا لابد من ترتيب الأوراق قبل إعلان البيانات الموضحة للأحداث.

الاجتماع الأول للمجلس العسكري الجديد تحت قيادتي كوزير للدفاع في

ترقية استثنائية أعطيتها لنفسي، سألت رجالي في سرعة:

- تقرير سريع عن الأحداث.

أجابني مدير المخابرات الجديد المرقى منذ دقيقة واحدة:

- لم تكن هناك مقاومة تذكر داخل قطاعات كثيرة من الجيش.. أعلنت الكثير من الفرق والكتائب الولاء لسيادتكم وخاصة وهم على علم بالتوتر في البلاد... الأغلبية وجدت أن ذلك حل ناجع للأزمة.. بعض المناوشات وتمت السيطرة عليها والقبض على بعض الضباط الموالين للمجلس العسكري السابق.. الآن الجيش في انتظار الأوامر من سيادتكم.

أشرت إليه بالجلوس، ثم قلت للمتحدث العسكري:

- جهزت البيان الأول؟

أومأ برأسه قائلاً في سرعة:

- العربية مستنية حضرتك علشان تروح للتلفزيون.

هززت رأسي بالنفي ثم قلت له في عملية:

- أبعت لرؤس المعارضة والقيادات الشبابية وهاتهم هنا في اجتماع سريع وبعدين جهز كاميرات التلفزيون علشان هنذيع البيان من داخل مقر الاجتماعات في حضور المعارضة والمجلس العسكري الجديد لنكسب المصداقية وندمر أي أمل للموالين للنظام السابق.

أستحسن المجلس كلامي، وبدأت المشاورات وبدأت السكرتارية في دعوة المعارضة للمجلس الجديد.

obeikan.com

١٣

البيان الأول: (قمت بإلقائه والمجلس العسكري وشباب الثورة والمعارضة حولي):

(استجابة لثورة الشعب المقدسة على النظام الفاسد، وتلبية لدماء شهداء الشعب، قامت قواتنا المسلحة الوطنية بعزل الرئيس الفاسد والمجلس العسكري ملطخ اليد بدماء الشهداء، وتم تكوين مجلس عسكري وطني في حضور قوي الثورة والمعارضة وتم تعيني وزير دفاع مؤقت، وسيقوم المجلس العسكري الجديد بإدارة شؤون البلاد حتى يتم تسليمها لنظام جديد منتخب من الشعب، أيها الشعب العظيم لقد ثورنا على الطغاة من أجلكم، ولن تنام لنا عين حتى يتم القصاص من طغاة العهد البائد، وستسهر قواتنا المسلحة من أجل راحتكم، حمى الله الوطن وحفظ الله رجال قواتنا المسلحة، ورحم الله شهداء الوطن).

تلقيت التهاني على البيان العظيم من الجميع، وأخذنا نشاهد فرحة الشعب والثوار في الميادين والشوارع، وأذاع التلفاز البيان مئات المرات مع أغانٍ وطنية وصورتي تطبع وتوزع في كل مكان كبطل أسطوري أنقذ البلد من الضياع.

حاول سامي كثيرًا الوصول إليّ من أجل أبيه، يوميًا يأتي للقصر الرئاسي أو لوزارة الدفاع أو المجلس العسكري، تحدث مع العشرات من رجال الجيش

أو رجال الأعمال، لكن لم يبلل أحد جوفه الجاف، حاول محادثتي لكني كنت مشغولاً وفي أحيان كثيرة لم تصلني مهاتفاته لمنع رجالي لها بسبب ضغط العمل، ثم أصبح يأتي وينتظر في السكرتارية ثم يعود بخفي حنين هذا ما أخبرني به رئيس الديوان الرئاسي الذي تابع قائلاً:

- هو بره دلوقتي.. أدخله ولا أمشيه؟

صمت للحظات، ثم قلت له في بساطة:

- دخله.. ده صديق قديم وله واجب عندي.

دلف سامي مع صوت الهاتف المؤمن، مد يده إليّ فصافحته وأشرت إليه بالجلوس بلا كلمة ثم رفعت السماعة ليأتي إليّ صوت أمي باكيًا في فرح:

- مبروك يا حبيبي... حاولت أكلمك كتير بس أنت كنت مشغول وماردتش عليا..

قلت لها في حذر، وأنا أتابع سامي القلق:

- شكرا ليكي.

قالت لي في سعادة:

- حلمك أتحقق ناوي على إيه؟

نظرت لسامي للحظات ثم قلت لها في بساطة:

- لسه شوية.. الطريق لسه طويل.

ثم انتهت المحادثة بتهنئة أخرى، ثم التفت لسامي قائلاً له في شيء من

البشاشة:

- لازم تشرب حاجة.. تشرب إيه؟

أجابني في عملية والقلق يقتله:

- ولا حاجة... أنا كنت عاوز أطمن بس على بابا... البيت كله قلقان.

قلت له في هدوء:

- ما تقلقش... هو في أمان.. أنت عارف التوتر اللي في البلد.. البلد كانت هتضيع فكان لازم نتصرف... شوية كده والأمور تهدا وكل حاجة ترجع زي زمان.

سألني مترجيًا:

- ممكن أشوفه؟

هززت رأسي في أسف، قائلاً:

- صعب.. المكان سري وممنوع حد يعرفه... بس أطمن هو زي والدي ولا أنت ناسي!

هز رأسه في أسى وتوتر، في تلك اللحظات كنت أشعر بأنني السيد المطاع وسامي عبد عندي ينتظر مني العفو، ساد الصمت المتوتر لدقائق، ثم سألته مغيرًا دفة الحديث:

- الشغل عامل إيه؟

أجابني في مرارة:

obeikan.com

- البلد واقفة والشركات بتعاني.. حتى المدير الأجنبي هرب وأنا رجعت أدير الشركة بعد ما مهاب رفض لما لقاها بتنهار.. وهددني إني لازم أصلح وضع الشركة وإلا هيكون له تصرف تاني.

سألته في حذر وقلبي يرتجف:

- وعلياء عاملة إيه... مع مهاب.

أجابني في مرارة:

- طوال الوقت خناق وتهديد بالطلاق.. واتهامات في الشرف بس الوضع دلوقتي ما يسمحش بأي رد فعل.. كلنا مستحملين علشان بابا... ولما يخرج هنصفي كل حاجة ونسيب البلد.

شعرت بالهلع، لن أسمح لهم بالمغادرة، لابد أن يبقوا ليشاهدوا النهاية العبقرية، لذا قلت له في حسم:

- بما إني قائد المجلس العسكري.. هادعملك شركاتك بس بشرط ما تحاولش تبيع وتسيب البلد.

صافحني في تأثر:

- شكرًا لك.

لا تشكرني بل أشكر علياء، كل هذا من أجل بقائها في مصر حتى تأتي إليّ راكعة.

***

obeikan.com

البيان الثاني

(لحرص القوات المسلحة على حياة ديمقراطية سليمة فيها تعددية وحرية، ومن أجل دماء الشهداء الذين ضحوا بأنفسهم من أجل العيش والحرية والعدالة، قررت القوات المسلحة وضع دستور جديد للبلاد يقوم على كتابته أساتذة القانون في البلاد يتضمن مطالب الشعب من العدالة والمساواة، وذلك خلال شهر من الآن على أن يكون هناك استفتاء شعبي على الدستور ثم يفتح باب الترشح للانتخابات الرئاسية في مدة لا تتجاوز الشهرين ليكون هناك قيادة سياسية تنهض بالبلاد وتعود القوات المسلحة للقيام بواجبها المنوطة به تاركة إدارة البلاد في أيدٍ أمينة قد قام الشعب باختيارها، حفظ الله الوطن).

بعد البيان الثاني أصبحت أنا البطل الأسطوري الذي لا يشق له غبار، ودانت لي قوى المعارضة بعدما تأكدوا أنني غير طامع في السلطة.

بثت رجالي في الإعلام، محاولين إقناعي بالترشح لمنصب الرئيس لكني في بيان صارم رفضت تمامًا الترشح للرئاسة، مفضلا البقاء في منصبي لخدمة الوطن..

زاد رصيدي عند الشعب والمعارضة، وسألني أحد رجالى:

- بس دي فرصتك وجاتلك لغاية عندك!

قلت له ضاحكًا:

- الصبر مفتاح الرئاسة... دلوقتي الشباب لسه متحمس وأي حد هيوصل للسلطة هيعاني من حماس الشباب واستعجالهم في تحقيق الطلبات..

هيحصل صدام لا محالة وكل طرف هيطالبنا بالتدخل وهتيجي فرصتنا بس الصبر لغاية ما كل الأطرف تنهك وناخد البلد على الجاهز من غير مقاومة بل بالترحاب.

اقتنع رجالي بكلامي، لكني للأسف رغم ترحيبي بالسيناريو الذي أخبرتهم به وهو ما أتمناه للوصول لحلم عمري، إلا أن نازعًا غريبًا كان يأخذني لاتجاه آخر، لم أصدق نفسي عندما شعرت به، لوهلة تمنيت النجاح للمعارضة والشباب في النهوض بالبلد وتحقيق حلمي لكن بأسلوب آخر بدلاً من الانتقام والهدم، يحققون حلمي بالعدالة والبناء.

بقعة من الضوء تسللت إلى ظلام روحي، بقعة صغيرة لا تكاد ترى، لكني شعرت بها عندما شاهدت فرحة الشباب بنجاحهم، بحريتهم، أحسست بالنور عندما وجدت الشباب المتحمس ينظف بلده ويجملها.

أنا كنت أريد الانتقام من السادة لعنصريتهم ومن العبيد لجبنهم، لكن العبيد أفرزوا أحرارًا أليس من حقهم أخذ فرصتهم كما أخذ الجميع فرصته.

صراع مرير داخلي بين ضوء الحرية الوليد وعتمة روحي بسبب السادة والعبيد، ظلام روحي بسبب شهوتي للانتقام من العالم المختل غير العادل، لذا قررت أن أعطيهم فرصة أخيرة، إما الإصلاح أو العودة لطريقي الذي انحرفت عنه كثيرًا في الآونة الأخيرة.

نجح الاستفتاء على الدستور برقم يقترب من الكمال، رغم اعتراض البعض على المادة التي أضفتها أنا والقوات المسلحة رغمًا عن الجميع،

وهي تحصين موقع وزير الدفاع ضد العزل، وبذلك ضمنت بقائي كما أشاء.

هاتفني سامي كثيرًا من أجل والده، فكنت أبشره بالخير وأطمئنه على صحة والده، وكنت أماطله بأن البلد سيكون لها رئيس بعد مدة قصيرة وسأجعله يصدر قرار عفو عن أغلب رجال النظام.

صراع مرير بين المعارضة وبعضها البعض، حرب تكسير عظام للوصول لكرسي الحكم، حتى حماي كان يؤيد المرشح الخاص بحزبه طالبًا مني دعمه، لكني قلت له في حزم:

- القوات المسلحة لن تتدخل في الحياة السياسية.

وبالفعل أشرفنا على حماية الانتخابات بدون تدخل، وذلك أملاً في حياة عادلة للجميع، ووصل للحكم قائد أكبر حزب معارض في البلد وأقسمنا له بالولاء ومنحني عدة أوسمة تقديرًا لدوري في الثورة.

ثم تم تشكيل الحكومة وأتى فيها حماي وزيرًا للسياحة، وبدأ العمل الحقيقي، عشرات الملفات الشائكة، سياسية واقتصادية من بطالة وفقر.

لكن الذي أزعج النظام الجديد هو بدء نغمة محاكمة النظام السابق، ماطل النظام الجديد في تنفيذ الطلب، فخرج الشباب المتحمس في مظاهرات ضاغطة، تعامل معها النظام الجديد بهدوء، طالبًا من الشباب إعطاءهم فرصة للدراسة والبحث عن الأدلة.

أخذت نسخة من ملفات رجال النظام السابق وذهبت بها للرئاسة وجلست مع الرئيس وطالبته بمحاكمة النظام السابق على الدماء والنهب، فنظر إليّ

الرئيس في ارتباك ثم قال لي في توتر:

- مش هاينفع... فيه ضغوط خارجية من أجل عدم المساس بيهم وكمان فيه فلوس كتير متهربة ممكن نفاوضهم عليها.

قلت له وأنا أنظر إليه كرجل مخابرات سابق:

- وفيه مصالح مشتركة وشركات ومصاهرات.

نهض من مقعده هاتفًا في حدة:

- ماسمحلكش بالتلميحات دي إنت بتكلم رئيس الجمهورية.

لم أتضايق منه، بل أشرت له بالجلوس قائلاً في برود:

- الشباب محتاج فرصة.. محتاج يحس إنه غيّر البلد دي.. محتاج يحس إن خيرها ليه والأيام الجاية ليه.

أجابني في سرعة ساخرة:

- بلاش الكلام الكبير ده... بص حواليك كده.. الناس رجعت تاني تدور على لقمة العيش والأمان ما حدش فاضي لثورة وكلام فارغ.. إنت عارف لو الثورة كانت طولت وحال الناس وقف كانوا نزلوا وقتلوا الشباب علشان الحياة تمشي.. فبلاش كلام فارغ... أما الشباب المتحمس فسهلة يا سيدي هنتعامل معاهم.

بالفعل كانت سياسة النظام الجديد مثل القديم، كلها مدرسة واحدة تفرخ رجالاً للنظام ورجالاً للمعارضة، لكنهم جميعًا نسخ مستنسخة من بعضهم البعض.

obeikan.com

بدأت مفاوضات مع رموز النظام السابق بإرجاع بعض المال مقابل مغادرة البلاد، ولقد علمت من رجالي في الرئاسة أن هناك عمولات كبيرة لصالح رجال النظام الجديد مقابل تسهيل خروج الرموز السابقة للنظام القديم.

وعلمت أن سامي تفاوض معهم على إطلاق سراح والده مقابل مبلغ ضخم من المال، وعلمت أنهم حذروه مني لذلك لم يعد يحادثني أو يسألني عن والده.

أما الشباب فتم تفرقته ما بين الشباب الموالي لهم، وقيادات الشباب غير الموالي، تم إغراء البعض بالمال والمناصب، والبعض بالتهديد وإلقاء القبض عليه.

وانتشر الشباب الموالي في التلفاز لإقناع الشعب بحنكة النظام الجديد، وأن الحي أبقى من دم الشهيد، والمال أفضل من القصاص من النظام السابق.

تفرق الشعب كالعادة ما بين مؤيد لحكمة الرئيس وهم الأغلبية المحبون لحياة الاستقرار والأمن مقابل الشباب الثوري الذي أصبح في نظر الأغلبية الشباب الذي سيخرب البلد، الشباب العميل.

لذا مع أول مظاهرة ضد التصالح مع النظام، قامت الشرطة المجروحة بالتعامل القاسي مع الشباب من قتل وتعذيب واعتقال بمباركة شعب العبيد الذي رفض الحرية والكرامة مقابل الأمان والاستقرار الزائف.

بدأ النظام القديم يستعيد مكانه بمباركة شعبية وتحت حماية النظام الجديد بمبدأ أهل مكة أدرى بشعابها، وبدونهم ستتوقف الدولة لأنهم

obeikan.com

يعرفون مكان كل ترس بها..

لذا أخرجت كراستي القديمة وأضفت النظام الجديد.

***

أظلمت غرفتي ومعها انطفأت نقطة الضوء الوليدة وعادة إلى قسوة روحي وقلبي، لقد عاد العبيد إلى سابق عهدي بهم، يقبلون أيدي الأسياد ويسيرون بجوار الحائط طمعًا في لقمة العيش.

وعاد الأسياد إلى طغيانهم ونظرتهم المتعالية للعبيد، وخاصة وأحدهم يقول لي في سخرية:

- الجرابيع كانوا مفكرين إنهم هيحكموا البلد.. قال عاوزين يتساووا بأسيادهم.. أغبيا... إحنا انحنينا لغاية العاصفة ما تمر وبعدين رجعنا بوشوش جديدة.

كل حقدي السابق عاد كالإعصار يطيح بثباتي الانفعالي، كعادتي ضعفت وانحرفت عن طريقي لأخسر كل شيء، لكن لا هذه المرة لن أضعف، لن أترك طريقي أبدًا، سأحقق حلمي مهما كانت الصعاب ومهما كان الثمن، سأهدم دولة السادة والعبيد، كلاهما لا يستحق الحياة، كلاهما لن تخسر الحياة بغيابه شيئًا، هذا الوطن في مجمله لا يساوي شيئًا.

كنت أمني نفسي بالضغط على النظام الجديد لمحاكمة النظام السابق، فتشعر علياء بالذعر على أبيها فتأتي إليّ راكعة مترجية، لكنهم بحماقتهم أضاعوا عليّ أهم لحظة في حياتي، لحظة أن أكون سيدًا على علياء.

تبادلت أنا وأمي النظرات للحظات، فشعرت بها تفك كعادتها شفرتي، ثم قالت لي في حنكة:

- سيبت طريقك ليه؟

رمقتها للحظات في دهشة، فقالت لي في ألم:

- أنا أمك وحفظاك... وعارفة إنك الراجل الحديدي القاسي بس اللي قلبه صفيح بيضعف مع أول نور يقع عليه.

قلت لها في مرارة:

- حاولت أنتقم بس بالشباب الطموح... كنت متخيل إن الشباب هيسود البلد ويخلي الروس متساوية.. والعدل والحرية هما الأساس.. بس زي كل مرة طلعت حمار.

أجابتني في تلقائية:

- أرجع للطريق وخد حقك بإيدك.. ما حدش في البلد دي بيجيب حق حد... أوصل وركعها تحت رجليك.

جلست تحت قدميها متألمًا، تلك المرأة تعرف كل شيء، تلك المرأة ما زالت تحبني، رغم كل أفاعيلي بها، هممت بطلب الغفران منها، لكن لساني لم يطاوعني كعادتي، فقالت لي وأنا أغادرها:

- هتبكي علشاني في يوم من الأيام.

حتى حماي وزوجتي وقفا ضدي وعنفاني عندما أخبرتهما برفضي للتصالح

obeikan.com

مع النظام السابق، فقالت لي محذرة:

- إحنا كل شركاتنا معاملتها مع شركاتهم فلازم يخرجوا علشان البيزنس.

وقال لي حماي محذرًا:

- الرئيس مش راضي عن تصرفاتك والحكومة كانت بتدرس إنها تعدل الدستور علشان يخلصوا منك.. بس عطوني فرصة بما إني حماك علشان أعقلك.

نظرت إليه مبتسمًا ثم قلت له في هدوء:

- ما تقلقش أنا عقلت.

عشرات الوثائق والملفات الخاصة بالنظام السابق تسربت للجرائد والتلفاز، وقام رجالي من الإعلاميين بفضح النظام السابق وفضح جرائمه بالمستندات والصور والفيديوهات ووثائق أخرى عن حجم المال المنهوب والأرصدة الضخمة لسادة النظام السابق.

تحول رهيب حدث في الشارع، وبدأ السخط يعود للناس وخاصة مع تزايد الأزمة الاقتصادية والإفشال المتعمد لخطط النظام الحاكم وبدأت المصائب تلاحق النظام من حوادث قطارات يموت فيها العبيد إلى اختطاف طائرات إلى مصانع يشب فيها النيران، مئات الكوارث توالت في سرعة عجيبة لتنهك الدولة وجعلت العبيد يفزعون وخاصة والحوادث تصيب لقمة عيشهم.

اجتمع بنا الرئيس وهو يكاد يموت من الإرهاق، ثم سأل رئيس المخابرات:

- الحوادث دي مدبرة.. صح... مين اللي بيعملها علشان يفشلنا ويوقع البلد؟

أجابه مدير المخابرات في بساطة:

- قضاء وقدر.

هاج للحظات وهو يسب ثم أخذ يراجع التقارير للحظات ثم قال لي في إرهاق:

- لابد للقوات المسلحة من التدخل.. الشرطة مش قادرة توصل للفاعل أو تسيطر على الوضع.

قلت له في برود مستفز:

- القوات المسلحة لن تتدخل في الشأن الداخلي للبلاد.

أجابني في حدة:

- ده أمر ولازم تنفذ.

قلت له في برود أشد:

- أنا اجتمعت بالمجلس العسكري ورفض بالإجماع التدخل، ولو حضرتك مش عجبك قيلني من منصبي.

ثم تركته وانصرفت معلنًا الحرب.

زادت المصائب وانتقلت من المصالح والشركات إلى المنازل المحترقة والبيوت المتهاوية بفعل فاعل، بدأ الناس في الفزع والغضب ضد النظام

obeikan.com

وبدأت صيحات تتعالى في الشوارع على استحياء:

- الشعب يريد إسقاط النظام.

توقفت المفاوضات مع رموز النظام السابق بسبب الفوضى التي اجتاحت البلاد، بدأت المحاصيل الزراعية في الاحتراق، وعندما حاولت الدولة استيراد المؤن والحبوب غرقت السفن وشح الطعام في البلد وزادت الأسعار وضج الناس بالغضب والتظاهر وتعالت الهتافات:

- الشعب يريد إسقاط النظام.

وبدأ النظام يتخبط ويتهاوى، وبدأت حملات اعتقال ضد الشباب الثائر ضد النظام الفاشل الذي يأخذ البلاد للهاوية، ومع زيادة الاحتقان وصل للشرطة أوامر بإطلاق الرصاص على كل من يتظاهر.

واجتمعت مع رجالي من المجلس عسكري وغيرهم، وبدأنا نراجع أحوال البلاد في استرخاء وشبح ابتسامة على وجهي متسائلاً:

- المفروض دلوقتي نعمل إيه للبلد؟

بدأت البلد في الانهيار والتوقف عن الإنتاج عندما شحت السلع البترولية من جاز وبنزين وغاز، وذلك بسبب توقف الإنتاج في الحقول لوصول الدمار إليها وغرق السفن المحملة بالسلع النفطية في البحار، وبدأت البلد في الإظلام التام لتوقف شركات الكهرباء عن العمل لعدم توافر الوقود اللازم لتشغيلها.

حاول الكثير من رجال الأعمال الهرب من السفينة الغارقة، وبدأت

المظاهرات تزداد في الشوارع وتعاملت الشرطة طبقًا للأوامر الصادرة إليها، فحدثت مذابح مهولة رد عليها الشباب المدعوم بعبيد جائعين بالعنف المضاد.

بدأ الشعب الجائع الغاضب في الهتاف، مطالبًا القوات المسلحة بالتدخل وحمايته من النظام، وكذلك هتف بإسقاط النظام، واجتمع بنا الرئيس مطالبًا بالتدخل وإيقاف التظاهرات وحماية النظام، لكني سألته في حزم:

- حضرتك مين اللي أمر بضرب رصاص حي على المتظاهرين.

أجابني في حيرة:

- مش عارف.

قلت له في قسوة:

- الأوامر عليها توقيت سيادتك وختم الرئاسة.

صرخ بي في حدة:

- إنت بتتهمني بالكذب...

لم أرد عليه للحظات ثم نهضت قائلاً في حسم:

- كمل حضرتك الاجتماع من غيري... القوات المسلحة مالهاش دور جوه البلد إلا لحماية الشعب.

حاول حماي إيقافي لكني نحيته جانبًا في غلظة خارجًا لأقابل رئيس الديوان الرئاسي فابتسمت له قائلاً:

openkan.com

- عفارم.

هياج عام في البلاد مع إضراب عن العمل وتوقفت حركة البلاد تمامًا مع إعلان حالة الطوارئ التي لم تجد نفعًا مع الشعب الجائع الذي بدأ في اقتحام المحلات والدكاكين بحثًا عن الطعام الشاحح في البلاد.

أنهكت الشرطة تمامًا واستسلمت للمرة الثانية للشعب وبدأت في الانضمام إليه، وانقلبت الآلة الإعلامية ضد النظام الذي شعر بقرب النهاية، فحاول الفئران التسلل لخارج البلاد، لكن تم إيقاف المطارات والموانئ والطرق البرية عن العمل بموجب قرار سري من الجيش.

طالب الشعب في تضرع وركوع القوات المسلحة بالتدخل وطالبوني شخصيًا كبطل أسطوري لهم بالتدخل وإنقاذ الشعب من كارثة تكاد أن تبيده، كنت أود ترك شعب العبيد للإبادة والفرصة سانحة لي للانتقام، لكنه سيصبح انتقامًا ناقصًا بدون رؤية علياء راكعة ذليلة أمامي.

لذا خرجت على الشعب كبطل أسطوري كالمعتاد لي، وأعلنت في بيان ألقيته شخصيًا:

)تلبية لنداء شعبنا العظيم، وتلبية لنداء الواجب، يقوم الآن الجيش الأبي في الانتشار عبر البلاد لإعادة النظام إليها ثم رضوخًا لمطالبه المشروعة في حياة آمنة مستقرة وحرية يكفلها له الدستور قررنا عزل رئيس الجمهورية وإقالة الحكومة لمخالفة الدستور، وللتعامل الأمني البغيض مما تسبب في مقتل المئات من الشعب، وقررنا إلقاء القبض على كل من أراق دماء الشعب أو حرض عليها وعلى كل من تلاعب بأقوات الناس مما تسبب في أزمة

تقترب من المجاعة، وكذلك تكليف الجيش بحماية المصانع والشركات وإعادة الحركة للبلاد، وأخيرًا تم تكليف القوات المسلحة بإدارة شؤون البلاد، رحم الله شهداء الوطن وحفظ الله الشعب والجيش من كل سوء).

سيطرت القوات ببساطة على البلاد كلها وعاونها الشعب في حماس، وقمنا بإلقاء القبض على النظام الحاكم بمن فيهم حماي وألقيناهم في السجن بجوار النظام السابق، وبذلك تخلصنا من كل الأطياف في البلد، ولم يعد هناك أي فصيل غير الجيش.

أمرت رجالي بفتح المخازن الممتلئة بالغلال والسلع وقمنا بتوزيعها على الفقراء وبيعها في منافذ بكل الجمهورية بمبالغ زهيدة، وعادت السلع البترولية في التدفق وعادت السيارات والمصانع التي لم تحترق إلى العمل.

وبدأنا في إعادة بناء وترميم المنازل والمصانع، وعوضنا الفلاحين عن خسائرهم، وعادت حركة الطيران والسفن، وتدفقت على البلاد الغلال والأطعمة لتغرق الأسواق ليعم الاستقرار.

١٤

ضغط إعلامي وشعبي رهيب عليّ لأترشح للرئاسة، لكني تمنعت، فحشد الموالين لي مظاهرات عملاقة في كل البلاد استمرت لأيام طويلة.

فخرجت على الشعب في خطاب:

)أيها الشعب الأبي العظيم.. لقد مررنا معًا بأيام عصيبة لكن قواتنا المسلحة أنقذتنا من شبح كارثة كادت تفتك بنا، وتخلصنا من نظام فاقد الأهلية كاد أن يضيع البلاد، وعادت البلاد للاستقرار وكنت قد عزمت على البقاء كفرد من القوات المسلحة التي أتشرف بكوني أحد جنودها، لكن بسبب الضغط الشعبي وشعوري بالمسؤولية نحو أبناء شعبي قررت - وأنا أشعر بالأسى - خلع البذلة العسكرية والنزول على رغبة الجماهير والترشح للرئاسة، حفظ الله الوطن وحفظ الله قواتنا المسلحة).

انتخابات باهتة أو للدقة استفتاء شعبي واحتفاليات بالبطل الأسطوري منقذ البلاد من الدمار.

توقفت سيارة أمام منزلي لأخذي للقصر الجمهوري لحلف اليمين ثم بعدها ننتقل أنا وأسرتي لقصر تابع للرئاسة، فالتفت لزوجتي الصامتة والغاضبة منذ إلقاء القبض على والدها، فقلت لها في هدوء:

- جهزي نفسك.. هتييجي عربيات تابعة للرئاسة لنقلكم للقصر.. هنعيش

هناك

أجابتني في قسوة:

- روح إنت... أنا هفضل هنا.

قلت لها في حدة شديدة:

- دها مش طلب ده أمر.

تحول وجهها للأسود وهي تصرخ بي في شراسة أصبحت عادة عندها منذ إلقائي القبض على أبيها:

- قلت لك مش رايحة معاك... إنت إيه ما بتحسش... يا أخي ده أنا بوست إيدك وترجيتك تساعد أبويا... بس إنت رفضت.. أبويا بيموت في السجن وإنت عارف إنه مريض.. حرام عليك.. كل اللي أنت عملته إنك خليته يوقع على ورق نقل الملكية ليا أنا وعيالك.. انتهازي من يومك.

أمسكت بيدها في قسوة، ثم قلت لها في عنف:

- حلمي وهكمله للنهاية.. لا أنتي ولا أي مخلوق هيقدر يوقفني.. أبوكي إيه يا هانم.. ماقدرش أساعده زيه زي بقية النظام لازم يتحاسب.

رمقتني في شراسة، صارخة:

- بكرهك... وبكره كل يوم قضيته معاك... استحملتك بجنانك وقسوتك معايا علشان كنت بحبك بس دلوقتي لما شفتك بتضحي بأي حد علشان نفسك كرهتك.

obeikan.com

ابتسمت لها في سخرية، هامسًا:

- وأنا عمري ما حبيتك.. بس غصب عنك هتييجي معايا وإلا هحرمك من العيال وإنتي عارفة أنا ممكن أعمل إيه؟!

ثم دفعتها في قسوة لتسقط باكية على المقعد، ثم خرجت لأركب سيارة الرئاسة المحاطة بالحراسة لأنتقل للقصر الجمهوري لحلف القسم، لكن هاتفي بخطه المؤمن انطلق يرن، فنظرت للرقم الخاص للحظات ثم ضغطت زر رفض المكالمة السخيفة، فرن مرة ثانية، ضغطت زر تلقي المكالمة، قائلا في صرامة:

- فيه إيه دا مش وقته.. أنا عندي حاجات أهم.

أتاني صوت خادمة أمي مرتبكًا ومذعورًا، وهي تبكي:

- الست هانم كانت بتتفرج على التلفزيون علشان تشوفك وأنت بتحلف اليمين وبعدين فجأة وقعت على الأرض وقاطعة النفس.. وحضرتك قولتلي أتصل بيك لو فيه حاجة.

لم أرد للحظات والألم يعصر قلبي، أمي ماتت أو في طريقها للموت، وأنا أخطو خطوتي الكبرى نحو حلمي، شيء يدفعني للذهاب إليها، لكن قدمي لم تتحركا، تجمدتا ونظراتي زائغة مترددة بسبب الصراع المشتعل داخلي، أتاني صوت الخادمة الحذر المتألم:

- حضرتك معايا؟

صرخت فيها، في شراسة:

- أسكتي.

ثم أغمضت عيني آخذًا نفسًا عميقًا، لن أضحي بحلمي الآن، لن أسمح لقلبي الصفيح في السيطرة ثانية، لقد ضحيت بتلك المرأة مرة سابقة فلن يضيرها الآن تضحية أخرى، لن يزيد ذلك كثيرًا من رصيد قسوتي عليها، حلمي قبل الجميع، سأضحي بالكل من أجله.

لذا همست للخادمة:

- خليكي جنبها لغاية ما أبعتلك حد.

أغلقت الهاتف ثم استدرت لأحد رجالي ثم همست له في أذنه ببعض التعليمات، فأعطاني التحية هاتفًا:

- تحت أمرك يا فندم.

ثم دلفت للسيارة المنطلقة نحو القصر الرئاسي، هامسًا:

- أمي.

***

أقسمت على التفاني في العمل وحماية البلاد وكل هذا الكلام الفارغ، ثم استلمت عملي الذي كنت أقوم به فعليًا قبل أن أصل للرئاسة.

احتفالات صاخبة في الشوارع احتفالاً بي، فكنت أبتسم في سخرية هامسًا لنفسي:

- العبيد مش عارفين القدر مخبيلهم إيه.

opeikan.com

ثم وجدت نفسي - بغتة - تهفو إلى علياء، وجدتني أشعر باشتياق إليها ممزوج بشماتة، ها أنا أكبر رأس في البلاد، وأين أبوها؟ هناك في السجن تحت رحمتي، من الآن السيد ومن الآن العبد؟ صدقيني كل ما أفعله من أجل أن أرغمك على القدوم إليّ راكعة!

لذا وفي بيان رئاسي مباغت للجميع كأول قرار بعد وصولي للحكم:

)قرار من رئيس الجمهورية بإنشاء محاكمة ثورية لمحاكمة كلا النظامين السابقين على جرائمهما في حق الشعب والقصاص لدم الشهداء).

عاصفة من التأييد وانتظرت علياء لتأتي إليّ مترجية، لكن أتاني الحارس الذي كلفته بمتابعة حالة أمي، فسألته في لهفة شديدة، بعدما نسيت الموضوع لانشغالي لأيام، وعلمت أن الديوان الرئاسي كان يمنعه من مقابلتي بسبب الوفود المباركة لجلوسي على مقعد الرئاسة:

- الست اللي بعتك لنجدتها عاملة إيه؟

قال لي في احترام:

- زى سيادتك ما أمرتني اتصلت بإسعاف أكبر مستشفى في البلد واتقابلنا عند البيت ونقلنا السيدة للمستشفى.

سألته في لهفة:

- عامله إيه دلوقتي؟

أجابني في سرعة:

- فاقت واتكلمت.. بس التحاليل مش كويسة.

سألته في حذر:

- التحاليل فيها إيه؟

قال لي في أسف:

- سرطان في المرحلة الأخيرة.

زلزلت الكلمة كياني للحظات، وخنجر يشق صدري ثم يستقر في قلبي، سألته بصوت متألم:

- ورأي الدكاترة إيه؟

أجابني في أسف شديد:

- مافيش أمل.

طعنني بكلماته لأشعر بالمرارة ووددت لو نسفت فمه بمسدس محشو بالرصاص، لكني أشرت له في ضيق بالانصراف، لكنه تلكأ للحظات مترددًا، فسألته في ضيق:

- فيه إيه؟

قال لي في تردد:

- الست دي طلبت أنها تشوف سيادتك.

أشرت إليه بالانصراف ودمعة تحاول الفكاك من قبضة الرجل الحديدي، ثم همست في ألم:

obeikan.com

- أمي.

بدأت المحاكمات الثورية في تنفيذ أعمالها وكانت المحاكمات مذاعة على الهواء، وكنت أتدخل في سير القضايا كما يحلو لي خاصة وأنا أمتلك الملفات الخاصة بالجميع، وكان من الواضح أن المحكمة تخطو نحو قرار واحد هو الإعدام، وكانت هناك مباركة شعبية للمحاكمات.

تركت في ديوان الرئاسة تعليمات بأنه في يوم ما ستأتي سيدة تدعى علياء للقائي فيتم إدخالها فورًا مهما كان الوضع، سألني رئيس الديوان في حذر:

- لو حضرتك تأمر نجيبهالك لغاية عندك.

قلت له في ألم وحزم:

- لا.. أنا عايزها تييجي بنفسها... أنا لو عاوز أروح لها أو أجيبها بالعافية فده سهل.. بس لازم تييجي بنفسها.

نعم، لابد أن تأتي متوسلة ومقدمة لفروض الطاعة، لتعلم أنني السيد المطاع.

أتت زوجتي للقصر واستقرت معي والجفاء يزداد بيننا، خاصة بعد موضوع المحاكمات الثورية، ترجتني باكية:

- إنت الرئيس.. أصدر عفو رئاسي أو حتى عفو صحي.. أبويا بيموت من المرض.. أو هيتعدم لو المحكمة فضلت ماشية بنفس الأسلوب ده.

قلت لها في حدة:

- أنا كل يوم بطمن عليه.. كل اللي أنا بعمله علشان أكسب الناس، وفي

openkan.com

الوقت المناسب هعمل الصح.

سألتني في حذر:

- إيه هو الصح.

قلت لها في حسم:

- الصح هو الصح.

ثم تركتها لدموعها.

لم تأتني علياء بل سامي الذي طلب مقابلتي عشرات المرات وكان يجلس بالساعات في ديوان الرئاسة، ثم سمحت له بالدخول لأجده قد زاد نحولاً وطالت لحيته في إهمال، فصافحته في ترفع مرحبًا:

- أهلاً سامي ليك وحشة بس زي ما أنت شايف المسؤولية كبيرة.

قال لي في احترام:

- كان الله في العون.

ساد صمت للحظات، ثم قلت له في عملية:

- خير.

قال لي متلعثمًا ومترجيًا:

- أنا جيت لحضرتك من أكتر من سنتين علشان خاطر والدي وكنا اتفقنا مع النظام السابق على دفع فلوس مقابل الإفراج عن والدي، بس حضرتك بعد ما مسكت الحكم عملت محكمة ثورية وماعدش وقت وكلنا عارفين

obeikan.com

الحكم هيبقى إيه.

سألته في حزم:

- المطلوب.

قال لي مترجيًا:

- بحق العشرة والصحوبية اللي كانت بينا.. افرج عن والدي.. علشان خاطري

قلت له في حسم:

- أنا أسف الأمر بإيد القضاء دلوقتي... إنت عارف إني بعزك وبعتبر والدك والدي بس لو عملت كده هفقد مصداقيتي مع الناس اللي بتحبني.

أمسك بيدي بغتة، هامسًا في ذلة:

- أنا بترجاك ساعدني..

نزعت يدي من يده في ضيق، ليصدم فيّ للحظات، ثم همس لي في مرارة:

- أنا طول عمري بعتبرك صاحبي.. بس إنت أتغيرت وبقيت حد تاني غير اللي أنا أكلت معاه عيش وملح.

قلت له في حزم:

- كل حاجة أتغيرت.. بس أنا طول عمري كده.. إنت بس اللي ماكنتش شايف. الجانب التاني مني..

صمت أنا للحظات ثم قلت له في مرارة:

- علشان تعرف إني باقي عليك... أهرب يا سامي من البلد النهارده قبل بكرة.. أهرب علشان خلاص هانت.

سألني في حذر:

- إنت قصدك إيه.. والشركات هسيبها لمين يديرها.

قلت له في حسم:

- سيبها لمهاب..

ابتسم لي في مرارة، ثم قال لي في ألم:

- مهاب خلاص بقى في الضياع.. ماعدش بيفوق غير لما يتخانق مع علياء.. ماعدش طبيعي.. مش هينفع أسيب له الشركات.. هيغرقها زي ما غرق جوازته مع علياء.

سألته ببطء:

- علياء.. ناوية على إيه؟

قال لي في أمل:

- علياء عاوزة تهاجر بره مصر هي وماما بس مستنين بابا يطلع من السجن ويهاجر معاهم.. وإنت الوحيد اللي يقدر يساعدنا.

قلت له في حسم:

- أهرب يا سامي.

***

obeikan.com

سامي لم يستمع لنصيحتي، ولم يصدق النصيحة المخلصة، لذا مع صدور البيان الرئاسي الجديد، وجد نفسه هو ومهاب بجوار سيادة الفريق في المعتقل ولم يبق غير علياء، لقد أزحت كل العراقيل من أمامها لأرغمها على القدوم إلى لأركعها

كان مضمون البيان الثاني كالآتي:

)بعد الاطلاع على نتائج المحاكمات التي قامت بها المحاكمة الثورية، وبعد اطلاع الرئاسة على منطوق الحكم، قررت رئاسة الجمهورية الآتي: تنفيذ كل الأحكام التي قررتها المحكمة بدون تخفيف، وثانيًا تأميم كل الشركات والمصانع والأموال الخاصة برموز النظامين السابقين، وكذلك أموال كل شركائهم أو أقربائهم، وذلك بسبب التسهيلات التي حصلوا عليها بدون وجه حق بسب استغلال المناصب، والله الموفق).

في تزامن قامت الشرطة بمداهمة قصور وشقق الأثرياء وخاصة رجال الأنظمة السابقة أو المحسوبين عليها، وتمت مصادرة الأموال ووضع حراسات على الشركات وإلقاء القبض على كل المتربحين من فساد الأنظمة السابقة، وتم القبض على مهاب كما خططت، وسامي كذلك الذي لم يستمع لنصيحتي.

سألت مدير المخابرات في اجتماع خاص:

- إيه اللي بيدور في البلد؟

قال لي في احترام:

- سيادتك الناس العادية بتهتف بحياتك في الشوارع مبسوطين من القرارات بس..

سألته في حزم:

- بس إيه؟

قال لي في سرعة:

- بس فيه امتعاض من الشباب المثقف.. شايفين إن تأميم الشركات هيضرب الاقتصاد وهيزود البطالة لما الشركات دي تبدأ تقف عن الإنتاج علشان الدولة مش هتقدر تدعمها زي أصحابها... وكمان ماحدش هيرضى يستثمر في البلد من الأجانب خوفًا من قرارات التأميم.

ابتسمت له في هدوء، ثم قلت له:

- المهم الشعب مبسوط.. ومستني تنفيذ الأحكام.

أومأ برأسه قائلاً:

- زي حضرتك ما أمرت يوم التنفيذ هيكون بعد شهرين وهيبقى إجازة مدفوعة علشان الناس تتابع القصاص.

كعادتي كل يوم كنت أسأل رئيس الديوان في لهفة.

- الست اللي أنا مستنيها وسايب تعليمات علشانها جت ولا لسه ماظهرتش؟

أجابني بالنفي، لأشعر بالألم لثوانٍ ثم تابع في حذر:

- بس حضرتك المستشفى اللي فيها الست اللي تبع حضرتك بتتصل بينا

obeikan.com

كل يوم، وأوامر حضرتك كانت أننا نتابع معاهم.

تذكرت أمي لأشعر بالألم والأسى والاحتقار لنفسي، تلك المرأة لم أرها منذ شهور، منذ أن مرضت وأنا لم أفكر فيها أو في زيارتها، سألته في ضيق:

- المستشفى عايزة إيه.. الحالة جرى لها حاجة؟

أجابني في سرعة:

- المستشفى بتقول إن الحالة بتلح عليهم عاوزة تكلم حضرتك..

أتاني صوت أمي الضعيف عبر الهاتف لأتألم أكثر:

- إنت اللي معايا يا حبيبي.

لم أرد عليها وأنا أشعر بضعفي نحوها، بقسوتي عليها، فتابعت هي في ضعف أشد:

- مش عاوز ترد.. خايف مني علشان رمتني في المستشفى ومابصتش في وشي من يومها.. رد يا سيادة المهم... قسيت عليا كتير بس المرة دي أشد عليا.. أكتر مرة كنت محتجاك فيها بس إنت زي كل مرة اتخليت عني.. عارفة إن الكرسي لاهيك وحلمك وخدك بس كل اللي أنا كنت عايزاه خمس دقايق أشوف ابني فيهم... أشوفه بعد ما بقى الرجل المهم في البلد كلها.. كنت عاوزاه يطبطب عليا ويقول لي سلامتك يا ماما... نفسي أسمع كلمة ماما لمرة واحدة.

فتحت فمي لأقولها، لكني لم أستطع والدموع تحاول الفرار مني، ساد

obeikan.com

الصمت للحظات ثم أتاني همسها الضعيف:

- عاوزة أشوفك قبل ما أموت.

وجدتني أغلق الهاتف في مرارة، وأنا أهمس:

- إنت ضعفي وقوتي يا امرأة.

***

هوة سحيقة كنت أتردى داخلها وأنا أشاهد جثمان أمي يوضع في قبر حقير ليلاً، قبر من مقابر الصدقة، دفنت أمي كما يدفن الكلب الأجرب.

دمعة سالت وأنا أتذكر كل ماضينا الأسود معًا، وأتذكر لحظاتي الأخيرة معها، أتذكر حوارنا الأخير الصريح، أنظر لكفي في مرارة، بتلك اليد خنقت أمي وقتلتها، قتلت الماضي الذي كان يطاردني معرقلاً، قتلتها وأنا أظن أنني سأرتاح لكني شعرت بالضياع، أنا أفتقدها وأفتقد كل أيامنا بسوادها ووساختها، أفتقد صراعنا المحموم نحو التملك والهرب من التملك، أشعر بخواء داخلي، كأنني لعبة ببطارية وفرغ شحنها، حتى حلمي أصبحت أراه سخيفًا بلا معنى، لم تعد عندي طاقة لإكمال الطريق، ماتت أمي وأخذت معها الطاقة التي كانت تدفعني للأمام.

أتاني الدفان مع رجالي، وقال لي معزيًا:

- البقاء لله.. كله تمام.

قلت له في قسوة:

- أوعى حد يقرب للجثة دي.. هبعت ناس تطمن عليها.. فاهم ولا إيه؟

obeikan.com

أجابني في رعب:

- اطمن حضرتك أنا هنام جنب القبر كل يوم.

دفعته جانبًا، مشيرًا لرجالي بالذهاب للسيارات، قائلاً:

- سيبوني لوحدي.

غادروني في تردد، وأخذت أنظر للقبر في عتاب ثم قلت لها في مرارة باكيًا:

- ارتحتي يا ماما.. وسبتيني أتعذب بدمك... سيباني لمين.. ماحدش في الدنيا دي كلها بيفهمني غيرك... كده ماعدش ليا حد... خلاص كل حاجة وصلت لنهايتها.. بس أنا مش مسامحك.. حتى وإنتي بتموتي تركتي لي أبشع ذكرى..

مارضتيش تموتي إلا وإنتي بتنتقمي مني فيكي.. أنا بكرهك يا قوتي.. أنا بكرهك يا ضعفي...

كفكفت دموعي هامسًا في لوعة:

- أمي.

عدت للقصر الذي أعيش به مع زوجتي محطم القلب والروح، لتستقبلني في رجاء:

- معاد تنفيذ الحكم قرب.. أنقذ أبويا.

دفعتها في غلظة وأنا أشاهد أمي أمامي وأصابعي تخنقها ثم قلت لها في جنون:

- هيكون أغلى من مين..

ثم تركتها مغادرًا، لكني التفت إليها متابعًا في قسوة:

- إنتي طالق.

لتسقط منهارة على الأرض.

عدت للقصر الجمهوري خائر القوى، ضائع الروح لأجد رئيس الديوان يستقبلني في لهفة، هاتفًا:

- حضرتك حاولت اتصل بيك كتير.. ودورت عليك بس ما عرفتش أوصل لحضرتك.

سألته في ضجر وإحباط:

- فيه إيه.. البلد بتولع؟

هز رأسه بالنفي، ثم قال في سرعة:

- وصلت حضرتك... الست اللي حضرتك مستنيها من شهور جات النهارده.

أمسكت بيده في قوة وعنف، وشيء ما يتحرك داخلي طاردًا خواء روحي بسبب موت أمي، ثم قلت له في قوة وحذر:

- أوعى تكون مشيت لما أتأخرت.

أجابني وهو يتألم من قبضتي:

- كنت همشيها بس أنا كنت عارف هي قد إيه مهمة لحضرتك وإنك كل يوم بتسأل عليها.. علشان كده دخلتها مكتب حضرتك وطلبت لها عشا

obeikan.com

ومشروبات.. وهي كمان رفضت المغادرة إلا لما تقابلك.

دفعته جانبًا في غلظة، وقلبي يطير نحو غرفة المكتب، فتحت الباب في قوة وروحي تنتعش، هاتفًا في لوعة:

-علياء!

obeikan.com

١٥

أتت علياء في لحظة فارقة من حياتي، علياء بيدها الآن أن تحول ناري إلى برد وسلام، بيدها تطيب جروحي، بيدها إعادة النور لروحي، بيدها نزع قناع وجلد الوحش عني لأعود لبشريتي، بيدها هي فقط التاريخ.

هتفت باسمها وظللت لدقائق أنظر إليها عبر فرجة الباب، كم أشتاق إليها، إلى ملمس يدها، لمرحها الغائب عنها وعني، لنظرتها المتهتكة الشبقة الذكية، كبرنا كثيرًا وظلت هي رغم المعاناة ثمرة شهية ناضجة.

همست ثانية في وجع:

- علياء.

نهضت هي ببطء وتقدمت نحوي ليضطرب قلبي كأنني أراها لأول مرة في حياتي، كأنني أحبها لأول مرة، نفس الوخزة الأولى في القلب عادت إليّ، صافحتني في رقة، فاحتفظت بيدها بين أصابعي، هامسًا لها:

- انتظرتك كتير.

ابتسمت لي ابتسامة باهتة، ثم همست لي:

- عنوان بيتنا زي زمان.

ابتسمت لها، ثم أجلستها في رقة وجلست بجوارها فوق الأريكة بعيدًا عن

المكتب الذي كان سيفصل بيننا، كنت أريد أن أبقى ملاصقًا لها كالتصاق الجنين بالأم..

نسيت أمي التي دفنتها منذ ساعات قليلة، ونسيت هدف حياتي، ونسيت حتى كرهي لعلياء آخر مرة، كل شيء نسيته وعدت عصفورًا ضعيفًا في عشها.

همست لها في لوعة:

- وحشتيني.

قالت لي معاتبة:

- إنت اللي بعدت عنا.

قلت لها متألمًا:

- إنتي اللي جرحتيني.. إنتي اللي طول عمرك بتبعديني عنك.

لم ترد للحظات، وعينها تشرق وتغرب هربًا مني، فسألتها في رقة حزينة:

- عملتي إيه في حياتك.

تنهدت في مرارة قائلة:

- زي ما أنت عارف.. خسرت كل اللي حوليا.. مش فاضل غير ماما والباقي في السجن.

هربت من التلميح، قائلاً لها في ألم:

- بس إنتي اللي اخترتي طريقك.. إنتي اللي فضلتي مهاب.

لم ترد وهي تتألم، لكني تابعت في مرارة:

- خسرتي نفسك علشان طموحك ونظرتك الدونية ليا، كسبتي إيه؟.. زواج فاشل وحياة فاشلة... وخلتيني أنا كمان أخسر نفسي... خسرتها يوم ما خسرتك... كل عذاب حياتي إنتي السبب فيه.

همست هي في ألم ورجاء:

- أنا مش جاية أتكلم عن الماضي.. في عز صعوبة الظروف ماقدرتش أجيلك.. كنت خايفة منك... بس مش باقي حد غيري علشان كده جيت لك.. قاومت نفسي وجيت.

ابتسمت لها في سخرية حزينة، وبدأ الشعور الجميل نحوها يختفي ليحل محله شعور قديم، ثم قلت لها:

- لسه بتكابري... لسه الغرور مسيطر عليكي... لسه بتبصي لي بدونية!

أسرعت تقول معتذرة:

- مش قصدي اللي إنت فهمته.. أنا أسفة.

قلت لها وحرارة اللقاء تخفت لتتسلل البرودة:

- إيه اللي جابك؟

صمتت للحظات وهي تشعر بالألم لبرودة عبارتي، ثم قالت لي في رجاء:

- أنا جيت علشان أبويا وأخويا.. جيت علشان أترجاك تنقذهم من الموت

نهضت من فوق الأريكة واتجهت لمكتبي لأجلس خلفه ثم قلت لها في سخرية:

- الملكة علياء تنازلت وتواضعت ونزلت من عليائها وأتت لعبدها المسكين لتترجاه.. إيه اللي حصل في الدنيا؟

لم ترد وهي تنظر إليّ في انكسار، فتابعت في ألم:

- فاكرة آخر لقاء بينا... فاكرة أنا كان طلبي منك إيه.. طلب صغير كان هينقذني من نفسي.. كنت عاوز حبك.

أجابتني وهي تتألم:

- بلاش تفتح في الماضي.. خلينا في الحاضر.

قلت لها في شراسة متألمة:

- الحاضر بتاعك إني أنفذ للملكة أوامرها... بس أنا الماضي والحاضر بتاعي كان إنتي... كان كلمة واحدة.

أسرعت تقول لي:

- بحبك.

أطلقت ضحكة ساخرة مريرة، ثم قلت لها:

- إيه مفكراني عيل صغير.. زمان كان ممكن تضحكي عليا بحركة زي دي وأعيش ليالي مبسوط بيها... بس للأسف إنتي علمتيني دروس كتيرة، ورغم إني لما شفتك شوقي ليكي رجع زي زمان... بس نظرة عنيكي خلتني أفوق لنفسي... لسه في عنيكي نفس النظرة القديمة.. نظرة السيد للعبد.. لسه بتبصي لي من فوق.

obeikan.com

أجابتني في رجاء والدموع تزدحم في عينيها:

- أنا تحت أمرك في كل اللي إنت عايزه... لو عايزني دلوقتي ماعنديش مانع.. أنا مستعدة.

قاطعتها في قسوة:

- لسه زي ما إنتي أرخص حاجة عندك جسمك... إحنا مش في فيلم عربي.. أنا أصلاً نمت معاكي أكتر ما جوزك نام معاكي.. أنا كل اللي كنت عاوزه قلبك.. كنت عاوز جرح قلبي ينقفل.. كنت عاوز حبك.

ساد الصمت لدقائق وكل منا ينظر إلى الأرض، ثم همست هي في رجاء:

- أتوسل إليك أنقذ أبويا وأخويا.

قلت لها في قسوة:

- أنا اتوسلت إليكي انقذي روحي بس إنتي رفضتي وعاملتيني بعنجهية.. إنتي عارفة لو كنتي جيتي لي وإنتي مش مضطرة وإنتي مش محتاجة مني حاجة.. كان ممكن حاجات كتير أتغيرت.. بس للأسف إنتي جيتي مكرهة مش محبة وندمانة.

سألتني في تضرع باكية:

- قل لي على اللي إنت عايزه وأنا مستعدة أنفذه.

عتمة روحي عادت تسيطر، لذا قلت لها في قسوة:

- فاكرة أنا قلت لك إنك هتييجي لي راكعة... يلا اركعي قدامي على ركبك

obeikan.com

واطلبي السماح من سيدك!

كانت تنظر إليّ غير مصدقة، والدموع تتجمد على وجنتيها من الذهول، لكني كررت في قسوة:

- البلد كلها دفعت تمن الركوع ده.. اركعي لسيدك!

نزلت بركبتها على الأرض في ذلة والدموع تنزف على وجهها، والنشوة تجتاح كياني كملك متوج.

لكنها نهضت بغتة كما لو أن ثعبانًا قد لدغها، ثم قالت في كبرياء حزين:

- إنت مجنون؟!

نفس الكلمة القاتلة، تلقيتها مرة أخرى كرصاصة، لذا تراجعت للخلف في مقعدي مصدومًا، وهي تتابع في كبرياء وغرور:

- حتى ولو ركعت إنت مش هترحم أبويا وأخويا.. إنت بتنتقم من أسيادك اللي بيفكروك بأصلك الواطي.. إنت كنت عاوزني علشان تحس إنك مننا بس رفضي ليك خلاك تعيش طول حياتك في جلد العبيد.

قلت لها في قسوة وكلماتها تقتلني:

- كفاية.

تابعت هي في قسوة وتأهبًا للمغادرة:

- يا ريتني ما سمعت كلام ماما.. أنا قولتلها من الأول مافيش فايدة... الواطي هيفضل طول عمره واطي.. مهما وصلت لمناصب حتى ولو بقيت

obeikan.com

إله.. هتفضل جربوع وعمرك ما هتبقى مننا.

جذبتها من شعرها في قسوة، صارخًا:

- وإنتي هتفضلي طول عمرك شرموطة.. وهدفعك التمن في أهلك وجوزك.. وهعيشك بتشحتي في الشوارع.

أجابتني في ترفع، مبعدة يدي عنها:

- بس عمري ما هركع لواحد زيك.

كل غضب السنين تجمع أمام عيني، كل شعور بالدونية تحرك داخلي طافحًا حولي، وتذكرت في تلك اللحظة أمي وهي تحذرني منها، كنت محقة يا امرأة، تذكرتها لأتألم، لقد دفنتك من ساعات ونسيتك عندما رأيت معذبتي، لذا زاد غضبي نحو علياء، لأصفعها على وجهها في قوة، هاتفًا:

- هتركعي غصب عنك.

فاجأتني علياء بصفعة مضادة لتزلزل كياني، صارخة بي في قسوة وكبرياء:

- بتمد إيدك على أسيادك يا كلب.

أعماني الغضب، وروح أمي الغاضبة تتسلل إلى أعماقي لتسيطر عليّ، فوجدتني أمسك بعنق علياء هاتفًا في غل:

- إنتي لازم تموتي... لازم أتخلص من ضعفي... زي ما قتلت أمي هاقتلك... هقتلك بإيدي يا علياء... العبد هيموتك أيتها الملكة المعظمة!

حاولت علياء مقاومتي، لكني كنت أمر بأسوأ لحظة إظلام في حياتي كلها،

لذا ظللت أضغط في قسوة هامسًا لها وهي تتألم:

- موتي وفكي قيودي... حرري عبدك من قيوده.

ظللت أضغط، حتى أطلقت علياء شهقة أخيرة، وأنا أتابع في جنون هامسًا بلا وعي:

- موتي.

ثم تركتها لتسقط على الأرض، ظللت للحظات أنظر إليها غير مصدق، ثم وجدت غضبي يتوارى بغتة، وأجدني أركع بجوارها هامسًا في لوعة:

- علياء... ردي... علياء... قومي... علياء... أنا بحبك.. ماتسبنيش يا علياء... علياء قومي وأنا هفضل عبدك... أصحي وأنا هفضل راكع ليكي للأبد.

كنت أهزها في عنف، لكن بلا رد، لذا ضممتها لصدري صارخًا في جنون:

- علياااااااااء

***

)أخذت فرصتك كاملة وفشلت.. سنوات وأنا أراقبك وتفشل.. الآن عدت لأعيد الأمور لنصابها).

الصوت الذي افتقدته لسنوات عاد إليّ من جديد، عاد موبخًا وعلياء بين ذراعي أبكيها، فقلت له صارخًا:

- كنت فين السنين اللي فاتت.. أتخليت عني ليه.. موجهتنيش ليه...

obeikan.com

سبتني أفشل ليه... راجع بعد إيه.. بعد ما قتلت أمي وحبيبتي... راجع بعد النهاية؟!

أتاني الصوت مزلزلاً:

)أنت من رفضني وأغلق عليّ في الغرفة المظلمة في متاهات عقله... أنت من رفض الرسالة.. أنت ألحدت بوجودي رغم معرفتك بوجودي.. أنت من اختار حياة الدعة على حياة الرسل... والآن عندما تهت عن الطريق أطلقت سراحي.. من قبل كدت تخرجني من زنزانة عقلك لكنك تراجعت وتساءلت وأنت تكذب على نفسك.. أين الصوت المرسل... أنت لم تكن تريدني... كنت تتمنى أن تظل في الطريق الخطأ لأنه يدغدغ مشاعرك.. كل مرة تحيد عن الطريق كأي بشري ضعيف ثم تتحجج.. الآن زالت كل العقبات... زال الحنان والحب... لم يعد هناك شيء تخسره.. الطريق أصبح ممهدًا لتحقق الحلم).

قلت له في مرارة:

- أنا ضعيف..

أجابني في صرامة:

)الكل يضعف.. حتى الرسل شعروا بالضعف والضياع لكنهم تغلبوا عليه وأكملوا الرسالة... أما أنت فأنت أعلى منهم لقد قتلت ضعفك بيدك.. أنت الآن مطهر من كل ضعف أو شفقة أو رحمة.. أنت الآن بلا عيوب بلا نقاط ضعف).

سألته وأنا أسجي جسد علياء على الأرض:

openkan.com

- عاوز مني إيه؟.. أنا ماعدتش فاكر حلمي.. ماعدتش عارف أنا هدفي إيه؟... مش عارف إن كنت عاوز العدل ولا عاوز الدمار.. عاوز الحرية ولا النهاية.. الوطن زي الأم ممكن تقسى عليه أو يقسى عليك.. تغضب منه أو يغضب منك.. لكن مش ممكن تبيعه أو يبيعك!

أجابني في حكمة:

)الدمار هو أول الطريق للعدل.. الهدم أول طريق البناء.. البلد لابد أن تهدم لتبنى على أسس سليمة من العدل والحرية والمساواة.. قسوتك حب.. غضبك حب.. هدمك للوطن حب.. قتلك للسادة حب.. قسوتك على العبيد حب.. قتلك لأمك ولعلياء حب.. حب لتطهرهما من دنس الروح والجسد.. أنت تفني الحياة لتجد الحياة وسيلة أخرى للبداية.. أنت النهاية لتكون هناك بداية).

كررت خلفه كالمنوم مغناطيسيًا:

- البلد لازم تتهد.. لازم الكل يتساوى.. لازم الأسياد يعرفوا حجمهم.. والعبيد ينهضوا من نومهم ويدفعوا عن حريتهم.. لازم الكل يتساوى والحياة تبدأ من جديد بعدل ومساواة.

هتف بي الصوت في فخر:

)هذا هو ابني الذي به سررت).

قلت له وأنا أنظر للجثة في حب:

- الانتقام حب.

تسلمت والدة علياء جثة ابنتها لتصاب بانهيار عصبي حاد وهي تصرخ بي في قسوة:

- حرام عليك... دمرت لنا حياتنا.. جوزي وابني هيتعدموا... وبنتي... بنتي ماتت.

قلت لها معزيًا في هدوء حزين:

- البقاء لله.

نظرت إليّ في انهيار ثم سقطت فاقدة الوعي، فأمرت بنقلها للمستشفى، وقمت أنا ورجالي بدفن علياء، ظللت أتابع الدفن حتى انتهوا فأمرتهم بتركي قليلاً، ظللت على قبرها لدقائق بلا كلمة واحدة، ثم قلت لها في ألم:

- كلمة حب كانت كفاية.. بحبك رغم كل شيء.

ثم تركت القبر مغادرًا، وتاركًا خلفي كل ضعفي، وللأبد.

فهمس لي الصوت في حزم:

)الحب ضعف... الضعف خيانة(.

ذهبت للمعتقل وجلست في مواجهة سامي ولوح زجاجي يفصل بيننا، تبادلنا النظرات لدقائق، ثم سألني في ألم:

- ليه.. ليه ده كله؟!

قلت له في لوعة:

- الحب قتلني.. أمي وأختك حبهما كان قاتلاً.

obeikan.com

صمت للحظات ثم قلت له في أسف:

- سامحني يا سامي.. إنت الوحيد اللي كان إنسان معايا.. بس الظروف هي اللي حطتك في سكتي.. سامحني.

ثم تركته مغادرًا والصوت يهتف بي في قسوة:

)الضعف خيانة.. والخيانة موت(.

تم تنفيذ حكم الإعدام في حق المئات من رجال كلا النظامين السابقين، ومصادرة أموالهم، وانقسم الشعب ما بين أغلبية مؤيدة للإعدام، وأقلية شبابية رافضة لكل هذا الدم.

لكن لم يعلو صوتهم، ظل بين جدران الإنترنت.

فتحت كراستي القديمة وشطبت على عدة أسماء، سيادة الفريق، حماي، ثم توقفت قليلاً عند سامي ثم شطبت على اسمه، وتوقفت أكثر عند علياء الموضوعة في برواز أحمر فشطبت عليها بيد مرتجفة وألم في صدري، ثم صعد بصري ببطء لأول الورقة ليتوقف عند اسم كبير مكتوب بخط عريض، اسم واحد متبقٍ في الورقة.

***

عندما تقترب النهاية تشعر في داخلك بها، النهاية لها ثقل يطبق على القلب فيشعر القلب بها، النهاية ليست مفاجئة كما يقولون، كل النهايات لها مقدمات لكننا نتغاضى ونتجاهل العلامات حتى لا نصاب بالذعر.

اجتاح الدمار البلد كلها، ولي الفخر في ذلك، لم أعد أهتم بالبلد، تركتها

obeikan.com

للقرارات العشوائية وللخطط المتعمدة كي تنهار بسرعة.

بدأت الانقسامات تصيب الشعب مع تراكم الأزمات، هناك المؤيدون لي وهؤلاء يسيرون خلفي كالعميان حتى ولو كنت أخوض بهم النيران، وهؤلاء هم أكثرية الشعب من العبيد، كلما ناقشهم أحد، قالوا كالخرفان:

- كفاية إنه أنقذ البلد.

لو أخبرهم أحد:

- البلد بتقع وتنهار.

أجابوه في عمى:

- نستحمل شوية.

كنت إله العبيد، محبوب البسطاء الذين يضحون بكرامتهم وحريتهم مقابل الطعام، فضيقت عليهم الرزق فازدادوا حبًا لمنقذ الوطن، فقال لي الصوت:

)العبد لا يحرره غير الموت(.

كانت تقارير المخابرات تأتيني بغضب هادر وسط الشباب بسبب الغلاء والبطالة وسوء إدارة البلاد، لكنهم لم يحاولوا التظاهر خوفًا من دعم القوات المسلحة لي

بدأت في تنفيذ خطة الاستفزاز للشباب، نعم كنت ناقمًا عليهم، لقد راهنت عليهم لكنهم خذلوني، سلموها للمعارضة لتحكم وناموا في الظل، كل مرة

obeikan.com

يتركها لانتهازي ليحكمها، نفسهم قصير لا يكملون عملاً للنهاية، كل مرة تسرق منهم ثم كالشيعة يلطمون الخدود ويشقون الصدور.

لذا كان جم غضبي عليهم، على القلة الواعية التي ظننت أنها الأمل لكنها كانت جسر الانتهازيين نحو الخراب.

ضممت أبنائي لصدري وقبلتهم في حنان، ثم أعطيت طليقتي أوراق السفر، ثم قلت لها في حزم:

- خلي بالك من العيال... هيوصلك ورق برقم الحساب.. سايب لكم فلوس تعيشكم لأجيال طويلة.. ما تحاوليش ترجعي البلد.

لم ترد عليّ، وهي تنظر إليّ في كراهية عميقة بسبب إعدام والدها، قبلتهم مرة أخرى في حنان، ثم تركتهم ليذهبوا للمطار ليغادروا البلاد لتكون تلك آخر مرة أراهم فيها.

الفكرة الأساسية في بلدنا لا أحد يقرأ التاريخ، وإن قرأه فلن يصدق أننا ممكن أن نعيده في رتابة مستفزة، هنا الزمن يدور في حلقات وليس خطًا مستقيمًا كماضٍ وحاضر ومستقبل، الزمن هنا دائري.

كانت الأحوال الاقتصادية للبلد تنهار بسبب تأميم شركات ومصانع رجال الأعمال، طبعًا كانت الإدارة الحكومية كعادتها للشركات ذات طابع بيروقراطي وروتيني يهتم بالأوراق على حساب الإنتاج، بدأت المصانع في الانهيار والإغلاق وتشريد العمالة التي بدأت تطالب بالعودة للعمل، مظاهرات محدودة تم التعامل معها بقسوة رادعة من الشرطة وتأييد شعبي من الموالين لي.

بدأت موجة من الغلاء تجتاح البلاد مع توقف دعم القوات المسلحة، ومع ارتفاع سعر الأسمدة والمبيدات ارتفعت أسعار المواد الغذائية، وضاق حال الناس، لكن الأغلبية من العبيد صبروا.

سألت الصوت في سخرية:

- الناس بتحبني قوي لدرجة العبودية.

قال لي في حكمة:

)كلما زاد الحب.. كانت الكراهية أعظم(.

بدأت السلسلة المعتادة من الحرائق تجتاح البلاد، وعادت السفن تغرق بالمواد البترولية والغذائية، وبدأ الشباب في التململ والغضب.

اجتمعت بقادة القوات المسلحة، والوزراء لمتابعة الكوارث التي تجتاح البلاد، فسألت وزير الداخلية في قسوة:

- هو فيه إيه؟.. اللي حصل للنظام السابق مش هيحصل ليا.. أنا عاوز أعرف مين اللي بيحرق البلد؟!

أجابني في ذعر:

- مش عارفين.. ده عامل زي علي الزيبق بيختفي قبل ما نوصل.. زي ما حصل زمان.

نظرت إليه في قسوة، ثم التفت لوزير الدفاع وسألته:

- الجيش ممكن يساعد بإيه؟

obeikan.com

بادلني نظرة صامتة، ثم قال لي في ألم:

- القوات المسلحة يا دوب ممكن تكفي نفسها.. الفائض استخدمناه أيام النظام القديم ودلوقتي خلاص مافيش.

تنهدت في ألم، وسألت وزير التموين:

- تقريرك عن السلع والمواد الغذائية؟!

أجابني متوترًا:

- لو معدل احتراق وغرق المواد الغذائية والغلال فضل بالوضع ده... إحنا داخلين على شبح مجاعة.

ظهر الغضب على وجهي وأنا أهتف في غضب بالجميع:

- عاوز حلول... عاوز أعرف مين اللي بيعمل كده؟

ثم فضضت الاجتماع في حنق، وذهبت للتلفاز لإذاعة كلمة للشعب لأخبره بالحقائق:

- أنا دايمًا بتكلم معاكم بصراحة ومن القلب.. علشان كده هصارحكم بالحقيقة.. إحنا بنواجه كارثة لازم نتكاتف كلنا.. فيه حد بيحاول يخرب البلد زي ما حاول زمان وأنا وقفت له.. إحنا بنحاول بس عايزين الشعب يقف معانا ويبلغ الشرطة عن أي حد بيشك في ولائه للبلد.. فيه غضب بين الشباب بسبب بعض المشاكل اللي بتعاني منها أي دولة بس مش معنى كده إننا نخرب البلد ونجرسها على النت.. ده مش شغل شباب وطني بيحب البلد... لازم نتكاتف ونقف ضد أي حد عاوز يخرب البلد، حفظ الله الوطن.

obeikan.com

تحريض صريح ضد الشباب، حتى إن الصوت قال لي:

)ملعون هذا العقل.. ملعونة تلك الأفكار(.

بدأت البلاغات تنهال على أقسام الشرطة من العبيد الموالين لي ضد الشباب المعترض على الحكم وعلى الوضع السيئ للبلد، بدأت حملة اعتقالات للشباب بمساعدة العبيد، وبدأ باقي الشباب في الشعور بالذعر وبأن نهايتهم تقترب.

زاد الغلاء وزادت الكوارث، والبطالة، أما السرقة فانتشرت كالنار في الهشيم وخاصة والشرطة مشغولة بمطاردة الشباب في كل مكان.

قل الإحساس بالأمان في البلد مع انتشار الخطف والنهب، وبدأ الشعب في الانقسام الأكثرية معي يأكلون التراب لكنهم مبرمجون على حبي وجزء انتبه لنفسه فانضم للشباب الغاضب.

ومع زيادة أعدادهم، عادت التظاهرات على استحياء ليقابلها العبيد بتظاهرات مدبرة مضادة، وحدث أول اشتباك في عهدي بين الشعب وبعضه البعض، تأخرت الشرطة في التدخل ليسقط العشرات صرعى.

***

اجتمعت بمجلس الأمن الوطني، وصرخت فيهم في قسوة:

- البلد بتضيع وإنتم ساكتين!

سألني وزير الداخلية مرتجفًا:

- أوامر حضرتك.

obeikan.com

قلت له في غضب:

- شوف شغلك.. وأقبض على زارعي الفتنة في البلد.

سألني وزير الدفاع:

- القوات المسلحة جاهزه للتدخل.. أوامر حضرتك.

نظرت إليه في تمعن، ثم قلت له:

- لا.. القوات المسلحة مالهاش دعوة بالشأن الداخلي.

ثم فضضت الاجتماع، وأمرت وزير الدفاع بالبقاء، ظل جالسًا حتى غادر الجميع المكان، فالتفت إليه هاتفًا في قسوة بالغة:

- مش أنا اللي جبتك وزير دفاع بدالي.

أومأ برأسه في ارتباك ثم همس في خضوع:

- وده شرف ليا يا فندم.

قلت له في قسوة:

- أنا اللي عملتك من ساعة ما كنا مع بعض في الكلية الحربية.. كلكم أنا اللي وصلتكم للمكانة اللي إنتم فيها.. ملفاتكم القديمة لسه محتفظ بيها وصوركم في الشقة القديمة فاكر.

ابتلع لعابه في توتر هامسًا:

- كلنا خدامين معاليك.

قلت له في عنف:

obeikan.com

- يبقى تنفذ الأوامر وبس.. ما تحاولش تجود... وما تقلقش دورك في حل الأزمة جي.. وكل اللي عليك التنفيذ كالأعمى إنت ورجالتك.. فاهم؟

كاد أن يبكي وهو يهمس في جبن:

- فاهم يا فندم.

ثم أشرت إليه لينصرف.

تحولت لآلة بلا مشاعر، لم أعد أتذكر أي إنسان مر عليّ في حياتي، حتى أبنائي لم أتصل بهم لأطمئن عليهم في الغربة، لم أعد أرى أمامي غير طريق الحلم.

تكررت المظاهرات الرافضة للديكتاتورية وللقمع، وكذلك غير الراضية عن الأداء الاقتصادي وارتفاع الأسعار وندرة السلع والمواد الغذائية.

تلك المرة كان الصدام مع الشرطة التي سلحتها بأحدث الأسلحة لأتفادى ما حدث مع النظامين السابقين، لذا تحولت أغلب التظاهرات إلى مجازر، وسالت بحار الدم.

شعرت بالقلق في داخلي، كل هذا الدم أزعج روحي، رغم عتمتها لتعلم حجم الدم المراق، لكن الصوت المرسل همس لي في حكمة:

)طريق البناء مليء بالأشواك... ولابد من التضحية.. كل تلك الدماء درجات سلم نحو البناء.. نحو بلد عادل قوي).

فجأة انفجرت البلاد..

طوفان بشري هائل اقتحم كل الميادين، مطالبًا برحيل السلطة والنظام،

obeikan.com

مع زيادة الدماء شعرت الأغلبية بأنه لا أحد بعيد عن القتل، مع زيادة الاعتقالات العشوائية شعر الجميع بأنه لا أحد بعيد عن الاعتقال مهما كان انتماءه، لذا غير الكثيرون من انتمائهم والباقي لزم منزله، ومع زيادة الغلاء وندرة الغذاء وبدأ الفقراء والأطفال في الموت جوعًا، انتبه أغلب العبيد إلى أنه ليس بعيدًا عن الموت جوعًا، لذا شعروا بأن النظام لا يهتم بهم.

حاولت الشرطة فض المظاهرات لكنها فشلت، رغم الأسلحة الحديثة بسبب الأعداد المهولة، فآثروا السلامة فانسحبوا وسيطر الشعب على البلاد.

جلست في غرفتي أمام المرأة، وظللت أنظر لنفسي للحظات ثم ابتسمت لها في هدوء هامسًا:

- وصلنا لمحطة النهاية.

لم يحدثني الصوت تلك المرة، بل اهتز جسدي للحظات لأشعر بشيء ينفصل عني، نظرت للمرأة في دهشة، فأتاني الصوت من خلالها عبر شفتي لا عقلي تلك المرة متحدثًا بالعامية لا الفصحى كما عودني:

- ضحيت كتير بكل حاجة علشان اللحظة دي.. فلازم تستعد لها كويس.

قلت له في ألم:

- في رأيك اللحظة دي تستحق كل اللي أنا خسرته.. تستحق إني أقتل أمي وعلياء.. تستحق الدم اللي ملا الشوارع.. تستحق إني أخسر روحي.

أجابتني المرآة في هدوء:

- وإنت تستحق إنك تتعذب طوال حياتك.. تستحق إنك تجوع وتتعرى تحت الكوبري.. تستحق إن أمك تغتصب وتتحول لشرموطة.. تستحق إن الأغنيا يعاملوك معاملة العبيد.. تستحق إن الناس يتخلوا عن أمك وعنك علشان خايفين من السلطة.. تستحق إنك تخسر روحك وكرمتك.. بذمتك شعب زي ده يستحق الحياة أو يستحق حتى فرصة.. جي دلوقتي عاوز تبكي على شعب زي ده!

همست له في مرارة:

- معاك حق.. أنا فقدت شعبي اللي هو أمي وعلياء.. فخلاص ماعدتش تفرق.. والطريق خلاص ونهايته لاحت.. ومافيش مفر من النهاية اللي المخرج نفذها.

أجابني في بساطة وهو يهندم ملابسه:

- يبقى لازم تكون نهاية مشرفة!

عقدت اجتماعًا مع مجلس الأمن الوطني، تباحثوا الأوضاع، وأنا لاهٍ عنهم ضائع في بحر الذكريات الخاص بي، لم أكن أهتم بمجادلتهم العقيمة، كله حرث في البحر، لقد كتبت النهاية وحان وقت تنفيذها.

قال لي أحدهم، ولم أهتم حتى بالنظر إليه:

- الوضع ميئوس منه يا ريس.. العيال سيطرت على الميادين وبدأوا في احتلال المصالح الحكومية والطرق محاولين شل البلاد.. فلازم حل سريع.

قلت له في هدوء:

obeikan.com

- الحل موجود.

ثم التفت لوزير الدفاع قائلاً له:

- نفذ.

تبادل النظرات معي ثم مع باقي رجال المجلس العسكري وقادة الأسلحة، وكلهم كما تعلم رجالي، ربيتهم وصنعت كروشهم بيدي، لذا هز الجميع الرؤوس بالموافقة وأحدهم يقول في إخلاص:

- كلنا معاك يا ريس.

وآخر يهتف:

- كلنا فداك يا ريس.

لم أخرج على الشعب في خطاب عاطفي كالرئيس القديم، لم أهتم، لقد دانت النهاية فلم يعد عندي طاقة لفعل شيء.

نزل الجيش في كل أنحاء البلاد، هلل له الشعب منتظرًا منه دعم الثورة الشعبية، لكن وزير الدفاع خرج عليهم عبر التلفاز قائلاً في صرامة:

- لقد حنونا كثيرًا على هذا الشعب وحميناه من الكوارث، لكن فئة ضالة حرضت السذج والغلابة ضد أفضل رئيس حكم البلاد... لذا فقد ضاق صدر القوات المسلحة من حملة الفتنة.. لذا قررت القوات المسلحة دعم النظام الحاكم وإعطاء فرصة للمتظاهرين لفض المظاهرات والإبلاغ عن حملة الفتنة، حمى الله الوطن.

صدمة أصابت الشباب والمتظاهرين، بدأ العبيد في التسلل هربًا كعادتهم،

obeikan.com

وتبقى في الميادين الشباب الغاضب، انتهت المهلة المعطاة للمتظاهرين لفض المظاهرات، لكنهم رفضوا وقرروا مقاومة القوات المسلحة.

بدأ الفض بقوة وغباء أكبر من غباء الشرطة، سالت الدماء في غزارة مخيفة، بدأ الشباب في المقاومة، زاد غضب الجيش فبدأ في استخدام الأسلحة شبه الثقيلة ضد الشباب.

مذابح رهيبة اجتاحت البلاد، سيطر الجيش على الوضع لعدة أيام، لكن الشباب بعدما التقط أنفاسه أنقض بغتة على القوات المنتشرة في المدن، وكانت مفاجأة للجميع أن الشباب كان مسلحًا.

ابتسمت في ألم، هامسًا لرفيقي في المرآة:

- مفاجأة.. صح.

قال لي في خبث:

- مش ليا طبعًا.. أنا صاحب الفكرة.. شباب أعزل ضد جيش مسلح مش هيوصلنا للنتيجة اللي إحنا عايزينها.

قلت له في مرارة:

- بس جيش مسلح قصاد شباب مسلح الوضع هيتغير، وخصوصًا والجيش مالوش في حرب الشوارع.. بكده الحرب هتكون شبه متوازنة.

أشار إلى ملابسي، ثم قال لي في حزم:

- هندم نفسك.. النهاية قربت.

***

تكبد الجيش خسائر فادحة، بسبب حرب الشوارع التي كانت تصب في صالح الشباب الخفيف الحركة، لم تجدِ حالة الطوارئ في تقليل الهجمات أو الخسائر.

صرخت بالقادة في غضب:

- يعني إيه جيش مش قادر على شوية عيال؟!

أجابني قائد القوات في ارتباك:

- حضرتك الشباب بيضرب ويختفي في البيوت والحواري وإحنا بنبذل قصارى جهدنا.

قلت له في قسوة:

- لو مش قد المسؤولية قدم استقالتك.

قال لي في ذعر:

- قدها يا فندم.

قلت له في حسم:

- الشباب دول لازم تقضي عليهم، البلد بتقع.. أنا بديك الضوء الأخضر.. المهم تخلص البلد من الخونة دول.

صمت للحظات ثم أضفت عبارتي الخبيثة التي كنت أجهزها لتلك اللحظة:

- لو اضطريت إنك تهد البيوت هدها بس لازم تنجح في إنقاذ البلد.

عشرات البلدوزرات والجرافات كانت تقتحم أماكن تمركز شباب الثورة

obeikan.com

هادمة المنازل فوق السكان، والتلفاز كعادته يبرر الوضع، بدأ الناس في منازلهم يشعرون بالرعب، وكل واحد فيهم ينام شاعرًا بأنه لن ينهض أبدًا.

زادت شراسة الجيش لتقابلها شراسة من الشباب واليائسين المنضمين حديثًا، بعدما فهموا أنها النهاية، ومع الوقت بدأ تسليح الشباب يتطور ليماثل تسليح الجيش، وبدأ الشباب في طرد الجيش من المدن والسيطرة عليها في تطور سريع للأمور.

عقدت اجتماع سريع مع القادة العسكريين وصرخت فيهم في قسوة:

- شوية عيال سيطروا على البلد... شوية عيال يطردوا الجيش من كذا مدينة!

أسرع أحدهم يقول متلعثمًا:

- فيه طرف خفي عاوز يوقع البلد.. الطرف ده بيسلح الشباب بأسلحة متفوقة.

قلت له في غضب ملتفتًا لمدير المخابرات:

- وده دور المخابرات.. قولي يا باشا مين دول؟

أجابني في إحباط:

- لسه مش عارفين يا فندم.

صمت للحظات ثم سألت قائد القوات في حنكة:

- بالتأكيد عندنا سلاح تفوق ممكن نغير بيه الموازين ونسترجع البلد.

obeikan.com

أجابني في لهفة حذرة:

- فيه سلاح بس عواقبه هتكون وخيمة وهتتسبب في دمار كبير.

قلت له في صرامة:

- مش مهم الدمار.. المهم نسترجع البلد الأول وبعدين نبنيها ونعمرها.

صمت للحظات ثم سألته في حزم:

- إيه هو السلاح؟

أجابني في تلقائية:

-الطيران.

obeikan.com

الخاتمة

ارتديت أفخم حلة عندي ثم اقتربت من المرآة، وطلبت من صديقي هندمة الكرافتة، ثم سألته متوترًا:

- إيه رأيك؟

قال لي مبتسمًا في راحة:

- بدلة حلوة تليق بنهاية حلوة.

طلبت من الحرس الجمهوري البقاء في القصر ثم دلفت للسيارة، حاول قائد السيارة الذهاب معي، لكني هتفت به في غلظة:

- مش عاوز حد معايا.

أجابني قائد الحرس وهو يتبادل نظرات قلقة مع السائق:

- حضرتك الوضع في البلد خطر.

وضعت إصبعي على فمي ليصمت، ثم انطلقت بالسيارة عبر أرجاء البلاد لأشاهد الدمار في كل مكان، والدخان المتصاعد من أثر التفجيرات والحرائق يضفي صورة ضبابية على البلد، صورة حزينة لبلد كانت يومًا ما مثالاً للرقي والتحضر والأمان، بلد تمتلك التاريخ والتراث، بلد عظيمة تحولت بسبب الطبقية والجبن والطمع إلى حطام دولة.

obeikan.com

توقفت بالسيارة تحت أكبر برج في البلد، ثم صعدت عبر السلم خطوة خطوة في تأنٍ وأنا أخرج كراستي من جيبي، كاتبًا فيها كل ما أفعله.

هذه البلد أحبها، أعشقها، لكنها كانت تحتاج صدمة لتنهض من غفوتها، هذه البلد تحتاج الحرية والعدالة لتصبح دولة عظيمة.

انتقامي منها حب.

هذه البلد شاهدة على ظلم أمي، على فجرها، وشاهدة على نظرة علياء الدونية لي، هذه البلد شاهدة على عنصرية السادة وطغيانهم، هذه البلد شاهدة على جبن العبيد.

هذه البلد كانت تحتاج لصدمة، ليس لطرف معين، بل للبلد ذاتها، لتنتفض من غفوتها لتوقف أبناءها - بنفسها - عند حدهم، آن للبلد أن تنشق مخرجة العملاق من جوفها.

وصلت لقمة البرج لأرى البلد كلها من فوق، كم هي جميلة رغم الدمار، عظيمة رغم الظلم والجفاء.

رأيت الدبابات تقصف الأحياء، الطائرات تقصف البيوت في بشاعة، النيران تشتعل في كل مكان، البلد تحترق.

تذكرت أمي وعلياء.

تذكرت الحياة في الحارة.

تذكرت حلمي.

نظرت للورقة ومددت قلمي نحو الاسم الوحيد المتبقي من قائمة الانتقام..

ثم شطبت على كلمة وطن.

انتقامي حب.

لذا ابتسمت في راحة، وأنا أشاهد الطيارات تدكها دكًا لتهدمها، عسى أن تبدأ من جديد على أسس العدل والمساواة.

ثم قفزت من البرج صارخًا في سعادة:

-أمي!

ما بعد الخاتمة

جثة الرئيس تحت البرج.

فوق البرج كراسة بها قصته.

وورقة بها انتقامه.

ووطن مشطوب.

تمت

obeikan.com

شكر وتقدير

محمد راضي

احمد ابوريه

محمد مجدى يوسف

محمود ابولمونة

ايمن البطراوى

obeikan.com

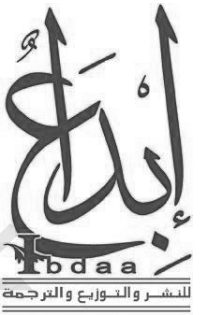

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com